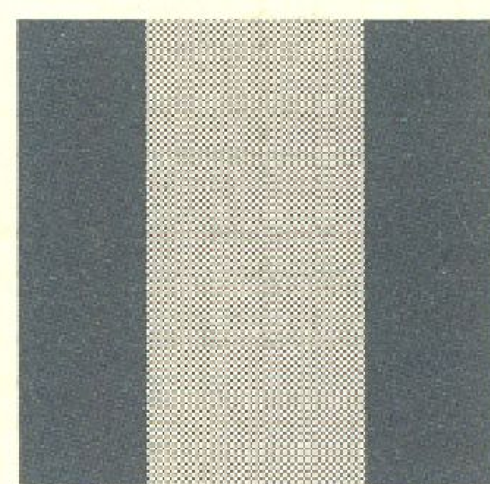
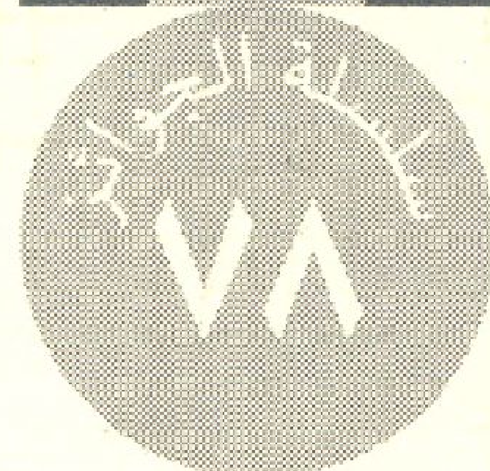
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز





رواية

دانيل بناك

حزن مدرسي

ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد

الكاتب

• دانيل بناك. واسمه كاملاً "دانيل بناكشيونى".
• كاتب وروائى ومؤلف كتب أطفال فرنسى شهير.
• ولد فى مدينة كازابلانكا فى المغرب عام ١٩٤٤.
• قضى طفولته متنقلاً بين إفريقيا وآسيا بمصاحبة أسرته التى كانت عسكرية.
• بدأ مشواره الأدبى بالكتابة للطفل.
• حاز العديد من الجوائز الأدبية معظمها عن منجزه الاستثنائى فى الكتابة للطفل. ففى عام ١٩٩٠ حصل على جائزة الكتاب العالمى عن كتابه "بائعة النثر الصغيرة". وفى عام ٢٠٠٥ حاز جائزة الأدب فى الكتابة للطفل عن كتابه "عين الذئب". وفى عام ٢٠٠٨ حصل على الجائزة الزرقاء الكبرى عن مجمل أعماله.

أما روايته "حزن مدرسى" فقد حازت جائزة "رينودو" لعام ٢٠٠٧.

الجائزة

جائزة رينودو

من الجوائز الأدبية الفرنسية رفيعة المستوى. شرع عددٌ من نقاد الأدب والصحفيين فى تأسيسها عام ١٩٢٥. وذلك لتُعلن قبيل الإعلان عن الجائزة الشهيرة "الجونكور". وأطلقوا عليها اسم "تيوفراست رينودو". وهو أوّل من أسس جريدة فرنسية فى عصر لويس الثالث عشر عام ١٦٣١.

وقد أثبتت جائزة "رينودو" جدارتها بعد أكثر من نصف القرن وحازها أهم كُتاب فرنسا ابتداءً من أولى دوراتها عام ١٩٢٦. التى حصل عليها "أرماند لوينل" عن كتابه "نيكولوبيكا فى". وكان آخر حائزيها "داديس كامارا" عن كتابه "قصائد فى الولاء للزهور" عام ٢٠١٠.

حزن مدرسي

بناك، دانيال.

حزن مدرسي: رواية/ تأليف: دانيال بناك؛ ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٤٠٠ص ؛ ٢٢ سم. ـ (سلسلة جوائز)

تدمك ٥ ٦٥١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص.

أ ـ عبد المجيد، عاطف محمد. (مترجم).

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧١٩٩/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -651 - 5

ديوى ٨٠٨,٨٣

حزن مدرسي

تأليف: دانيل بناك

رواية

ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

• الكتاب: حزنٌ مدرسى

Chagrin d’école

• تأليف: دانيال بناك

Daniel Pannac

• ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد

• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مِنْ أجْلِ مِين(*)..

أوهْ..إلى أيِّ مَدىً!

إلى..

فانشون دلفوس

بيير أرين

جوزيه ريڤو

فيليب بونيه

على مهيدى

فرانسواز دوسيه

ونيكول أرليه

محررى التلاميذ إن كنتُ أحدهم.

وإلى ذكرى چان رولان

الذى لمْ ييْأس أبَدًا مِن التلميذِ الكسولِ

الذى كُنْتُهُ.

(*) مين.. اسم زوجة المؤلف.

١

صُنْدوقُ قِمامةِ جيبوتي

إحْصائيًا :يَتَّضحُ كلُّ شَيءٍ . .

شَخْصيًا :يَتعقَّدُ كلُّ شَيءٍ .

-١-

فَلْنبدأ بالخاتمة: أمَّى ذاتُ المائة عامٍ تقريباً تُشاهدُ فيلماً عَنْ مُؤلِّف تَعْرفهُ جَيّداً نَرى المؤلفَ حيثُما يُقيمُ. فى باريسْ مُحاطاً بكُتُبه.. فى مَكْتبته ومَكْتبه فى آنٍ تُطلُّ النافذةُ على فناء مَدْرسة جَلَبَةً مُسلّيةً نعْرفُ أنَّهُ خلالَ ربْع قَرْنٍ مَارسَ المؤلفُ مهْنةَ التدْريسِ وأنّه لوْ كانَ اخْتارَ هذه الشقّةَ التى تطلُّ على ساحتيْنِ للاسْتراحة فهذا على طريقة عامل سكّة حديد كانَ يتقاعدُ أعْلى مَحطّة الفَرْز ثمَّ نرى المؤلفَ فى إسْبانيا. فى إيطاليا وهو يتناقشُ مع مُترْجمى كتبهِ مُمَازحاً أصْدقاءه البُنْدقيّينَ(١) وسَائراً على هضبة فيركور وحيداً.. فى ظلِّ سحابةٍ من المُرْتفعات يقولُ ناطقاً: مهْنةٌ.. لُغةٌ.. أسْلوبٌ.. بناءٌ روائىٌّ.. شخْصياتٌ.. مكْتبٌ جديدٌ يطلُّ هذه المَرّةَ على الأُبَّهة الألْبيَة(٢). هذه المَشَاهدُ تُتَخلَّلُ بمقابلات فنانين يُعْجبُ بهم المؤلفُ ويتحدَّثونَ بأنْفسهمْ عَنْ عملهمْ الخاصْ: السينمائىّ والروائىّ ديه سيجى.. المُصمّم

(١) نسبة إلى مدينة البندقية الإيطالية. (المترجم).

(٢) نسبة إلى جبال الألب. (المترجم).

سامبيه.. المُغنّى توماس فيرسن..الرّسَّام چورج كرينبل.

عودةٌ إلى باريسَ:المؤلفُ وراءَ جهازِ كمبيوتره.وسَطَ قواميسه هذه المَرّةَ.

هو مُولعٌ بها.يقولُ مِنْ جهةٍ أُخْرى نعْرفُ وهذه هى خُلاصةِ الفيلمِ: أنّه دخلَ قاموسَ لو روبير[1] إلى حَرْفِ (ب/ B) تحْتَ اسْمِ بناكْ مِنْ اسْمه[2] الكامل بناكشيونى.. دانيال مِنْ اسْمه. أمّى.. والحالةُ هذه.. تشاهدُ هذا الفيلم فى رفْقةِ أخى برْنارَ الذى سَجَّلَهُ مِنْ أجْلها. تشاهده مِنْ أوْله إلىَ آخرهِ وهى لا تتحرّكُ فوْقَ مقْعدِها.عيْناها فى حالةِ ترْكيزٍ شديدٍ.. دونَ أنْ تنْبسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ فى المساءِ الذى حَلَّ.

نهايةُ الفيلمْ.

مُقدّمةُ الفيلمْ.

سكوتْ.

بعْدَ ذلكَ تسْتديرُ ناحيةَ برْنارْ وتسْألُ:أتعْتقدُ أنَّهُ سَيُشْفَى ذاتَ يوْمٍ؟

---

(١) اسم أهم وأشهر قواميس اللغة الفرنسية.(المترجم).

(٢) اسم المؤلف كاملاً هو: دانيل بناكشيونى. (المترجم).

- ٢ -

كمْ كنتُ تلميذاً سيّئاً غيْرَ أنَّها لمْ تصلْ تماماً إلى درجةِ أنْ تَزْجرَني.اليوْمَ شعورها شعورُ امْرأةٍ عجوزٍ جداً تهْجرُ شواطئَ الحاضرِ كي تَرْتَدَّ بهدوءٍ في اتجاهِ أرْخبيلِ الذاكرةِ البعيد.. الحشَفَة الأولى(*) ـ كي تنْبثقَ مَرَّةً أخْرى ـ تُذكّرها بانْشغالِ البالِ هذا الذي كانَ يَقْضمُها طوالَ فتْرةِ دراستي.

تُلْقي إليَّ نظْرةً مهْمومةً وببطءٍ:

ـ ماذا تفْعلُ في الحياةِ؟

في وقْتٍ مُبكّرٍ جداً بَدا لها مُسْتقبلي قاتماً للغايةِ درجةَ أنَّها لمْ تَطْمئنَّ تماماً لِحاضري.لمْ أكُنْ شَيْئاً كي أصْبحَ شيْئاً..لمْ أكنْ أبْدو لها مُسلَّحاً حتَّى أدومْ.كنتُ طفْلها الوقْتيّ. لقدْ عرفتْني مع هذا وأنا أتخلّصُ منْ مآزقي منْذُ شهْرِ سبتمبر ١٩٦٩ يوْمَ أنْ دخلْتُ فصْلي الأوّلَ بصفتي مُدرِّساً.لكنْ في غضونِ عشراتِ السنينِ التي تَلَتْ هذا (هذا يعْني أثناءَ مُدّةِ حياتي وأنا بالغ) قاومَ انْشغالُ بالِها سِراً كلَّ (براهين

(*) صخرة كبيرة قرب شاطئ البحر والكلمة مأخوذة عن الكلمة العربية: رصيف.(المترجم).

النجاح) التى جَلَبتْ عليها مُكالماتى الهاتفية. خطاباتى. زياراتى.. صُدور كتبى. مقالات الجرائد أوْ مرورى عند بيڤو. لا اسْتقرارُ حياتى المهنيّةِ ولا معْرفةُ عمَلى الأدبىّ.. لا شَىءَ ممَّا كانتْ تسْمعهُ يُقالُ عنِّى بواسطةِ آخرين أوْ ما كانتْ تسْتطيعُ أنْ تُطالعهُ فى الصحفِ لمْ يُطَمْئنْها كُلّيّةً بالتأكيد. كانتْ تبْتهجُ بنجاحاتى مُتحدّثةً عنْها مع أصْدقائها مُعْترفةً أنَّ أبى - الذى ماتَ قبْلَ أنْ يتعرَّفَ إليْهمْ - كانَ يُمْكنُ أنْ يُسَرَّ بنجاحاتى.. لكنْ فى قرارةِ نفْسها كانَ يقْطنُ قَلقُ أنَّها تَسبَّبتْ وإلى الأبدِ فى ولادةِ تلميذٍ سيئٍ منْذُ البداية. هكذا كانتْ تُعبِّرُ عن حبِّ الأمِ. حينَ كنْتُ أمْزحُ معَها فيما يَخصُّ لذَّاتِ القلقِ الأُمومىِّ كانتْ تَردُّ بلُطْفٍ بنُكْتةٍ على طريقةِ وودى ألين:

- ماذا تريدُ. كلُّ الرحَّالاتِ ليْستْ أُمّهاتٍ لكنْ كلُّ الأمهاتِ رحالاتٌ.

و.. اليومَ لمْ تعدْ أمى العجوزُ الرحالةُ حاضرةً.. إنّه منْ جديدٍ ذلك القَلقُ الذى يبْدو فى عيْنيْها حينَ يسْتقرّانِ على صغيرها الأخير ذى الستين عاماً. قلقٌ قلَّلَ منْ شدَّتها. همٌّ مُتحجِّرٌ.. لمْ يعدْ سوى عادتها هى نفْسها.. لكنْ ما يمْكثُ صلْباً بالقدْرِ الكافى منْ أجْلِ أنْ تسْألنى أمّى. هو يَدُها المَوْضوعةُ فوْقَ يَدى حينَ أتْركها:

- ألديْكَ شَقّةٌ فى باريسْ؟

- ٣ -

إذاً.. كنْتُ تلميذًا سَيِّئًا. كلَّ مساءٍ مِنْ مساءاتِ طفولتى كنْتُ أعودُ إلى منْزلى تُلاحقنى مَدْرستى. كانتْ كرّاساتى تَرْوى توْبيخَ أساتذتى الشديدَ لى. حينَ لا أكونُ الأخيرَ فى الترتيبِ على الفصْلِ فهذا يعْنى أنَّ ترْتيبى هو قبل الأخيرْ.

(سَهْلٌ طبَاشيرىٌّ!)

عصىٌّ الذِّهْنِ على الحسابِ أوَّلاً. ثمَّ على الرياضياتِ بعْدَ ذلكَ. ثمَّةَ أخْطاءٌ إمْلائيةٌ بعُمْقٍ. مُتمرِّدٌ على حِفْظِ التواريخِ. على حَصْرِ الأماكنِ الجُغْرافيةِ. غيْرُ جديرٍ بالتدرّبِ على اللغاتِ الأجنبيةِ.. مَشْهورٌ بالكسَلِ (دروسٌ لا تُسْتذْكَرُ. عملٌ لا يُؤدّى)..

كنْتُ أجْلبُ إلى المنْزلِ نتائجَ تَدْعو إلى الرثاء. لمْ تكنْ تُكفِّرُ عنْها لا الموسيقى ولا الرياضةُ ولا حتَّى أىُّ نشاطٍ دراسىٍّ آخرْ.

- هلْ تفْهمْ؟.. هلْ تفْهمُ ما أقومُ بشرْحهِ لكَ فقطْ؟

لمْ أكنْ أفْهمْ. كان عَدمُ القُدْرةِ على الفهْمِ هذا يعودُ إلى طفولتى أبْعدَ كثيراً مِن الأسطورةِ التى

تَخيلَتْها أُسْرتى كى تُؤرّخَ منْها للأساسياتِ تَدربى على الحروفِ الأبجديةِ. كنْتُ أسْمعُ مَنْ يقولُ بأنّنى أحْتاجُ إلى عامٍ كاملٍ كى أحْفظَ حرْفَ الـ (a) . حرفُ الـ (a) فى عامٍ.

كانتْ صحْراءُ غبائى تبْدأُ بعْد ذلكَ مِنْ حرْفِ الـ (b) الذى لا يُقْهرُ. مَا مِنْ هَلعٍ.. فى غضونِ ستّةٍ وعشرينَ عامًا سيعْرفُ حروفَ أبجديّتِه بامْتيازٍ. هكذا كان أبى يتهكّمُ كى يُلْهى نفْسهُ عمّا فى داخله مِنْ خَوْفٍ. فيما بعدُ بسنواتٍ عديدةٍ كنْتُ أُعيد سَنَتى النهائيةَ لنَيْلِ الشهادةِ الثانويةِ التى أفْلتتْ منّى بإصرارٍ.. ثمَّ سيقولُ أبى هذه العبارةَ:

ـ لا تقْلقْ. حتّى بالنسبةِ إلى الثانويةِ العامةِ ستحْصلُ عليْها بشْكلٍ آلى...

أو.. فى سبتمبر ١٩٦٨ كانتْ شهادةُ ليسانسِ الآدابِ أخيرًا فى جيْبى:

ـ كنْتَ تحْتاجُ إلى انْقلابٍ مِنْ أجْلِ شهادةِ الليسانس.. ألابُدَّ أنْ نخْشى وقوعَ حَرْبٍ عالميةٍ مِنْ أجْلِ شهادةِ الأسْتاذية؟

قيلَ هذا دونَ سُوءِ نيّةٍ شخْصيةٍ. كانَ هذا هو حَالنا فى التواطؤ بسرعةٍ تكفى فَضلَّنا الابتسامَ.. أبى وأنا.

لكنْ لنعودَ إلى بداياتى. كنْتُ المولودَ الأخيرَ بيْنَ أرْبعةِ إخوةٍ. وكنتُ حالةً شَاذةً لمْ يكنْ لَدَى أبى وأمى وقْتٌ ليتدرَّبا مع إخْوتى الذين كانوا يَكْبروننى والذينَ

جـرَتْ الأمـورُ دونمـا مُـعـارضـة كـى لا تـكـون دراسـتـهمْ مُتـألقةً بشكْلٍ استثنـائىٍّ. كنْتُ مَثارَ ذهـولٍ. ذهـولٍ دائمٍ إذْ إنَّ السنواتِ كانتْ تَمرُّ دونَ أنْ تحْملَ لى معها أدْنى تَحسّنٍ فى حالةٍ بلادتى الدراسيـة. (يُذْهـلنى هـذا).. (لمْ أُصرَّ على التفكيرِ فيه).. كانَ ثمَّةَ تَعجّبٌ عائلىٌّ يُشـاركنى نظـراتِ بلوغى حيْثمـا أرى بشكلٍ جيـدٍ أنَّ عجْزى عن الاستيعابِ أيّاً ما كان يُشْبهُ حَفْرَ هاويةٍ مِنْ جحودٍ.

ظَاهريًا.. كانَ الجميعُ يفْهمونَ أسْرع منّى بكثيرٍ.

ـ أنْتَ بليدُ الذهْنِ تماماً!.

ذاتَ ظـهـيـرةٍ مـا فـى سَنـةٍ مِنْ سـنـواتِ الـشـهـادةِ الثـانويةِ (إحْدى سنواتِ الثـانويـة)..أعْطانى أبى درْساً فى مادةِ حسابِ المُثلّثاتِ فى الحُجْرةِ التى كانتْ تُؤدّى دوْرَ حجْرةِ المَكْتبةِ. كـانَ كلْبُنـا يـرْقـدُ فـى هـدوءٍ فوْقَ السريرِ خَلْفنا.لافتاً الأنْظارَ مالَ أبى إلى الوراءِ بجفاءٍ وقالَ:

ـ اخْرجْ أيُّها الكلبُ مِنْ هنا!.

بـعْـدَ ذلكَ بـخـمْـسِ دقـائقَ كـان الـكـلبُ مـرةً أخْرى فوقَ الـسـريـرِ تحْـديـداً تَـعـهَّـدَ بـأنْ يـبْـحـثَ عن الـغـطـاءِ القديمِ الذى كانَ يَقى مقْعدهُ وأنْ ينامَ فوْقهُ.

إعْـجـابٌ عـامٌ.. بـكلٍّ تـأكـيـدٍ.. ومُـبـرّرٌ: أنْ يـسـتـطـيعَ حيوانٌ أنْ يرْبطَ مـا بيْنَ المنْعِ والفكْرةِ المُجرّدةِ للنظافةِ ويخْرجُ منها بالخلاصةِ التى يُرتّبُ فراشَهُ بناءً عليْها

كى ينْعمَ بصُحْبةِ مَالكيهِ.. فلأرْفعْ له قُبّعتى.. بالتأكيدِ هذا منْطقٌ يُوثقُ بهِ!.

كانَ هذا موْضوعاً للمُحادثاتِ العائليةِ التى عبرتْ العصورَ. شخْصيًا.. فررْتُ من التعليمِ الذى حتّى كلبُ المنزلِ كان يسْتوعبهُ أكْثر سرعةً منّى. أعْتقدُ أننى سَأهْمسُ فى أُذنه:

غَداً.. أنْتَ مَنْ سَيذْهبُ إلى المَدْرسةِ.. مُتملّقًا.

ـ ٤ ـ

سَيِّدان مُسنَّانِ يَتنزَّهانِ على شاطئ اللوب. نهْر طفولتهما أخَّانِ. أخي برنار وأنا كانا يغوصانِ فى هذا النقاءِ منذ نصْف قَرْنٍ مضى. كانا يسْبحانِ وسَطَ أسْماكَ الطَّحَّانِ التى لمْ يكنْ يُرْعبها ضجيجُهما. أتاحتْ أُلْفةُ الأسماك لهما أنْ يَظنَّا أنَّ هذا السرورَ سيدومْ. كانَ النهرُ يجْرى بيْن مُنْحدريْن حينَ تَتَبَّعهُ الأخانِ حتَّى البحْرِ.. تَارةً يحْملهما التيارُ وتَارةً يمْشيانِ على الصخورِ أدْركا أنَّهما سوْفَ يتوهانْ. كى يلْتقيا مرةً أخْرى كانا قدْ تعلَّما كيْفَ يُصَفِّرانِ باسْتخدامِ أصابعهما. كانَ ثمَّةَ صَريرٌ طويلٌ يَرْتدُّ مِن الحواجزِ الصَخْريةْ.

اليوْمَ.. انْخفضَ مُستْوى المياه.. اخْتفت الأسماكُ.. زَبَدٌ لَزجٌ وراكدٌ يُعْلنُ انْتصارَ المُبيدات المُنظِّفةِ على الطبيعةِ لمْ يَبْقَ مِنْ طفولتنا سوى شَدْوِ عصافيرِ الحصاد.. سوى حرارةِ الشمْسِ الصمْغيّة، ثمَّ نعْرفُ دائماً كيْفَ نُصفِّرُ باسْتخدامِ أصابعنا. لمْ نفْقدْ أبداً أذُناً.

أقولُ لبرنار إنّنى أحْلمُ بتأليفِ كتابٍ يتعلَّقُ بالمدرسةِ. ليْست المَدْرسةُ التى تتَغيّرُ فى المُجْتمعِ الذى

يتغيَّرُ كما تَغيَّرَ هذا النهْرُ.. لكنْ فى قلْبِ هذه البَلْبلة المُتواصلة يتعلَّقُ بما لا يتغيَّرُ. تحْديداً.. بشىءٍ دائمٍ لمْ أسْمعْ أحدًا يتحدثُ عنْه أبدًا: الألمُ الذى يشْطرُ التلميذَ الكسولَ إلى نصْفيْنِ.. ألَمُ الآباءِ.. ألمُ المُدرّسينَ.. كتابٌ يتعلقُ بتفاعُلِ كلٍّ هذه الأحْزانِ المَدْرسيةْ.

- مَنْهجٌ ضَخْمٌ. كيْفَ ستُلمُّ به؟

- مُهيّئاً الطعامَ على سبيل المثال. أيّةُ ذكْريات مازلْتَ تحْتفظُ بها عَنْ عدَمِ كفاءتى. فلْنَنقُلْ فى الرياضياتِ مثْلاً؟

كانَ أخى برنار الفَرْدُ الوحيدُ فى أُسْرتى الذى لديْه القُدْرةُ على مُساعدتى فى عمَلى الدراسىِّ دونَ أنْ ألْجأ إلى حَبْسِ نفْسى كَمَحَارة. كنَّا نتقاسمُ الحُجْرةَ نفْسَها حتَّى دخولى الصفَّ الخامسَ حيْثُ قُبلْتُ فى مدرسةٍ داخليةٍ.

- فى الرياضياتِ؟ بدأ هذا بالحسابِ.. أنتَ تعْرفُ!.

ذاتَ يوْمٍ سألْتُكَ ماذا تفْعلُ بهذا الكَسْر الاعتيادى الذى تراه أسْفلَ عينيْكَ. فأجبْتنى بشكْلٍ آلىٍّ: (يجبُ أنْ نُحولّهُ إلى عَاملٍ مُشْتَرَك) (*)

لمْ يكنْ سوى عامل مشترَك.. إذًا عاملٌ مشتركٌ وحيدٌ. لكنّكَ لا ترْجعُ عمَّا أنْتَ فيهِ: ألابُدَّ مِنْ تحْويلهِ إلى عاملٍ مُشْتَرَك!

(*) العامل المشترك هو رقم يقبل حداً الكسر الاعتيادى القسمةَ عليه. (المترجم).

كمْ كنْتُ لَحوحًا: فَكِّر قليلاً.. يا دانيَل لا يُوجدُ هنا سوى عامل مشترك وحيد سخرْتَ منِّى غَاضباً: إنّه المُدرِّسُ الذى قَال ذلكَ يجبُ تحْويلُ الكسورِ إلى عواملَ مُشْتركة!.

كانَ السيدانِ يبْتسمانِ طوالَ نُزْهتهما. كلُّ هذا بعيدٌ جدًا خلْفهما. عملَ أحدُهما مُدرِّساً خلالَ خمْسة وعشرينَ عاماً: ألْفانِ وخمْسمائة تلْميذ تقْريباً.. كانَ عددٌ أكيدٌ منْهمْ فى (صعوبة بالغة).. حسْبَ التعبيرِ الشائعِ.

كانَ كلا الاثْنيْنِ ربَّ أُسْرة. (قال المدرسُ إنَّ...).. يعْرفانْ. الأملُ الذى يضعهُ تلْميذٌ كسولٌ فى كثْرةِ الطلبات.. نعمْ.كلماتُ المدرسِ لمْ تكنْ سوى ألْواحٍ خشبية يتشبَّثُ التلميذُ السيئُ بها فوْقَ نهْر يجْرفهُ تيَّارهُ حتَّى الشلالات. ردَّدَ ما قاله المدرسُ. ليْسَ لأنَّ هذا كان ذا معْنى.. وليسَ لأن القاعدةَ قدْ تَجسَّدتْ.. كلا.. بلْ كى يتخلَّصَ منْ مآزقه المُؤقَّتة.. كى (أُحَرَّرَ). أوْ كى أُحَبَّ. بأىِّ ثَمنٍ.

ـ ...

ـ كتابٌ عَن المَدْرسة حينئذ؟

ألا تَرى أنَّ الكتبَ التى تتناولُ هذا الموضوعَ ليْستْ موجودةً بالقدْرِ الكافى؟

ـ ليْسَ عَن المدْرسة! فالجميعُ مُهْتمونَ بالمدرسة.. نزاعٌ أبدىٌّ للقدماء والمُحْدثينَ: مناهجها.. دورها المُجْتمعىُّ.. قَصْديَّاتها.. مَدْرسةُ الأمْسِ.. ومَدْرسةُ الغدِ..لا.كتابٌ عَن التلميذِ الكسولِ!.

عنْ ألمِ عَدَمِ الفَهْمِ وآثارهِ الجانبيةِ.

ـ ...

ـ ...

ـ أتستطيعُ أنْ تقولَ لى شيْئاً آخرَعن التلميذِ الكسولِ الذى كنتُهُ؟

ـ أنْتَ تتذمَّرُ مِنْ عدَمِ امْتلاكِ ذاكرةٍ.لقدْ كانت الدروسُ التى أشْرحها لكَ فى المساءِ تتبخَّرُ حالما يَجىءُ الليلُ. وتكونُ فى صباح اليوم التالى وقد نسيتها كلَّها.

الحقيقة أنَّ...

لمْ يكن شىء يرسخ فى ذاكرتى كما يقولُ شبابُ اليوْمِ.

لمْ يكن ثمة ما يجذبنى. لمْ يكن شىء يرسخ فى ذاكرتى. كانت أبسط الكلمات تفقد فحواها ما إنْ يُطلب منى أنْ أتأملها كمادةٍ للمعرفة. لو كان علىّ أنْ أتعلم درساً عن مرتفعات چورا(*) على سبيل المثال (أكثر من مثال.. فإنه بالنظر إلى ذلك تَذكّر دقيق جداً).. هذه الكلمة الصغيرة ذات المقطعين تتحلل فى الحال حتى أفقد كل ألفةٍ مع (فرانش ـ كومبيه.. لين).. متجر الساعات.. الفراديس.. الغليون.. الارتفاع.. البقر.. صعوبات الشتاء.. سويسرا المتاخمة لحدودنا. مرتفعات الألب أو الجبل السهل.لم تعد تُمثّل تلْكمُ الكلمة لى أى شىء.. چورا. قلتها لنفسى.. چورا؟

(*) منطقة جبلية فى فرنسا. (المترجم).

چورا.. ورحتُ أردد الكلمة دون أن أكِلَّ كطفل لم يَنْتَه بعْدُ من مَضْغها. مضْغها لا ابتلاعها. ترديدها لا تَأمُّلها. حتى تحلّلها التام مَذاقاً ومعنىً. أمضغ.. أردد.. چورا.. چورا.. چورا.. چو..را ،، چو.. را چو را چو را چورا چورا چورا حتى تصبح الكلمة مطرقةً ضخمة ترن بلا نهاية.. دون أقل بقايا المعنى. ضجة دبِقة لسِكّيرٍ داخل مخ إسفنجى.. على هذا النحو أنام على درس الجغرافيا.

ـ كنتَ تؤكد أنك تكره حروف البداية(*)!.

آه! حروف البداية هذه ديدبانات مُفزعة!.

كان يبدو لى أنها تنتصب داخل أسماء الأعلام وداخلى أنا كى تمتنع عن مُخالطتى. كل كلمة لَحِقَ بها حرف بدايةٍ كانت منذورة للنسيان الآنىّ: مدن.. أنهار.. معارك.. أبطال.. معاهدات.. شعراء.. مجرّات.. نظريات..

محظورات الذاكرة بسبب حرف البداية المذهول. قف. كان حرف البداية يتعجب.. لم أعْبر باب هذا الاسم ..إنه أكثر خصوصية. لستُ جديرًا به.. أنا أبْله!

كان برنار دقيقًا .طوال طريقنا:

ـ حرف صغير جداً.. أبْلهْ!.

ضحكاتُ أخْيَن.

(*) حروف كبيرة تبدأ بها أسماء الأعلام فى معظم اللغات الأجنبية ونسميها فى العربية بحروف (كابتال). (المترجم).

- فيما بعد.. كان ثمة تمرد على اللغات الأجنبية:
لم أكن أستطيع أن أنتزعنى من فكرة أنَّ هناك فيها أشياء أكثر ذكاءً بالقياس إلىَّ.

ـ ما كان يُعفيك من تعلم قوائم المفردات.

ـ كانت كلمات اللغة الإنجليزية تتبخر كأسماء الأعلام...

ـ ...

ـ ...

- كنتَ تروى لنفسك حكايات. فى مُجْملها.

نعم إنها ميزة التلاميذ الكُسالى. يحكون لأنفسهم فى حلقاتٍ قصة تكاسلهم: أنا بلا فائدة. لن أتوصل أبدًا إلى أنْ أكون ذا فائدة.. أنا لستُ أهلاً لتحَمّل مشقة التجربة.. أنا مُفْلسٌ سلَفًا. نِعْم ما أخبرتكم به.. المَدْرسة ليست مُهيّأةً لى...

يُخيّل للكسالى أنَّ المدرسة نادٍ مغلقٍ بإحكام يُمْنعون من دخوله. بمساعدة بعض المدرسين.. أحياناً.

ـ ...

ـ ...

سيدان مُسنّان يتنزهان بمحاذاة نهر. فى نهاية نزهتهما يسقطان فى مسطح مائىّ تُطوّقه شبكات من الحصى.

يسأل برنار:

- أأنتَ كذلك جيدٌ فى قفزاتك دائماً؟

ـ ٥ ـ

بطبيعةِ الحال ثمَّة سؤالٌ يُمكنُ أنْ يُوجّهَ عن السببِ الأساسي مِنْ أيْنَ كان يأتي تكاسلي؟

طفلٌ ينْتمي إلى الطبقة الوسطى في الدولة. سَليلُ عائلةٍ ودودة.. دونَ شِقاقٍ.. مُحاطٌ ببالغين على قدْرِ المسئولية كانُوا يُساعدونني في أداء واجباتي...

أبٌ بوليتكْنيكي[1] .. أمٌّ ربةُ منزل.. ليْسَ هناك انفصالٌ.. ليس هناك مدْمنو خمْر. ليس هناك أشخاص انفعاليين.. ليس هناك عاهاتٌ وراثية.. ثلاثةُ إخْوةٍ حصلوا على شهادة البكالوريا (مُغْرمون بالرياضيات.. عما قريب سيصبحون مهندسين وضابطاً). نظامٌ عائليٌّ سَوِيّ.. طعامٌ صحيٌّ. مكتبةٌ في المنزل. ثقافةٌ مُحيطةٌ تُناسبُ وسَط وحاضر القرن (أبٌ وأمٌّ مولودانِ قبْل عام ١٩١٤): فنُّ الرسم حتى الانطباعيين[2].. الشّعر حتى مالارميه.. الموسيقى

(١) خريج مدرسة البوليتكنيك في فرنسا. (المترجم).

(٢) معتنقو المذهب الانطباعي في الفن مدرسة فنية وجدت في القرن التاسع عشر، واسمها مستمد من عنوان لوحة للرسام الفرنسي كلود مونيه (انطباع شروق الشمس) التي قام برسمها عام ١٨٧٢م وهي باختصار شديد أسلوب فني يعتمد على نقل الصورة أو الحدث كما تراه العين المجردة

حتى دبوسى.. روايات روسية.. حقبةُ تيلار دو شاردان. چواس وسيوران التى لا مفر منها من أجل الجرأة...أحاديثُ مائدةٍ مُضْحكةٌ ومُثقّفةٌ تتمُّ فى هدوء.

ومع هذا ثمة تلميذ كسول.

كذلك ما من تفسير لِجذْبهِ من الواقع الأُسرىّ.إنه تَدرُّجٌ اجتماعى فى ثلاثة أجيال بفضل المدرسة العلْمانية.. المجانية والإلزامية. ارتقاء جمهورى فى مُجْمله. انتصارٌ على طريقة چول فيرى.. چول آخر.. عمٌّ أبى.. العم چول بناكشيونى.. قاد أبناء جارجاليه وبيلا ـ كانال.. قُرَى العائلة الكورسيكية[1] فى الحصول على شهادات دراسية. الجميع مَدينون له بأجيالٍ من مُدرِّسى المرحلة الابتدائية.. من سُعاة البريد.. من رجال الشرطة.. من موظفى فرنسا الاستعمارية والأسقفية آخرين...(كذلك ربما نكون مَدينين له بعددٍ من قُطَّاع الطُرقِ.. لكنه جعلَ مِنْهم قُرّاءً.)

يُقال إنَّ العمَّ كان يُكلّفُ الجميع فى الحلِّ والترحال بالإملاء.. بتمرينات الحساب.. كذلك يقالُ إنّه وصل به الحالُ إلى خطْفِ الأطفال الذين كان آباؤهم يضطرون لتغييبهم عن المدرسة أثناء قطاف الكستناء. كان يعيدهم إلى الأدغال ويصحبهم إلى حيث يقيم ويخبر الأب الرِّقّىّ[2]:

---

(١) نسبة إلى جزيرة كورسيكا والوصف هنا للقرى.(المترجم).

(٢) نسبة إلى تجارة الرقيق.(المترجم).

- سأردُّ إليكَ ابنكَ فوْرَ حصوله على شهادته!.

إنْ كانت هذه أسطورة فأنا أحبها. أنا لا أعتقد أننا نستطيع أنْ نتصور. على خلاف ذلك. مهنة المدرس كل الأذى الذى نُلْحقه بالمدرسة يُخفى عن أعيننا عدد الأطفال الذين تنقذهم المدرسة من الفساد. من التعصب. من العجرفة. من الجهل. من الحماقة. من الجشع. من الجمود.. أو من جَبْريّة العائلات.

كذا كان العمُّ على الرغم من هذا ثمة أجيال ثلاثة فيما بعد.. أنا.. التلميذ الكسول!

ماذا لو عرف العمُّ بى!.

منْ حُسْنِ حظه أنه مات قبل أنْ يشهد مولدى وإلا لألحقتُ به الخزىَ والعار. ليس فقط مَنْ سبقونى كانوا يمْنعوننى من التكاسل.. لكن آخر مَنْ يمثّل الذرية يحْملُ شهادةً. كنتُ مُبرمَجًا اجتماعيًا كى أصبحَ زهرةَ العائلة:

بوليتكنيكيًا.. أو طالباً فى دار المعلمين.. أو خرّيجَ المدرسة الوطنية للإدارة.. ديوان المحاسبة.. أو وزيرًا.. ستعرف العائلة التى لم تكن تستطيع أنْ تحلم بأقل مِنْ هذا. على ذلك ثمة اتحاد مؤثر مع الوضع فى عالم الأطفال المُقَدَّر لهم منذ الصغر دخول صَفٍّ لويس لو جران الإعدادى والمدفوعين جهة عرش الإليزيه[١] أو جهة اتحاد التجميل العالمى.

نمط الداروينية[٢] الاجتماعية.. إنتاج النُخَب...

---

(١) أشهر شوارع العاصمة الفرنسية باريس.(المترجم).

(٢) نسبة إلى نظرية دارون فى أصل الأنواع.(المترجم).

وبعد تلميذ كسول.

تلميذ كسول دون سَنَدٍ تاريخى.دون دراية اجتماعية.. دون انكفاء:

لماذا؟

ربما تكون الإجابة راقدة فى حُجرة العالِم النفسىّ.لكن لم يكن ذاك هو زمن عالِم الطلاب النفسى الذى يتأملهم كبديل عائلى.كنا نصنع طاقات من الشاطئ.

مِنْ جانبه كان برنار يُبدى تفسيره:

- وأنتَ فى عمر ست سنوات سقطْتَ فى صندوق قمامة چيبوتى.

- ستُ سنوات؟عام حرف الـ (A)

- نعم. كان إخراج ريح فى هواء طلق حقاً.

لقد سقطتَ فيه من أعلى جدار. لا أذكر كمْ من الوقت ظللتَ منقوعاً فيه. كنتَ قد اختفيتَ.. بحثْنا عنكَ فى كل مكان فيما كنتَ تتخبَّطُ فى هذا المكان.. فى حرارة شمسٍ قاربت على الستين درجة مئوية.

أنا أُفضّلُ ألا أتخيل ما كان يشبهه هذا المنظر.

صورة صندوق القمامة إنْ أردنا الدقة تقترب بشكل كافٍ من الإحساس بالنقص الذى يشعر به تلميذ ضائع فى علاقته بالمدرسة. من جهة أخرى سمعتُ كلمة (صندوق القمامة) تُنطق لمراتٍ عديدة كى تصف هذه الصناديق الخاصة التى تقْبلُ دون تعاقد (بأى ثمنٍ؟) أنْ تجْمعَ حُثالةَ مَدْرسةٍ ثانوية.لقد عشتُ

فيها من الصف الأول حتى الصف الخامس طالبًا داخلياً. من بين المدرسين الذين كنتُ أخضع لهم أربعة منهم أنقذونى.

عندما أخرجناكَ من كومة القذارة تلك كان دمك قد تسمّم فظللنا نحْقنكَ بالبنسلين لعدة أشهر.

كان هذا يؤلمك كثيرًا.. كدتَ تموت خوفًا. كنا نقضى ساعات نبحث عنك فى المنزل حال وصول الممرض. ذات يوم اختبأتَ فى دولاب فسقط فوق رأسك.. خوفاً من وخزة الحقنة. ها هو المجاز يتحدث:

انقضتْ فترة دراستى كلها وأنا أفرّ من المدرسين الذين كانوا يترصدون لى كأشباح تتسلح بإبَرٍ عملاقة ومُعبّأة لتلقيحى بهذا الحرق السميك.. بنسلين سنوات الخمسينيات ـ التى أتذكرها جيداً ـ هو نوع من الرصاص المُذاب الذى كانوا يضخّونه فى جسد طفل.

على أيَّةِ حالٍ. نعم. كان الخوف حقيقةً أكبرَ مشكلة طوال مدة دراستى. وكان هو حاجزها.

إلحاح المدرس الذى أصبحته أنا كان لعلاج خوفِ أكثرَ تلاميذى سُوءاً كى يجعلهم يُهشّمون هذا الحاجز. ومِنْ ثَمَّ يُتيحون للمعرفةِ فُرْصةً للْمرورْ.

-٦-

أحلمُ. ليْسَ حُلْمَ طفْل.. إنَّهُ حُلْمُ اليوْمِ.. فيما أُدَوِّنُ هذا الكتاب تحْديداً بعْد البابِ السابقِ.. الحقُّ يُقالُ. أجلس مُرْتدياً بيجامتى على حافةِ سريرى. ثمَّةَ أرقامٌ بلاستيكيةٌ ضخْمةٌ كتلكَ التى يلعبُ بها الأطفال الصغار. منثورةٌ فوق السجادة.. أمامى. علىَّ أنْ (أُرتِّبها).

إنه النَصُّ المنطوق.

تبْدو العمليةُ سهلةً بالنسبةِ إلىَّ.. ولذا فأنا سعيد. أنْحنى.. أمدُّ ذراعىَّ ناحيةَ هذه الأرقام. يتبيّنُ لى أنَّ يَدىَّ قد اختفيتا. لمْ تعدْ هناك يدانِ فى طَرفىْ بيجامتى. أكْمامى خاويةٌ. ليْسَ اختفاءُ يَدىَّ هو الذى أفْقدنى عقْلى إنَّما عدمُ استطاعتى أنْ أصلَ إلى الأرقامِ كى أُرتِّبَها. ليْتنى أعرفُ كيْفَ أفعلُ هذا.

-٧-

لكنْ.. ظاهريًا.. دون أنْ أكون عَصبىَّ المزاج.. كنتُ طفْلاً نشيطاً ومُحبّاً للعب. كنتُ ماهراً فى لُعبة البِلْى ولعبة العُظيْمات(*).. لم يكن أحدٌ يُجارينى فى لعبة الكرة المحبوسة. كنتُ بطل العالم فى لعبة الوسادة.. كنتُ ألعب حقّا. بالأحرى كنتُ ثرثارًا وساخرًا بل مُهرّجًا. حدثتْ أُلْفةٌ بينى وبين عدد من الأصدقاء من كل المستويات فى الفصل.. تلاميذ كسالى طبعًا.. سِحناتهم مُتكررة أيضاً. لم تكن لدىّ أراء مُسبّقة. كان بعض المدرسين يوبّخوننى على فُكاهتى أكثر مما يفعلون ذلك مع الجميع. وكان هذا يضيف سفاهتى إلى عجزى. أقل درجات الأدب بالنسبة إلى تلميذ كسول أن يكون رزيناً: محبط سيكون المثلَ الأعلى!.

فقط.. كانت حيويتى ضرورةً بالنسبة إلىّ..إن استطعتُ أنْ أقول هذا.كان اللعب ينقذنى مِن الألم الذى كان يجتاحنى منذ أنْ أسقط فى خِزيى المنعزل مرةً أخرى. يا إلهى!.

(*) واحدة من ألعاب الأطفال الشهيرة فى فرنسا.(المترجم).

عزلةُ تلميذ كسول فى خزيه لا تقوم أبدًا بفعل ما ينبغى فعله مِن هنا جاءت رغبتى فى الفِرار. شعرتُ مُبكراً بالرغبة فى الفرار. إلى أين؟ كفى غموضاً.

فلنقلْ الفرار من نفسى.. لكن إلى نفسى. غير أنَّ الآخرين كانوا يتقبَّلون جزءاً ما منى. على الأرجح كان الأمر يقتضى فرارى من كتابة غريبة سبقت كتابتى. وبدلاً من تشكيل الحروف الأبجدية كنتُ أرسم سحنات بشرية كانت تهرب إلى الهامش لِتكوِّنَ مجموعة من الرسومات. فى البداية كنتُ أجتهد وأثابر.. كنتُ أكُفُّ حروفى بطريقة ما.. لكنْ شيئًا فشيئًا تحوَّلت الحروف إلى كائنات صغيرة مُفكّكة ومبتهجة رحلتْ لتمارس فرحتها فى موضع آخر. رموز احتياجى للحياة الكتابية:

....(*)

....

حتى اليوم مازلتُ أستخدم هذه السحنات البشرية فى إهداءاتى. إنها عزيزة علىَّ من أجل تقطيعها بحثاً عن سطحية متميزة نلتزم بكتابتها على صفحات مراكز المصالح الصحفية. إنها جماعة طفولتى.. مازلتُ أُكِنُّ لها وفائى.

(*) قام الكاتب برسم هذه السحنات البشرية فى هامش هذه الصفحة من الأصل الفرنسى.(المترجم).

-٨-

حلمتُ وأنا مُراهق بجماعة حقيقية من الرفاق. لم يكن آنذاك حينهم ولم يكونوا من وسَطى ولم تمنحنى بيئتى الفرصة.. لكنى اليوم أيضاً أقولها بجرأة.. لو أتيحت الفرصة لى لأنضم إلى جماعة من الرفاق لفعلتُ. وبأية بهجة!.

لم أكن أكتفى برفاقى فى اللعب. لم أكن أقضى معهم سوى وقت الفسحة. كنتُ أشعر وأنا فى الفصل بالحرج. آه! يا له من حلم أن أذوب داخل جماعة من الرفاق حيث لا أهمية للدراسة!.

مَن الذى يصنع جاذبية الرفاق؟

الذوبان فيهم يضارع الإحساس بالوجود. أجمل وهم للتطابق!.

الجميع من أجل نسيان شعور الغرابة المطلقة هذا فى عالم المدرسة والابتعاد عن هذه النظرات!

يعارض إحساس التوحد فى هذه العزلة السرمدية.. مكان آخر فى هذا المكان.. مملكة فى هذا السجن. يترك جزيرة التلميذ الكسول بأى ثمن..

أكان هذا على متن مركب قراصنة حيثما كان لا يسود سوى قانون قبضة اليد والذى يقود فى أفضل الحالات إلى السجن. كنتُ أشعر بهم أكثر قوةً منى إلى أقصى حد.. الآخرون..المدرسون .. البالغون.أشعر أن قوتهم أكثر بطشًا من قبضة اليد.. مقبولة جداً.. شرعية جداً. ما وصلنى منها هو تجريب الحاجة للثأر التى تقترب من الهاجس. (أربعة عقود فيما بعد..لم أكن أفاجأ حين كان يظهر تعبير (امتلاك الضغينة) فى أفواه المراهقين. يظهر متناسلاً عبر كمية من الوسائط الجديدة اجتماعيةً كانت أم ثقافية أم اقتصادية. كان يُعبّر أيضاً عن الحاجة للثأر التى كانت بالنسبة إلىّ مألوفة جداً).

مِن حسْن حظى لم يكن رفاقى فى اللعب ممن ينضمون إلى جماعة ما ولم أكن أنتمى إلى أى مدينة. كنتُ بمفردى أُمثِّل جماعة من الشباب كما تقول أغنية رينو. جماعة متواضعة جداً حيث أمارس منعزلاً الانتقام المتستّر.ألسنة الثيران هذه..على سبيل المثال (قرابة مائة).. والتى كانت تُقطع ليلاً لحفظها فى مُعلبات كنتُ أُسَمّرُها على باب المشرف لأنه يقدمها لنا مرتين أسبوعياً.كنا نجدها فى اليوم التالى فى أطباقنا إن لم نكن قد أكلناها.أو هذه الرَنْكة المُدخّنة(*) والمربوطة فى شكمان عربة مدرس اللغة الإنجليزية الحديثة تماماً (كانت من ماركة

(*) سمكة من فصيلة الصابوغيات.(المترجم).

أريان..أتذكرها.جانب الإطارات المطاطية الأبيض كأحذية من الإسْقُمرى...). [1]

والذى بطريقة مبهمة راح يجعل السمكة المشوية تتعفن وهى فى وضعها السليم والتى فى الأيام الأولى كان صاحبها قد أفسد السمك وهو يدخل الفصل.

أو هذه الدجاجات قرابة الثلاثين التى تم خطفها من المزارع المجاورة لمدرسة الجبل الداخلية كى تملأ حجرة ناظر المدرسة طوال مدة العطلة الأسبوعية حيثما كان يحتجزنى.

أىّ قُن ّ [2] دجاج رائع أصبحت هذه الحجرة فى ثلاثة أيام فقط:

فضلات وريش لصيق بالأرض.. وقشّ لإحداث وفرة حقيقية.. بيض مكسور فى كل مكان.. حبوب الذرة المنثورة بسخاء فى الجزء الأعلى!.

دون أن أحدثكم عن الرائحة!.

آه.يقام مهرجان جميل حين يفتح رئيس المعلمين بتلاطف باب حجرته مطلقاً المسجونات المجنونات فى الأروقة والتى راح الجميع يلاحقونها كلٌّ لحسابه الخاص!.

كان أحمق.بالتأكيد أحمق.شرير.. ذميم..لا يُسامح.. وعقيم.مع هذا نوع الخدمة الذى لم يُحسِّن أمزجة هيئة التدريس.. لكن سأموت قبل أن أتقدم

---

(١) سمكة عظمية شائكة الزعانف.(المترجم).

(٢) المكان الذى يأوى إليه الدجاج.(المترجم).

بـالاعـتـذارلـدجـاجـاتـى . رنـكـتـى وثـيـرانـى المسـكـيـنـة
بألسنتها المقطوعة. مع سحناتى البشرية المجنونة..
هم فى عداد جماعة رفاقى.

- ٩ -

ثمَّةَ قاعدةٌ تَرْبويةٌ: لا أهمية للشواذ النادرة لدى المنتقم المُتستِّر (أو ذى الضجة الماكر. تلك إذًا مسألة رأى).. الذى لا يفصح عن نفسه قط. وإن حدث وتوصل إليه شخص آخر فإنه لا يُوَشِّى به. أهو تكافل؟ لستُ متأكداً. إنه نوع من اللذة التى تكمن فى رؤية أصحاب النفوذ وهم يُنهِكون أنفسهم فى إجراء تحقيقاتٍ أصابها العُقْم. كل التلاميذ يُعاقبون بشكل فردى مِن هذا أو مِن ذاك حتى أنهم لا يَرْثون لحال المذنب الذى يتم التعرف عليه. . خلاف ذلك تماماً يتقاسم الجميع أخيراً نعمة الشعور بأنهم أطراف هذه المؤسسة القابضة!

إنه يتضامن مع الجميع كى يُبدى رأيه فى ذاك (القبيح) ليجعلوه (يدفع) عدداً من الذين (لا ذنب لهم) بدلاً من (مذنب)(*) وحيد. يا له من إخلاص مذهل!.

حقيقةَ أنه كان مذنباً لم يعد أحد يطرحها للنقاش.. كما لم يعد يراها بعينيْه وهم يُعاقِبون الجميع لا يسمح أصحاب النفوذ لِمَن يعاقبونه بتغيير

(*) هذا القوس وما سبقه من أقواس من وضع المؤلف فى النص الأصلى. (المترجم).

السجلات: لم نعد نشغل بال مَن يشاهدون التحقيق. لكن على صعيد المبادئ.. والحالة هذه.. ففى داخل المراهق الذى يُمثّله يكون الإنصاف مبدأً لا يُساومُ عليه.

ـ إنْ لمْ يكتشفوا مَن المذنب فسينتقمون منا جميعاً. يا لهذا القُبح!.

مَن نَصِفُهُ بالحقير. باللص. بالكاذب.. أو أيّاً ما كان الوصف الذى سيطوله هو مَنْ يُلقى الوكيل ذو الصوت الرعدىّ عليه. على رءوس الأشهاد. كل الازدراء حيثما يلحق بكل مَنْ هم مِنْ نَوْعيّته والذين (لا يمتلكون جرأة الإفصاح عن تصرفاتهم).. ونادراً ما يُعْنى بهم أحد بداية.. لأنه لم يسمع هنالك إلا تأكيد مَنْ حَكيْنا عليْه حكايته ألف مرة وأنه يتفق مع الوكيل فى وجهة نظره (يا له من سرور نادر ذلك الاتفاق السرىّ: نعم. معكَ حق.. أنا هو ذلك الشرِّيرُ الذى تحدثتَ عنه.. بل الأشَرُّ.. إنْ كنتَ تدرى...ب).

ثم بعد ذلك لأن جرأة الذهاب لتعليق جُبّات(*) المدير الثلاث فى قمة واقيةِ الصواعق على سبيل المثال لم يكن الوكيل ولا أى تلميذ آخر يحضر هنا هو مَن فعل هذا. إنه هو تماماً.. هو بمفرده. فى ظلام الليل.. هو فى عزلته الليلية والرائعة فيما بعد خلال ساعات معدودة صنعتْ الجُبّاتُ علَمَ سفينةِ قراصنةٍ أسودَ ولا أحد سيعرف أبداً مَنْ الذى شيّد هذا

(*) جمع جُبّة وهى زى خاص ببعض الفئات فى المجتمع منهم رجال الدين.(المترجم).

السُّرادق المثير للضحك. لو أنه أُتّهم شخصٌ آخر بدلاً منه فالواقع أنه سيصمتُ أيضًا، لأنه يعرف أتباعه ويعرف جيداً (بصحبة كلوديل الذى لن يقرأ له أبداً) أنه(يستطيع كذلك أن يستحق الإنصاف).

لن يُبلّغ بأى شىء. ما حدث كان دافعاً لانعزاله.. لكنه كفَّ نفسه عن الخوف. لم يعد يخجل. انظروا إليه إنه المذنب فى ثوب برىء. لقد وارى هذا السرورَ الفريدَ من نوعه فى صمته:لا أحد سيعرف أبداً!.

حين كان يشعر أنه ما من نصيب كان يميل إلى القَسَمِ الداخلىّ. لكن ما كابده قبل كل شىء هو تلك الفرحة الكئيبة مِنْ أنْ يكون قد أصبح لا يُدْركه مَنْ زُوِّدوا بالمعرفة.. الذين يلومونه على عدم فهمه لأى شىء. الخلاصة..أنه اكتشف كفاءته فى:

تسببه فى خوف أولئك الذين كانوا يرعبونه.كان يستلذ بفعل ذلك بشدة.لا أحد يعرف ما اقترفه.إنه الحصار الخفى لكل مَلَكات الذكاء فى قلب الخديعة.

ـ ١٠ ـ

لوْ كنتُ قد تعلَّقتُ بهذا الثأرِ المُسْتتر لكانتْ قد تَولَّدتْ لدىَّ فكرةٌ مغْلوطةٌ عَن التلميذِ الكسولِ الذى كُنْتُه. (مِنْ جهةٍ أخرى..لمْ أكنْ مَنْ أخْرجَ مشهد الجُبَّاتِ الثلاث).

التلميذُ الكسولُ المَرِحُ كانَ يُدبِّر ليْلاً سَطْواً انْتقاميًا.. وكانَ (زورو) مُتخفّياً للعقابِ الصبْيانىّ. كمْ كنْتُ أحبُّ أنْ أتمكَّن منْ أنْ أتمالكَ نفْسى على هذه الهيئة لأنيبال.. فقطْ كنْتُ أيْضاً ـ وبوجهٍ خاصٍ ـ مُهيَّئاً لأنْ تتلوثَ سيرتى من أجْل نظْرةٍ بالغٍ مُتسامحة.

أسْتجدى فى هدوء رضا المدرسين وألصق بكل امتثال: نعمْ.. معكَ حقٌّ يا سيّدى.. نعمْ.. أليْسَ.. سيدى.. أنا لسْتُ غبيّاً للغاية.. ولا أنا شرّيرٌ جداً.. لسْتُ مُخيّباً للآمالِ جداً.. ولا .. جداً.أوهْ! يا للذلِّ حين كان يُرْسلنى آخر مِنْ جُمْلةٍ جافةٍ إلى إهانتى. أوهْ! ثمَّة إحساسٌ دنىءٌ للنجاحِ حينَ ـ بعكس هذا ـ كان ينْطقُ بكلمتيْنِ رقيقتيْنِ دونما ترْتيب.. كنتُ أخْتزنهما فوراً كأنَّهما كنْزٌ مِن الحنوِّ..

كمْ كنتُ أهرولُ مساءَ اليوم نفسه كى أحدِّثَ والدىَّ عنهما: (لقد تحدثْتُ بطلاقةٍ مع السيد أونتيل...)

(كأنَّ المقصودَ هو الحديثُ بطلاقةٍ.. كان الأمر يقْتضى أنْ يَدَّعى أبى ذلكَ.. بحقٍّ...)

لزمنٍ طويلٍ جَررْتُ ورائى إثر هذا الخزىّ.كانت الضغينة والمحبة تتجاذبانني فى وقتٍ واحد منذُ أولى إخْفاقاتى. كان هذا يعْنى مُداهنةَ الغول الدراسىّ.لمْ أدّخر وسْعاً فى ألا يلتهمَ قلبى. مُتعاوناً كنتُ على سبيل المثال فى هدية عيد ميلاد مُدرس الصف السادس الذى - رغم ذلك - كان يضع علامات الخطأ على نصوص إملائى.

(أقل مِنْ ٣٨ .. يا بناكشيونى.. درجةُ الحرارةِ تنخفضُ أكثر فأكثر!).

أقْدحُ زِنادَ فكْرى كى أختار ما كان يُفْرحُ هذا الدنىء حقاً.. أنظِّمُ جمْع التبرعات من التلاميذ.. أُضيف إليها بنفسى المبلغَ المُكمِّل.. بناءً على سعر العجيبة البشعة الذى كان يتجاوز قيمة المبلغ الذى تمَّ جَمْعُهُ فعْلاً.

كانت ثمة صناديقُ مِنْ فولاذ فى منازل ذاك العصر البرجوازية. سعيْتُ إلى فتْحِ واحدٍ كان يَخصُّ أمى وأبى كى أُساهمَ فى هدية جَلادى. كانَ صندوقاً داكنَ اللونِ وعَصيّاً على الفتح.. حيثُ تنامُ أسرارُ العائلة. مفتاحٌ.مِدقّةٌ بأرقامٍ.. أخرى بحروفٍ.كنتُ أعرف أين كان والداى يضعانِ المفتاحَ لكنى كنتُ أحتاجُ

إلى عدَّة ليالٍ كى أعثر عليه فى يدى. مدقةٌ.. مفتاحٌ.. بابٌ مَغلقٌ. مدقةٌ.. مفتاحٌ.. بابٌ مغلقٌ. حتى قلتُ لنفسى لنْ أتوصل لفتْحه أبداً. وفجأةً إذا بى أدركَ أنَّ الباب قد انْفتحَ!.

ظللْتُ مَذْهولاً مِنْ هذا. بابٌ مفتوحٌ على عالم البالغين السِّرِّىِّ. هى أسرارٌ حكيمةٌ جداً فى حالة النظر إليها:

بعْضُ الالتزامات.. أفترضُ. قروضٌ روسيةٌ كانت تنامُ هناك تحلُم بقيامتها.. هناك مسدسُ أخى جدى الذى كانت خزْنته مليئةً وزنادُهُ مصقُولاً. كانت هناك أيضاً نقودٌ لكنها لم تكنْ كثيرةً. هناك بعضُ الأوراق حيْثُ أخذْتُ العُشْرَ الضرورىَّ لتمويلِ الهدية.

السرقةُ مِن أجْل شراءِ محبة البالغين. بالضبط لم تكنْ هذه سرقة. وبالطبع لمْ يشترِ هذا أيَّة محبة. حين انْكشفَ سرُّ القضية فى غضون هذا العام قدَّمْتُ إلى أمى حينئذٍ وعاءً فظيعاً مُزخْرفاً على الطريقةِ اليابانيةِ وكان وقتئذٍ على الموضةِ وكلَّفَ سعْراً باهظاً.

كانَ لهذا الحدثُ ثلاثَ نتائج:

بكَتْ أمى (وكان نادراً ما يحْدثُ هذا).. مقتنعةً أنَّها تُسْدى للعالمِ ثاقبَ صناديق (المجالُ الوحيدُ الذى يُظْهر فيه آخرُ أبنائها نُضْجاً مُبكّراً مُسلَّماً به.)

ثم تمَّ الزَّجُ بى فى مدرسة داخلية. كنتُ طوالَ حياتى غير قادرٍ على الحصادِ أيَّاً ما كانَ الأمر.. حتَّى حينَ تصبحُ السرقةُ ثقافةً على الموضةِ لدى شبابِ جيلى.

ـ ١١ ـ

إلى كل الذين يُعْزون اليومَ طبيعة التجمعات إلى ظاهرة واحدة للضواحى أقول:

معكمْ حقٌّ .. نعم ..البطالة .نعم تجمع المنبوذين .. نعم التجمعات القومية ..نعم ..استبداد الشعارات .. العائلة أحادية القُرْبى ..نعم ..تطور الاقتصاد المُوازى .. والتجارة فى كل الأصناف ..نعم ..نعم ..نعم ...

لكن لنتجنّب بَخْسَ قيمة الشئ الوحيد الذى نستطيع أن نؤثّر فيه شخصيًا ..هو .. وقت الليل .وقتٌ من الأوقات التربوية:العزلة وضغينة التلميذ الذى لا يفهم .. ضائعاً فى عالم حيث كل الآخرين يفهمون.

نحْنُ فقط لدينا القدرة على إخراجه من هذا السجن الذى نَكُونُهُ أمْ لسْنا مُدرّبين لأجله.

المدرسون الذين أنقذونى ـ والذين جعلوا منى مُدرّساً ـ لم يكونوا مدربين لأجل هذا . لم يهتموا بأساسيات عجزى الدراسى. لم يُضيّعوا وقتًا فى البحث فيها عن الأسباب ولا أكثر منه فى توبيخى.

كانوا بالغين يواجهون مراهقين فى خطر. كانوا يدَّعون أنَّ هناك حالة مستعجلة.غا صوا. أحبطونى. غاصوا من جديد يوماً بعد يوم ومازالوا ..مازالوا ...

انتهى بهم الحال إلى إخراجى من هناك. وآخرون كثيرون معى. حرفيًا ..أنقذونا من وَرْطةٍ. نحن مَدينون لهم بحياتنا.

ـ ١٢ ـ

وأنا أنبش فى رُكَامٍ أوراقى القديمة بحثاً عن شهاداتى الدراسية ودبلوماتى إذا بيدى تقع على خطابٍ كانت أمى قد حفظته. كان الخطاب مُؤرَّخاً بـ: فبراير ١٩٥٩. كنتُ قد أتممْتُ عامى الرابع عشر منذ ثلاثة أشهر. كنتُ فى الصف الرابع. كتبتُ إليها من أول مدرسةٍ داخليةٍ بالنسبة إلىّ:

عزيزتى أمى...

أنا أيضاً رأيتُ درجاتى.. أنا مُنفَرٌ..أنا مُرهَقٌ بها [هكذا](*).. حين كنا نأتى لنعمل ساعتيْن دون توقف خلال درس واحد كانت إحدى الساعتين تُكرَّسُ لعمل واجب الجبر الذى كنا نعتقد[هكذا]..أنه مُحبِطٌ. أيضاً كنتُ [هكذا] جباناً فى إعادة النظر فى امتحاناتى.. وها هو اليوم الرابع لانكبابى على مراجعة امتحانى فى الچيولوچيا خلال درس [هكذا] الرياضيات..[إلخ].

لستُ ذكياً بالقدر الكافى ولا مثابراً كى أواصل

(*) الكلمات التى بعدها كلمة [هكذا] كان الكاتب قد أخطأ فى كتابتها إملائيًا أو نحويًا حين كتب هذا الخطاب.(المترجم).

دراساتى. لم أنشغل بهذا. كان تفسيرى للجرأة [هكذا] خاطئاً كى أظل مُحْتَجَزاً [هكذا] فى ركام الأوراق..

لمْ أفهم [هكذا] شيئاً لا فى اللغة الإنجليزية ولا فى الجبر.أنا عديمةٌ كفاءتى [هكذا] فى الإملاء.. ماذا تبقَّى؟

مارى ـ تيه. مُصفّفة الشَّعْرِ فى قريتنا (لا كول ـ سير ـ لوب) .صديقتى البِكْر منذ بداية طفولتى كانت قد اعترفت لى مؤخراً أنَّ أمى أفصحتْ لها عن قلقها من جهةِ مستقبلى لكن يُعزِّيها كما كانت تقول أنها حصلتَ على وعْدٍ من إخوتى باعتنائهم بى بعد موتها هى وكذلك أبى.

دائماً فى الخطاب نفسه كنتُ أكتب:

(كان لديكم ثلاثةُ أبناء أذكياء ومجتهدون. وآخر. تلميذ كسول.)

كنتُ أتابع دراسة تشبه دراسة إخْوتى وكنتُ أتوسل إليهم أنْ يوقفوا المذبحة..أنْ ينتزعونى من المدرسة وأنْ يرسلونى إلى [الجاليات] (عائلة من العسكريين) (فى الريف) [هكذا]، وهناك سيكون [هكذا] المكان الوحيد الذى سأكون [هكذا] سعيداً فيه) (واضعاً الخط مرتين).

إجمالاً.. المنفى. فى نهاية العالم.. هو مشروعٌ على أسوأ افتراض للهرب إلى باردامو عند ابن لأحد العسكريين.

بعد ذلك بعشر سنوات. فى الثلاثين من سبتمبر ١٩٦٩.. استلمتُ خطاباً جاءنى من أبى مُرْسَلاً إلى المدرسة التى كنتُ أمارس فيها مهنة التدريس.كانت هذه هى وظيفتى الأولى وكان هذا هو خطابه الأول إلى الابن الذى صار.

كان قد خرجَ مِن المستشفى.-حدثّنى عن عذوبات النقاهة.. وعن نزهاته الوئيدة برفقة كلبنا.. أخبرنى عن أحوال العائلة.. صرَّح لى عن الزواج المُحتَمَل لابنة عمى فى ستوكهولم.

كان يُلمِّحُ إلى مشروع رواية تَحدثنا معًا عنها (لم أكتبها أبداً). كان يُظْهر فضولاً حيًّا بخصوص ما أتبادله أنا وتلاميذى من أحاديث ونحن حول المائدة. كان ينتظر - عبر البريد - وصول (**مقصورة الحاكم**) لـ: **انجلو رينالدى**. كان يتذمر من اعتصام مُستخدمى البريد ويعظم من شأن (**أحبولة - قلب**) لـ: **سالينجر**.. و(**حديقة اللذات**) لـ **جوزيه كابانيس**.كان يعذر أمى فى عدم كتابتها إلىّ [أكثرُ تعَباً منّى كيفَ يُعالجنى؟] .

كان يخبرنى أنه أعَارَ العَجَلَةَ البديلةَ لحُصانيْنا البخاريّيْن إلى صديقى فانْشونْ (لقد رضى برنار بتغييرها له كل الرضا).

كان يُقبّلنى ويُطمئننى عن حالته الصحية.

ليس أكثر من تهديده لى بمستقبلى المشئوم طوال دراستى. لم يُشِرْ ولو من بعيد إلى ماضىَّ كتلميذ كسول. كانت نَبْرته فى أغلب الموضوعات كعادته دائماً

تهكميةً بحياء. لم يُبْدِ أى اعتبار لاستحقاقى حالتى الجديدة كمدرس. لم يندهشْ لم يُهنئْ. ولم يقلقْ بشأنِ تلاميذى.

باختصار.. ما زال أبى كما هو ساخراً وحكيماً راغباً فى الثرثرة معى - على مسافةٍ جديرةٍ بالاحترام - عن الحياة التى كانت ستدوم.

مظروفُ الخطاب الآن أمام عينىّ. اليومَ فقط أذهلنى أمرٌ ما. لم يكن يكتفى بكتابة اسمى..اسم المدرسة..اسم الشارع..اسم المدينة...

بل أضاف إليه هذا التنويه:مدرس.

دانيال بناكشيونى

مدرس فى مدرسة ثانوية...

مدرس...

من كتابته الصائبة جداً.

كانت تلزمنى حياة كاملة كى أسمع صياح البهجة هذا ـ وتنهد الانفراج.

٢

يُصبحُ

عمرى اثنى عشر عامًا ونِصْفًا

ولمْ أصْنعْ شيْئًا

-١-

فيما أكتبُ هذه الأسطر ندخلُ فى موسم طلباتِ النجدة. منذ شهر مارس يتواصل رنينُ التليفون فى المنزل أكثر من المعتاد غالباً: أصدقاءُ فى حالة مضطربة يبحثون عن مدرسةٍ جديدة لطفل راسب..أبناءُ عمٍّ منزعجون بحثاً عن مدرسةٍ بعد مدارس عديدة عقب طرده لعدة مرات .. جيرانٌ يتنازعون على مدى فعالية إعادة التلاميذ لصفوفهم الدراسية. مجهولون يعرفوننى حصلوا على رقم تليفونى من أونتل...

كانت تلك هى مكالمات المساء عادةً. وقتَ نهاية تناول العَشاء. ساعة الشدة مكالمات أمهات فى أكثر الأحيان. قلَّ ما يجىء الاتصال من الأب.. الأب يأتى فيما بعد.. حينما يأتى. لكن فى البدء مكالمات التليفون الأولى للأم ..إنها الأم دائماً. تقريباً من أجل الابن. أما الابنة فتبدو أكثر تعقّلاً. هى الأم وحدها فى المنزل.. وجبة أُنْجزتْ.. آنية لم يتم غسلها. شهادة الولد الدراسية مفروشة أمامها .. الولد مُحتجز فى طوقيْن فى حجرته أمام الڤيديو جيم.. أو الآن فى

الخارج فى نزهة مع مجموعة أصدقائه.. رغم منعٍ خجول. هى بمفردها.. يدها فوق قرص التليفون .. تتردد. تشرح للمرة الـ..حالة الابن.. مخصصةً إحدى المرات فضلاً عن ذلك لتاريخ رسوباته.. يا لهذا التعب.. يا إلهى...احتمال الإرهاق قادم: يسعون هذا العام أيضاً لإبرام اتفاق مع المدارس التى سيريدون دخوله إياها.. يقيمون يوم عطلة فى المكتب.. فى المحل.. زيارات لرءوساء المؤسسات التعليمية.. حواجز السكرتارية.. ملفات يجب ملؤها.. انتظار الرد.. مباحثات.مع الابن.. دون الابن.. اختبارات..انتظار نتائج .. توثيق.تردّد.. أهذه المدرسة أفضل من الأخرى؟

(لأنه فى شأن المدرسة.سؤال الجودة يُوَجّه فى قمة السلّم كما فى قاع اللُجج.. أفضل مدرسة لأفضل تلاميذ والأفضل للغرقى.. كل شىء موجود.)

ثمة مَن يتصل أخيراً.. ثمة مَن يعتذر عن تسببه فى إزعاجنا.. نعرف إلى أى حد ينبغى أن نتوسل إليكَ لكن ها نحن لدينا ابن.. لم نعرف حقيقةً من خلاله كيف...

أيها المدرسون.. يا إخوتى.. أُلحٌ عليكم.. فكروا فى تلاميذكمْ عندما تكتبون فى شهاداتهم الدراسية فى صالة المدرسين وفى صمت أنّ (التيرم الثالث سيكون مُحدّدًا)

رنين لَحْظى لتليفونى:

ـ عن التيرم الثالث. تتحدث!.

قراره محددٌ سلفاً منذ البداية. نعم.

ـ التيرم الثالث.. التيرم الثالث.. هذا لا يحرك شعورى على الإطلاق.. هذا الصبى تهديد للتيرم الثالث.. لم يكن لديه أبداً تيرم واحد مناسب!

ـ التيرم الثالث.. كيف تريدون منه أن يتسلق عقبةً مشابهةً فى هذا الوقت غير الكافى للغاية؟

يدركون جيداً أن تيرمهم الثالث هذا غروييراً..(*) مع كل هذه الإجازات!.

ـ إن يرفضوا هذا المَسْلك.. أستأنف أنا هذه المرة!.

على كل حال.. ينبغى عليهم أن يُعيدوا الكَرَّةَ اليوم مبكراً جداً كى يُحددوا مدرسةً.. يستمر هذا حتى نهاية شهر يونيه.. عندما يَثْبتُ أنَّ التيرم الثالث كان حقيقةً مُحدداً وأنَّ الابن لن يُقْبلَ فى فصل الفائقين وأنَّ الوقت متأخر جداً بالفعل للبحث عن مدرسة جديدة.. احتلها الجميع من قبله. لكن ماذا تريدون؟ أردنا أن نصدق حتى النهاية.. قلنا لأنفسنا إنه ربما يفهم الابن هذه المرة.. ربما تتحسن حالته فى التيرم الثالث.. جداً. جداً.. أُطمْئنكم.. قد يبذل جهداً أكثر قليلاً مِمَّنْ يتغيبون...

(*) جبن أصفر به ثقوب صغيرة. (المترجم).

ـ ٢ ـ

هناك الأم الضائعة التى أنهكها انحراف ابنها.. متذكرة النتائج المفترضة لنكبات الزوجية: إنه انفصالنا الذى.... منذ وفاة أبيه..لم يعد تماماً...

هناك الأم التى أهانتها نصائح صديقات يعمل أطفالهن جيداً أو أسوأ متجنبات العلة بدراية مُهينة تقريباً.

هناك الأم الحانقة التى تقتنع أن ابنها منذ الأزل وهو ضحية وديعة لتحالف تعليمى..اختلطت كل الأنظمة ..

بدأ هذا مبكراً جداً.. فى الحضانة كانت معلمته... فلم ينتظم فى دراسته على الإطلاق.ثمة رجل هذه المرة.. كان الأسوأ.. وتخيّل أن مدرسه الذى يدرس له اللغة الفرنسية فى الصف الرابع جعله......

هناك من لا تُشخصن القضية لكنها تؤنب المجتمع كم هو متفتت.والمؤسسات التربوية وكم هى مظلمة.. والمنهج الذى يطيقه.. إنها تؤنب الواقع إجمالاً. وكم هو لا يتطابق مع حلمها.

هناك الأم الغاضبة جداً من ابنها:هذا الولد الذى لديه كل شىء لا يفعل أى شىء.. هذا الولد الذى

لم يفعل شيئاً يريد كل شيء.. هذا الولد الذى فعلنا من أجله كل شىء لم...أبداً لمرة واحدة تسمعنى!.

هناك الأم التى لم تقابل مدرساً واحداً طوال العام وتُعرِّض أقفيتهم للجميع.. هناك الأم التى تتصل بك بكل بساطة كى تريحها هذا العام أيضاً من ابن لم تعد تريد أن تستمع إليه حتى العام المقبل.. فى التاريخ نفسه فى الساعة نفسها فى رنة التليفون نفسها والتى تقول له: (سنرى العام المقبل. يجب أن نعثر له من الآن فصاعداً على مدرسة تحديداً.)

هناك الأم التى تخشى رد فعل الأب: (هذه المرة لن يتحمله زوجى) (لقد أخفينا أغلب شهادات الدرجات عن الزوج).

هناك الأم التى لا تفهم أن ابنها مختلف جداً عن ابنها الآخر وتسعى لئلا يَقِلّ حبه لها وتتفنن فى أن تظل الأم نفسها لابنيها الاثنين.

هناك الأم بخلاف ذلك التى لا تستطيع أن تمتنع عن اختيار هذا (ومع ذلك أركز تماماً معها.) بضرر إخوة وأخوات. بكل تأكيد والتى استخدمت بلا جدوى كل وسائل العوامل المساعدة: رياضة. علم نفس.. تصويب نطق.. سُفْرولوچيا [1]. علاج بالڤيتامينات. استرخاء. طب مِثْلى [2].. مداواة أسرية أو فردية...

---

(١) بحث الوسائل التى تؤول إلى إزالة الآلام الجسدية والنفسية أو التغلب عليها عن طريق تهدئة الأعصاب وإنقاص التوتر السائد.(المترجم).

(٢) مداواة الداء بالداء لكن بجرعات ضئيلة.(المترجم).

هناك الأم الضليعة فى علم النفس التى تعطى تفسيرًا لكل شىء مندهشة من أننا لا نجد حلاً لأى شىء.. هى الوحيدة فى العالم التى تفهم ابنها.. ابنتها.. أصدقاءهما.. والتى شباب روحها دائم (أليس هذا ما تجب معرفته لتظل شاباً؟)

يندهش من أن العالم قد يصبح أكثر هِرَمًا.. حتى أنه ليس جديرًا بفهم الشباب.

هناك الأم التى تبكى.. تتصل بك وتبكى فى صمت معتذرة لك عن بكائها. خليط من الحزن. من القلق.. ومن الخزىّ...

الحق يقال أنهن كلهن لديهن القليل من الخزىّ وكلهن قلقات بشأن مستقبل أبنائهن: (لكن ما الذى سوف يصبح؟) .

أغلبهن يتصورن المستقبل انعكاساً للحاضر على لوحة تلازم المستقبل. المستقبل كجدار تعرض عليه بإفراط الصور التى يرفع من شأنها لحاضر بلا أمل. وهو ذاك خوف الأمهات الأكبر!.

- ٣ -

يتجاهلن أنهن يتوجهن بحديثهن إلى فتىً صغير خرق صندوق ذريته ولو أن تصورهم للمستقبل كان مبنياً على أساس فلن أكون مُنشغلاً بالإصغاء إليهن عبر التليفون لكن كنت سأكون فى السجن.. أعُدُّ ما فى رأسى من حشرات القمل طبقاً للفيلم الذى وجب على أمى المسكينة أنْ تعرضه على شاشة المستقبل حين علمت أن ابنها ذا الأحد عشر عاماً سحق اقتصاديات العائلة.

حينئذٍ..أجرب حكاية عجيبة:

- أتعرفون الوسيلة الوحيدة التى تجعل الله الطيب يضحك؟

تَرَدَّدَ فى نهايةِ حَبْلٍ.

- قُصّ عليه مشروعاتك.

فى نهايات أخرى.. ليست من جنون..لا شىء يحدث كالقَدَرِ.. الشىء الوحيد الذى نتعلمه أنَّ المستقبل يؤول إلى ماضٍ. بكل تأكيد لا تكفى لصقة من شمع على جرح لن يلتئم بسهولة جداً.. لكنى أفعل بمساعدة التليفون.

ـ ٤ ـ

لأكون منصفًا.. كذلك ثمة من حدثنى أحياناً عن التلاميذ جيدى المستوى: الأم المنهجية على سبيل المثال وهى تبحث عن أفضل فصل إعدادى كما كانت منذ ميلاد طفلها تبحث عن أفضل حضانة.. والتى تفترض فىَّ بمحبةٍ مهارةَ الصيد فى المرتفعات. أو الأم القادمة من عالم آخر.. عالم الهجرة الأولى.. حارسة بيتى التى لاحظتْ بعض المَلَكات الغريبة لدى ابنتها.. وهى مُحِقّةٌ. على الصغيرة أن تواظب على الالتحاق بدورة طويلة آنذاك دونما شكٍّ سيُتاح لحائزة الأستاذية القادمة اختيار المادة الدراسية... (فعلياً. تحتجز اليوم دراساتها فى القانون).

من جهة أخرى هناك [ل. م] الخبير الزراعى فى لو فيركور.. استَدْعتْهُ مُعلمة المرحلة الابتدائية فى القرية ليرى نتائج ابنه المذهلة...

تسألنى عما أحب أن يفعله فيما بعد يرفع كأس شرابه فى صحتى:

ـ أنتم مُمْتعون..أنتم أيها المدرسون.مع أسئلتكم هذه...

ـ بماذا رددتَ عليه آنذاك؟

ـ تُرى ماذا يكون ردّى على أب؟

الحد الأقصى! رئيس جمهورية!.

وهناك النقيض.. أب آخر تِقَنّى سطحىّ يأبى إلا أن يختصر دراسة ابنه لِيُلْحقه بالعمل الذى سيريح منه الصبىّ فى الحال. (راتب فى العائلة.لن يؤلم أحداً!).

نعم لكن ها هو الصبى يريد أن يكون مدرسًا.. تحديدًا مدرس ابتدائى كما قيل حديثاً.. وأرى أنها فكرة جيدة.. أنا أحب تماماً..أنا.. أن ينخرط فى مهنة التعليم.. هذا الولد النشيط جداً والذى لديه رغبة عارمة فى هذا. فلنتفاوض .. لنتفاوض.هذا الرفيق القادم يجعل نجاح التلاميذ القادمين فى خطر...

حسناً هيا.. إذ بى أفكر فى المستقبل أيضاً. هيا.. أنا أيضاً أسترد ثقتى فى مَدرسة الجمهورية هى التى ثقّفت أبى نقى السريرة. مَدرسة الجمهورية على كل حال وفى تسعين عاماً من زمنها يشبه هذا الولد كثيراً ما كان ينبغى أن يكون عليه أبى.. كورس دوريلاك الصغير حوالى عام ١٩١٣ حين راح أخوه الأكبر يعمل كى يقدم لأخيه الصغير الوسائل والوقت اللازمين لعبور أبواب مدرسة البوليتكنيك. زد على هذا أننى دائماً ما كنتُ أشجّع أصدقائى وتلاميذى الأكثر حيوية كى يصبحوا مُدرسين ودائماً ما كنتُ أعتقد أنَّ المَدرسة هى فى البداية مُدرسوها الذين يعملون بها.

مَنْ إذاً أنقذنى من المدرسة..إما ثلاثة أو أربعة مدرسين؟

ـ ٥ ـ

هناك ذاك الأب المنزعج الذى يؤكد لى بشكل باتٍ:

ـ ابنى يفتقد إلى النضج.

شاب يجلس فى صرامة داخل خطوط بذلته المتعامدة على بعضها.. منتصبًا أعلى كرسيه.. يُصرِّح منذ بداية اللعبة أن ابنه يفتقد إلى النضج.إنها بَيِّنةٌ. يقتضى هذا حلاً.. علامة ختامية.

بعد كل هذا أسأل عن عمر الابن.

إجابة فورية:

أحد عشر عاماً الآن.

لم أكن يومذاك فى حالتى ربما لأننى لم أنم كما ينبغى. أضع جبهتى بين يدىّ.. أُصرّحُ فى النهاية فى راسْبوتينيّة(*) معْصومة: الحلُّ عندى. يرفع حاجبيْه. ينْظرُ برضاً. حسَناً.. نحْنُ هنا وسَط مُحْترفين.

(*) راسبوتينية.. نسبة إلى «راسبوتين» وهو جريجورى بافيموفيتش (١٨٦٩ م ـ ١٩١٦م) راهب روسى وساحر شهير، ولد فى سيبيريا، استحوذ على أسرة القيصر نيقولا الثانى، وخضعت الإمبراطورة ألكسندر فيوديوروفنا لقوى سحره وشعوذته، وازداد نفوذه السياسى والدينى فى القصر حتى تكالب عليه المعارضون وقتلوه.

عندئذٍ. ما الحلُّ؟

أُعطيه له:

- انتظرْ

هو ليس سعيدًا. لن تبتعد المحادثة عن هذا كثيراً.

- لن يستطيع هذا الصبى بعد كل هذا أن يقضى وقته فى اللعب!

فى اليوم التالى.. أقابلُ الأب نفسه فى الشارع. البذلة كما كانت.. الصلابة كما هى.. الحقيبة لم تتغير. لكنه ينتقل راكباً دراجةَ أطفال. أُقْسمُ إنَّ هذا حقيقىٌّ.

-٦-

لا ثمة مستقبل.

أطفال لن يصبحوا...

أطفال مُحبَطون. تلميذ فى المرحلة الابتدائية.. فى الإعدادية.. فى الثانوية.. كنتُ أظنه صلبًا كما الحديد..أنا أيضًا فى هذا الوجود بلا مستقبل.

إنه أول شىء يظنه تلميذ سيئ.

- بما يشبه هذه الدرجات ما الذى تستطيع أن تأمل فيه؟

- أتتصور أنك ستنتقل إلى الصف السادس؟ (إلى الخامس.. الرابع.. الثالث.. الثانى.. الأول...)

تُرى كم فرصة مُهيّأة لك فى البكالوريا.. أسْعدْنى.. عُدّ فرصك بنفسك.. كم على مائة؟

أو مديرة المدرسة الثانوية هذه فى صيحة فرحتها الحقيقية: أنتَ بناكشيونى..التكميلية(*)؟ لن تحصل عليها أبدًا! أتسمعنى؟ أبدًا!.

كانت ترتج من صيحتها. على كل حال لن أصبح مثلكِ أنتِ أيتها الكهلة المجنونة!.

(*) شهادة دراسية متوسطة . (المترجم).

لن أصبح مُدرسًا أبدًا.. عنكبوتًا مطليًا فى شَرَكِكِ الخاص بك.. حارسًا فظًا يشدد الرقابة على مكتبك حتى آخر أيامك.أبدًا!.

نحن التلاميذ سننتقل أمَّا أنتِ فستبقين!

نحن أحرار أما أنتِ فستحتلينه إلى الأبد.لن نذهب نحن ـ السيئين ـ إلى أى مكان لكن على الأقل سنذهب من هنا!

لن تكون الدكّةُ سور حياتنا الردىء!.

احتقار من أجل احتقار.. تشبثتُ بهذا التشجيع الشرير: نحن ننتقل أما المدرسون فيبقون. إنها محادثة متكررة لدى تلاميذ قاع الفصل. يقتات التلاميذ الكسالى على الكلمات. كنتُ أجهل آنذاك أن الأمر بلغ بالمدرسين أن يختبروا إحساس الخلود هذا: ثرثرة لا تنتهى.. الحصص نفسها أمام فصول تتبدل. انهيار تحت عبء الصور اليومى (لا يمكن أن نتخيل سِيزيفُ(*) سعيدًا بصحبة حزمة من صور!).

لم أكن أعرف أن الرتابة هى السبب الأول الذى يتذرع به المُدرسون حين يقرّرون أنّ يتركوا مهنتهم.لم أكن أستطيع أن أتخيل أن بعضهم يعانى حقيقةً من البقاء هناك جالسًا وقت أنّ يمر التلاميذ...

(*) سيزيف: أحد أكثر الشخصيات مكرًا فى الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع أن يخدع إله الموت ثانتوس وتكبيله، مما أغضب كبير الآلهة زيوس فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصلت القمة تدحرجت إلى الوادى، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا حتى الأبد، فأصبح رمزًا للعذاب الأبدى.

كنتُ أجهل أن المدرسين ينشغلون كذلك بالمستقبل: فاكًا ركامى.. مُنجزًا بحثى.. مُنتقلا إلى الكلية.. منطلقًا تجاه قمم الفصول الإعدادية.. مُؤْثِرًا البحث.. مهرولا إلى الخارج.. متفرغًا للفسحة.. مُغيّرًا الميدان. تاركًا أخيرًا هؤلاء البثراء(*) الحقودين ضعاف الشخصية الذين ينتجون أطنانًا من الأوراق يسقطون. كنتُ أجهل أن المدرسين حين لا يفكرون فى مستقبلهم فلأنهم يحلمون بمستقبل أبنائهم.. بدراساتهم العليا. لم أكن أعرف أن رأس المدرسين مُشبَّع بالمستقبل. كنتُ لا أعتقد أنهم هناك ليس إلا لِمَنْعِى من مستقبلى ممنوعٌ المستقبل.

مِنْ فرط ما سمعْتُ هاتين الكلمتين تتكرران كوَّنتُ تصورًا دقيقًا عن هذه الحياة التى لا مستقبل لها. لم يكن هذا سوى زمن توقف عن المرور. لم يكن سوى مستقبل لم يوجد أصلا. كلا.. ما أشبه الليلة بالبارحة. ليس تمامًا.. بكل تأكيد.. ليس كأن الوقت لم يكن يمر مسرعًا.. لكن كأن السنين كانت تتكدس دون أن يتغير شىء ما بداخلى .. كأنَّ القادم من وقتى أنذر بقسوةٍ أنْ يكون شبيهًا بحاضرى. والحالة هذه.. ممَّا تكوَّن حاضرى؟

مِنْ إحساس المهانة الذى أشبعه مجموع لحظاتى التى مرَّتْ. كنتُ عاجزًا دراسيًا.. لمْ أكنْ أبدًا شيْئًا سواه. بكلٍّ تأكيد مرور الزمن.. ازدياده بكل تأكيد.. أحداثه بكل تأكيد.. بكل تأكيد الحياة.. لكنى فى

(*) البَثِر من أصيب ببثور (المترجم).

عبورى لهذه الحياة لا أتوصل إلى أية نتيجة قط. كان هذا أكثر من مسألة يقين.. كان هذا أنا. بهذا.. يقتنع بعض الأطفال بسرعة وإنْ لم يجدوا مَن يُزيل ضلالهم هذا فكما لا نستطيع أنْ نعيش دون شهوة يُطورون - إن لم يتوفر الأفضل - شهوتهم فى الرسوب.

ـ ٧ ـ

المستقبل.هذا التهديد الغريب...

سهرةٌ شتويةٌ. تهبط ناتالى سُلَّمَ المدرسة وهى تنتحب. حزن حريص على أن يسمعه أحد مَنْ يستخدم الأسمنت كخزانةِ رنين.لمْ تزل طفلةً.. بالكاد يَزنُ جسدها وزْنَ رضيعٍ قديم على درجات السُّلَّمِ الطنانة. الساعة الخامسة والنصف مساءً.. انْصرفَ كلُّ التلاميذ تقريباً. أنا أحد آخر المدرسين الذين يمرون من هناك. طنطنةُ الخطوات على الدرجات.. فرقعةُ نحيب.

هووووو!

حزْنٌ مَدْرسى يفكر المدرس.. تباين.تباين.. حزن متفاوت على الأرجح!.

وعلى السلم تظهر ناتالى. وبعد.. يا ناتالى.. وبعد.. وبعد.. ما هذا الحزن؟

أعْرفُ هذه التلميذة.كانت إحدى تلميذاتى العام الماضى .فى الصف السادس. طفلة حائرة.. تحتاج إلى طمأنتها غالباً. ما الذى يحدث.. يا ناتالى؟

صمودُ مبدأ:لا شىء يا سيدى..لا شىء. كل هذه الضجة مِنْ أجْلِ لا شىء.. يا كبيرتى!.

يزداد النحيب.. وأخيراً تَعْرِضُ ناتالى تعاستها بين شهقات النحيب: سيـ... سيـ... سيدى.. أنا لمْ... أتوصـ... لمْ أتوصل إلى فهـ... لمْ أتوصل إلى فَهْمٍ...

ـ فَهْمُ ماذا؟ ما الذى لم تتوصلى إلى فَهْمِه؟

ـ الجُمْـ..الجُمْـ..

فجأةً يقفز الغطاء يَنْبعُ هذا من صدمة:

ـ الـ..جـمـلـة ـ تـابـعـة ـ رابـطـة ـ لـ ـ تـنـازل ـ و ـ تضاد(*) !.

صمتٌ.

لا مَرَحٌ.

وخصوصاً لا ضَحك.

ـ الجملة التابعة الرابطة للتنازل والتضاد؟ أهى التى وضعتْكِ فى حالتكِ هذه؟

انفراجٌ.

بـأقصى سـرعـة وبـوقـار راح المدرس يـفـكـر فى الجملة محل السؤال.كيف يشرح لهذه التلميذة أنه ليس ثمة ما يستوجب المبالغة فى أهمية جملة كهذى. إنها تستخدمها دون أن تعرف.هذه الجملة القبيحة (واحدة من أثيراتى من جهة أخرى..إن كان الأمر كاستطاعتنا تفضيل رابطة أخرى...)..الجملة التى تُيسّر كلٰ جدال شرط أوَّلى للدقة.. فى الإخلاص كما فى سوء النية. علينا أن نعرفها جيداً.. لكن ما من

(*) المقصود قواعدياً هو الجملة التابعة والمرتبطة بما قبلها. (المترجم).

تسامح بدون تنازل يا صغيرتى. ثمة كل شىء. ليس سوى أن نذكر العطف الذى أدخل هذه التوابع: ولو أنَّ.. وإنْ..مع أنَّ..

تشعرين جيداً أننا نقصد الدقة بعد كلمات مشابهة.. أننا نحسب حساب الماعز والكرنب.. أنَّ هذه الجملة تصنع منكِ بنتاً رزينة ولائقة.. مُهيَّئة لأن تُصغى ولئلا تجيب مهما يكن على امرأةٍ براهين.. فيلسوفة ربما. هذا ما قد تصنعه منك رابطة التنازل والتضاد!.

هناك.. المدرس يُشرع فى العمل:كيف يُسَرِّى عن صبية بدرْسٍ فى القواعد؟

هيا نرى..

لديكِ خمس دقائق يا ناتالى. تعالى كى أشرح لكِ هنا. الفصل خاوٍ على عرشه.. اجلسى.. اصْغى إلىَّ بانتباه. ما أبسط هذا!.

تجلسُ. تُصغى إلىّ.. ما أبسط هذا هناك؟

فهمتِ؟ هاتى مثالاً. كى نتأكد. مثال محدد. فهمتِ حسناً. أتتحسن؟وبعد!

على الإطلاق.. لم تتحسن.. نوبةُ دموع جديدة. نحيبٌ يتواصل هكذا. فجأةً تقول هذه الجملة التى لمْ أنْسها أبداً:

- أنتَ لم تفهم يا سيدى.. لقد بلغتُ اثنى عشر عاماً ولم أصنع شيئاً.

- ...

عائداً إلى مسكنى رحتُ أجْتَرُّ هذه الجملة. ما الذى أرادت أن تقوله هذه الصبية؟

(لم تصنع...).. مهما حدث لا شىء يستدعى الألم.يا ناتالى الوديعة.

علىّ أن أنتظر مساء اليوم التالى. قمتُ باستخبارات كى أعرف أن والد ناتالى قد رُفِتَ مؤخراً بعد عشر سنين من خدمته الجيدة والأمينة بصفته موظفاً إدارياً.هو واحد من أوائل الموظفين الإداريين المفصولين. نحن فى منتصف الثمانينيات.. وحتى هذا الوقت كانت البطالة ثقافة عُمَّالية..إنْ جاز لنا أنْ نقول هذا. وهذا الرجل.. الشاب.. الذى لم يشكّ فى دوره فى المجتمع.موظف إدارىّ نموذجىّ وأب نشيط انهار.. (رأيته عدة مرات العام الماضى يشغله أمرُ ابنته الخجولة جداً.والمنطوية على نفسها). وضع ميزانية حاسمة. على المائدة الأسرية لم يكف عن تكرار: (أبلغُ خمسةً وثلاثين عاماً من العمر ولمْ أصنعْ شيئاً).

-٧-

كان والدُ ناتالى قد افتتحَ عصْراً أُعْتبِر المستقبلُ فيه بلا مستقبل. كان التلاميذ طوال عشر سنوات يسمعونه يُردّد كل يوم وبكل النبرات:

انتهى الغِنى يا أطفالى!انتهى الحب السهل! بطالةٌ.

وايدزٌ لكل الناس. هذا ما ينتظركم.نعمْ هذا ما كنا نُلقّنه لهمّ..آباءً ومُعلمين.. فى غضون السنوات التى توالت كى (تُبرّر) أكثر لهم.عرْضٌ تعليمى كسماء مُغلقة. هذا ما جعل ناتالى الصغيرة تبكى. كانت قد عانت من الحزن من قبل..كانت تبكى مستقبلَها [1] كشابٍّ ميت.كانت تشعر جيداً أنها قادرة على قتله كل يوم.. بصعوباته القواعدية. صحيح.. فضْلاً عن ذلك أنَّ مُدرسها قد اعتقد أنه أثبت لها أنْ ثمة (ماء غسيل فى جمجمتها)[2]. ماء غسيل يا ناتالى؟

دعينى أصغى... هززْتُ رأسَها الصغيرة كأنّى طبيب لطيف. لا.. كلا.. لا يوجد ماءٌ فيها ولاغسيل.

(١) المقصود هنا هو قاعدة زمن المستقبل. (المترجم).

(٢) كناية عن عدم الذكاء. (المترجم).

ورغم ذلك ثمة ابتسامة خجلى. انتظرى قليلاً... وربّتُ على رأسها.. انثنتْ سبّابة.. كأننا نطرقُ باباً. كلا.. أطمّئنكِ. إنه عقل جميل الذى أسمعه هنا يا ناتالى.. بل متميز. صوت ظريف جداً. تحديداً.. الصوت الذى تُصدّره الرءوس الملأى بالأفكار لضحكةٌ صغيرةٌ.. أخيراً.

يا لها من كآبة نحْشرها فى أرواحهم طوال كل هذه السنوات!.

أُفَضِّلُ ضَحِكَ مارسيل أيميه. ضحك مارسيل السَّار حين يُعظّمُ فِطْنَةَ الابن الذى اشْتمَّ ريح البطالة قبل الجميع:

ـ أنتَ.. يا إيميل.. بجفاءٍ كنتَ أكثر دهاءً من أخيك. علىّ أنْ أقول إنك الأكبر وإنك الأكثر درايةً بالحياة. على كل حال.. أنا لستُ قلقاً من جانبك.لقد عرفْتَ كيف تَصدُّ الإغراءات بحيث لمْ تصنعْ منها أبداً مِسْماراً يُعدِّكَ للحياة التى تنتظرك. أما الأشد قسوةً بالنسبة إلى العاطل عن العمل.. أترى..أنه لمْ يتعود منذ طفولته على حياة كهذى. هذا شىءٌ أقوى منه.. فى يده أكَلانٌ مِن العمل. معك أنا مطمئن. ثمة شَعَرةٌ فى يدكَ ليس لها سوى أنْ تَتَجعّد ومع ذلك.. احْتجّ إيميل.. تقريباً أعرف كيف أقرأ بسهولة.

ـ ثم ما زال هناك دليل على دهائك دون أنْ تتكسر ودون أنْ تعتاد على عادات العمل السيئة فأنتَ قادر على أن تقوم بجولة حول فرنسا من خلال

جريدتك التى تعمل بها.. لتكونَ كل تقارير المباريات الرياضية الكبرى التى تكتبها لتسلية العاطلين عن العمل.آه!.

ستصبحُ رجلاً سعيدًا.

ـ ٩ ـ

انقضى ما يزيد على عشرين عامًا. اليوم.. أصبحت البطالة واقعاً فى كل الثقافات. لم يعد المستقبل المهنى يبتسم لطبقة الأغنياء فى مناطقنا. وقلما يتلألأ الحب.. وعلى ناتالى أنْ تكون شابةً يبلغ عمرها سبعة وثلاثين عاماً و(نصْف). والأم.. ستعرف. ابنة ذات اثنى عشر عاماً.. ربما.

ناتالى..أهى عاطلة عن العمل؟

أمْ رضيتْ بدورها المجتمعى؟

أهى ضائعة بفعل العُزلة؟

أم هى سعيدة بالحب؟

امرأة متزنة. مُعلّمةٌ فى الالتزام والتضاد؟

تتدفق بارتباك على مائدة الأسرة.. أمْ بشجاعة تحلم بمعنويات ابنتها حين تعْبرُ الصغيرة باب فصلْها؟

-١٠-

(تلاميذنا سيئو المستوى) [تلاميذٌ يشيع عنهم أنهم لا يصبحون].. لا يأتون إلى المدرسة بمفردهم. إنها بَصَلَةٌ تدخل الفصل: طبقةٌ من الحزنِ.. الخوفِ.. القلقِ..الضغينةِ .. الغضبِ.. الرغباتِ الظمأى.. العزوفِ الحانق.. المتراكم فى قاع ماضٍ مُخزٍ. حاضرٍ مُهدَّد.. مستقبلٍ مذموم.

انظروا.. ها هم يصلون.. جسدهم فى صيرورة وعائلاتهم فى حقائب ظهورهم. لمْ تستطع الحصص حقيقةً أنْ تستهل العبءَ الموضوع على الأرض سوى مرةٍ واحدةٍ والبصلة قد قُشِّرتْ. صعبٌ أنْ يُفسِّر هذا.. لكن نظرة وحيدة تكفى غالباً.. لفظة متسامحة. كلمة بالغ مُستأمَن.. نَيّرٌ راسخ.. كى يذيب هذه الأحزان.. مُقلّلاً هذه الأذهان.. يُقيمها بصرامةٍ فى مُضارع استدلالى.

بالطبع.. سيصبح الجميل عابراً ستُكافأ البصلة لحظة الانصراف.. وبلا شك يجب أنْ يَستأنفَ غداً. لكن هو كذلك.. يُعلِّم يستأنف حتى موت مدرسنا الضرورى. لو أخفقنا فى إقامة تلاميذنا فى مضارع

حصتنا الاستدلالى لن تتحمل معرفتنا وطعم ممارستها مسئولية هؤلاء الفتيان وهؤلاء الفتيات.. بالحس النباتى للفعل.. فحياتهم ستتأرجح فوق مستنقعٍ نُقصان شاسع. بكل تأكيد لسنا الوحيدين فى حفْر هذه السراديب ولا فى عدم معرفة ردمها.. لكن هؤلاء النساء وهؤلاء الرجال أمْضوا عاماً أو ما يزيد من فترة شبابهم هناك جالسين فى مواجهتنا. لا بأس.. عام من الدراسة البشعة: إنها أبديةٌ داخل قُمْقمٍ.

ـ ١١ ـ

هل لنا أنْ نخْتلقَ وقتاً خاصاً للتدريب. المضارع التجسيدى.. على سبيل المثال. أنا هنا داخل هذا الفصل.. وأفْهم.. أخيراً.

هنا يحْدث هذا! عقلى يتوزع داخل جسدى: يتجسَّد. حين لا يكون الحال هكذا.. حين لا أفهم شيئاً فى الفصل.. أتخذ مكانى.. أقع على التراب وتبعثرنى أوهَنُ ريح.

فقط.. من أجل أنْ يكون للمعرفةِ فرصةَ التجسّدِ فى حاضرِ الحصة.. يجب الكفُّ عن التلْويحِ بالماضى كأنّه خِزْىٌ وبالمستقبلِ كأنّه عِقابٌ.

ـ ١٢ ـ

بالمناسبة.. ماذايصبحون..أولئك الذين أصبحوا؟

مات [ف.] بعد إحالته على المعاش بعدة أشهر.[ج.] قذف به أرَقُه من النافذة. أُصيب [ج.] بانهيار عصبيّ. كما آخر خرج منه بالكاد. يؤرخ أطباء [ج.ف.] بداية إصابته بالزهايمر بالسنة الأولى لتقاعده السابق لأوانه.كذلك هذا ما حدث بالنسبة إلى [ب.ب.] تبكى المسكينة [ل.] بكل دموع جسدها؛ لأنها فُصلتْ من المؤسسة الصحفية رغم فاعليتها. ومازلتُ أفكر فى إسكافى [ب.] الذى مات حين لم يشهد انتعاشاً لتجارة الأحذية. (إذاً.. حياتى لا تُساوى شيئاً؟).. ولم يتوقف عن تكرار هذا. لم يكن ثمة مَن يريد أن يشترى مُبرر وجوده. (كل هذا من أجل لا شىء؟).. وبسبب هذا مات كمداً. هذا المُحَنَّكُ تقاعَدَ خلال أشهر.. يخشى كثيراً أن يواجهه أحد. يبحث عن عمل آخر:

مستشار دولى لمجموعة صناعية؟ يُستشار فى هذه وتلك؟ أما من جهة ذاك فكان رئيس وزراء. استولى عليه هذا طوال ثلاثين عاماً منذ نجاحاته الانتخابية الأولى. كانت زوجته تشجعه. إنه سائق

شاحنة السياسة. كان يعرف أن هذا الدور حجة عليه. بالسليقة.. حكومة فلان كانت مؤقتة. وخطيرة كان يعرف أنه سيكون فى أقرب فرصة أضحوكة الصحافة.. سيكون هدف النخبة.. يُفهم مِن أجل معسكره الخاص على أنه كبش فداء بصفة رئيس على الأرجح كان يعرف مزاح كليمنسو على رئيسه فى عام ١٩١٧ (حين أخرج ريحاً. هو الذى يتعفن.)

(نعم.. العالم السياسى فيه من هذه الأناقات بالأحرى نحن لم ننضج بعد فيه بين [أصدقاء].. وجب علينا أن نزن التصريحات السياسية لهم بالمليجرام) حينئذ.. يصبح رئيس وزراء. يقبل هذا التعاقد المحفوف بالمخاطر فى فترة محددة. وعلى ذلك تسلح هو وزوجته. رئيس وزراء خلال سنوات.. حسناً تمر هذه السنوات. وكما كان مُتوقَّعاً يقفز يفقد وزارته. يؤكد المحيطون به أنه شكا بخطورة الصدمة: يخاف من أجل مستقبله). ظل هكذا حتى أدى به الانهيار العصبىّ إلى حافة الانتحار. التسبب فى أذى الدور المجتمعى الذى تدربنا وتعلمنا لأجله ولعبناه (طوال حياتنا) استغرق نصف الوقت الذى عشناه: انتزعونا من الدور.. نحن لسنا ممثلين. تُذكِّر نهايات المهنة الدراماتيكية هذه باضطراب يماثل فى عينىّ بشكل كاف ألم المراهق الذى يعتقد أنه لن يصبح له مستقبل.. مُجرياً مقداراً من الألم المتواصل. منقصين أنفسنا ننقص بلا جدوى. إلى الحد الذى نصل فيه إلى أن نقتل أنفسنا. إنه على الأقل نقيصة فى تربيتنا.

-١٣-

أقبل عام كنتُ مُستاءً فيه من نفسي بشكل خاص. كانت تعاستي تماماً سببها كوني ما كُنْتُهُ فعلاً. أتوق إلى ألا أصبح. كانت نافذة حجرتي تطل على (باأوباب) (*) لا جود وسانت چينيه.. الصخرتين الوعرتين في جبال ألب الجنوب. الصخرتان مشهورتان بأنهما تختصران معاناة العاشقين المرفوضين. ذات صباح بينما كنتُ أتأمل هاتين الصخرتين مع قليل من المودة طرق شخص ما باب حجرتي. كان ذاك هو أبي. مرر رأسه من فتحة يسيرة:

- آه! يا دانيَل. لقد نسيتُ تماماً أن أقول لك: الانتحار تهورٌ.

(*) شجر استوائي عريض جذعه، وفي ثماره لب يؤكل. (المترجم).

ـ ١٤ ـ

لكن لنعدْ إلى بداياتى. مُشوشةً بسطوى العائلى.. ذهبتْ أمى تطلب نصيحة مدير مدرستى هو شخص حليم.. ثاقب الفكر. ذو أنف كبير مطمئن (كان التلاميذ يطلقون عليه: كُعْتُر(*). ارتآنى أكثر قلقاً وبؤساً من كونى خطيراً. طالب كعتر بالإبعاد وبالهواء الطلق. إقامة فى مرتفع جعلتنى استرد عافيتى. مدرسة جبل داخلية.. نعم.. إنها الحل.. سأريح قُوىً فيها وسأتعلم قواعد الحياة داخل جماعة. لا تقلقى يا سيدتى العزيزة.. أنتِ لستِ أم أرسين لوبين.. لكنكِ أم لحالم صغير يقتضى الأمر أن نمنحه حس الحقائق.قضيتُ عاميَّ الأوليين.. الرابع والخامس.. حيث لم أكن ألتقِى بعائلتى سوى فى يوم عيد الميلاد وفى يوم عيد الفصح وفى الإجازات الكبيرة. أما الأعوام الكبرى فقضيتها فى مدارس داخلية أسبوعية. سؤالُ معرفةِ إنْ كنتُ [سعيداً] فى المدرسة سؤال فرعىّ إلى حد كاف. فلنقل إنّ حالة الطالب الداخلى جعلتنى مُمكناً احتمالى للغاية أكثر من طالب خارجى. من الصعب أن نشرح لآباء هذه الأيام

(*) نوع من العصافير التى تكثر فى أوروبا. (المترجم).

مؤهلات المدارس الداخلية. إلى حد يتأملونها كسجن للأشغال الشاقة على مرأى من أعينهم.. تُرسل إليه أطفالها بديلاً عن ترك الأبوة. ذاكرة فقط. قدرةُ عام فى مدرسة داخلية.. إنه يمر كمسخ رجعىّ.. يؤيد سجن التلاميذ الكسالى. مفيد أن نشرح أننا نجونا بأنفسنا منه.. حجة العصر الآخر تعارضكم مباشرة: (نعم. لكن فى ذاك الوقت كان ثمة من يجر الصبيان بقسوة!).

اليوم اخترعنا الحب الأقاربى(*). سؤال المدرسة الداخلية تابوه. ماعدا تهديد يثبت أننا لا نمسك به من أجل حل.

ومع ذلك....

كلا.. لن أدافع عن المدرسة الداخلية.

كلا.

فلنحاول بدقة أن نَصِفَ الكابوس العادى لطالب خارجى (فى رسوب دراسى).

(*) نسبة إلى الأقارب (المترجم).

-١٥-

مَن التلميذ الخارجي؟ هو واحد ممن حدثتنى عنه أمهاتى التليفونيَّات.. على سبيل المثال.. والذى لن يرينه بين تلاميذ مدرسة داخلية مجاناً فلنضع الأشياء فى أحسن حالاتها: إنه ولد لطيف. محبوب من أسرته.. لا يريد موت أحد.. لكن من فرط عدم فهمه شيئاً عن أى شىء لم يعد يفعل شيئاً ذا بال.. ويحصد شهادات دراسية حيث المدرسون يتركون مُنّهَكين التقديرات تمر دون رجاء: (ما من عمل)..(لم يفعل شيئاً.. ولا ثمة مردود) .. (فى سقوط حر).. أو أكثر اعتدالاً: (ماذا يقول؟) (أرى وأنا أكتب هذه الأسطر هذه الشهادة وغيرها أمام عينىَّ).

لنتابع تلميذنا الخارجي سيئ المستوى فى واحد من أيامه الدراسية. بشكل استثنائى.. لم يتأخر. ذكّرته بطاقة اشتراكه فى وسائل المواصلات غالباً بأمر هذه الأوقات الأخيرة. لكن حقيبته فارغة تقريباً: كتب.. كراسات.. أدوات.. لمرات كثيرة تُنسى. (سيكتب مدرس الموسيقى فى شهادته الفصلية:عدم اهتمام بالناى).

وبطبيعة الحال لم يُنجز واجباته. والحالة هذه.. تكون ساعته الأولى هى ساعة الرياضيات وتمرينات الرياضيات هى إحدى التمرينات التى يتغيّب عنها.

هنا أول ثلاثة أشياء: إمّا لمْ يكمل تمريناته؛ لأنه منشغل بشىء آخر (تطواف بين الرفاق.. أو أياً كان الأمر مذبحة تليفزيونية فى حجرته المغلقة...)

وإمّا سقط فوق سريره تحت عبء وهَنٍ هَشٍّ وغَرِقَ فى النسيان. مَدٌّ موسيقى يعوى فى جمجمته.. وإمّا ـ وهذا هو الظن الأكثر تفاؤلاً ـ حاولَ بعزم خلال ساعة أو اثنتين أنْ يؤدى تمريناته لكنه لم يتوصل إلى إنجازها.

حالات الصورة الثلاث بدلاً من النسخ.. على تلميذنا الخارجى أن يجهز لمُدرّسه تبريراً. والأمر هكذا.. يبقى التفسير الأصعب الذى يصلح بالنظر إلى ذلك هو الحقيقة الخالصة والبسيطة: (سيدى.. سيدتى.. لم أؤدِ تمريناتى لأنى قضيّتُ الجزء الأكبر من الليل فى مكان ما فى سيْبر وأنا أقاتل جنود مَالٌ الذين قمتُ من جهة أخرى بإبادتهم حتى آخرهم.لمَ لا تثق فىّ!).

(سيدتى. سيدى.. أعتذرمن أجل هذه التمرينات التى لم أُنْهها مساء أمس.. لقد استسلمتُ تحت وطأة غباوة ساحقة..لا يمكننى تحريك إصبعى الصغير.. بدقة قوة انتعال نقّالتى).

تُبْرز الحقيقةُ هنا عقبةَ الاعتراف (لم أعمل واجبى) .. الذى يُسبب عقابًا فوريًا. سيفضّلُ تلميذنا

الخارجى بدلاً من اعترافه هذا أن يؤلِّف حكايةً تكون أكثر قبولاً - على سبيل المثال: (أبى وأمى منفصلان.. نسيت واجبى فى بيت أبى قبل عودتى إلى بيت أمى. وبتعبير آخر سيكذب. غالباً يفضِّل المدرس من جانبه هذه الحقيقة المُعَدَّة لاعتراف كثير الوعورة والذى قابله فى سلطته. أُجْتنبتْ الصدمة الجبينية. التلميذ والمدرس ينتفعان بهذه الخطوة الدبلوماسية لاثنين. بالنسبة إلى الدرجة.. العقوبة معروفة: نسخة لا تأجيل لها.. صفر. حالة التلميذ الخارجى الذى حاول بعزم لكن دون جدوى أن يعمل واجبه لا تختلف قليلاً. يدخل الفصل مستقبلاً حقيقة يمكن قبولها بصعوبة (لقد كرستُ ساعتين بالأمس يا سيدى لئلا أعمل واجبك. كلا.. كلا.. لم أفعل أى شىء آخر.. جلستُ على منضدتى.. أخرجتُ كراسة النصوص.. قرأتُ النص.. وخلال ساعتين وجدتنى فى حالة تعطلٍ رياضى مفاجئ.. شللٌ ذهنى لم أخرج منه إلا وأنا أسمع أمى تنادينى لتناول طعامى. أنت ترى.. لم أعمل واجبك.. لكنى كرستُ له ساعتين حقيقةً بعد العَشاء كان الوقت متأخراً جداً جلسة جديدة من التخشب كانت تنتظرنى تمرين الإنجليزى) (إن كنتَ تستمع أكثر فى الفصل كنتَ فهمتَ نصوصك !) يستطيع أن يُعارض المدرس (على صواب).

لتحاشى هذا الخزى العلنى سيفضل تلميذنا الخارجى أيضاً عرضًا دبلوماسيًا للأحداث: (كنتُ مشغولاً بقراءة النص حين انفجر المِرْجل).

وهلمَّ جراً. من الصباح إلى المساء. من طريقة لطريقة.. من مدرس لمدرس.. من يوم ليوم.. في دالة أُسية(*) للكذب الذي يصل إلى مشهور (إنها أمي!.. إنها ماتت!) فرانسوا تروفو. بعد هذا النهار المنقضي في الكذب داخل مؤسسة دراسية.. أول ما سيسمعه تلميذنا الخارجي سيئ المستوى لدى عودته إلى المنزل هو المبنيّ:

- آنئذ.. ما حدث اليوم شيء جيد؟

- جيد جداً.

كذب جديد.

من يطلب منه أيضاً أن يتمزق شكاً من الحقيقة:

- في التاريخ سألتني المُدَرِّسةُ عن ١٥١٥. فرددتُ مارينيان. كانت سعيدة جداً!.

(هيا.. سيستمر هذا حتى غد).

غير أن الغد يُقبل في الحال والأيام تتكرر وتلميذنا الخارجي يستأنف ذهاباته وإياباته ما بين المدرسة والأسرة.. وتنفد طاقته الذهنية في نسج شبكة ماهرة من الأغشية بين الأكاذيب التي تُقال في المدرسة وأنصاف الحقائق التي تَصلح للأسرة.. بين التفسيرات التي يُجهزها للبعض وبين التبريرات التي يُقدمها للآخرين.. بين البورتريهات التي كلَّفه بها المدرسون، والتي يرسمها للآباء وبين التلميح بالمشكلات الأسرية التي يدُسُّها في آذان المدرسين..

(*) الدالة الأُسيّة هي التي تتضاعف بشكل أُسيّ. (المترجم).

ذرّة من الحقيقة فى بعضها وفى بعضها الآخر.. دائماً.. لأن هؤلاء الناس ينتهى الأمر بهم إلى أن يتقابلوا آباءً ومدرسين.. وهذا ما لا مفر منه.. وعليه أن يحلم بهذه المقابلة.. ودون توقف يُتقن الرواية الحقيقية التى سيُصنَعُ منها سيناريو هذه المقابلة.

هذا النشاط الذهنى يعبئ طاقته دون معيار مشترك مع المجهود الذى يَرضى به التلميذ جيد المستوى لكى يعمل واجباً جيداً.

تلميذنا الخارجى سيئ المستوى يُنْهك مِن هذا. أكان يريده (يريده فردياً) وهو لم يعد يمتلك أدنى قوة كى ينخرط حقيقةً فى العمل.الرواية التى يختلقها تجعله سجيناً فى مكان آخر.. مكان ما بين المدرسة من أجل الصراع وبين الأسرة من أجل الاطمئنان.

فى البُعد الثالث والمُقْلق حيث الدور يئول إلى التخيل الذى يرتكز على سد الثغرات التى لا تُحصى من حيث يستطيع أن ينبثق الواقع.. أسفل مناظره الأكثر خشيةً:

كذب مكشوف.. غضب البعض.. حزن الآخرين.. شكاوى.. عقوبات.. وربما طرد.

عودةٌ إليه هو.جُرم ضعيف.. خزى.. اشتهاء ذنب: معهم حق.. أنا لا أحد..لا أحد..لا أحد.

أنا لا أحد.

والأمر هكذا.. فى المجتمع الذى نعيش فيه. المراهق الذى يقيم داخل إدانة عدم كفاءته ـ وها هو

على الأقل الشيء الذى تُعلّمه لنا التجربة المعيشة ـ هو فريسة.

-١٦-

الأسباب التى من أجلها يصل الأمر بالمدرسين وبالآباء إلى أن يضربوا صَفْحاً عن هذه الأكاذيب لا بل وأن يتواطئوا معها.. أنها لكثرتها لا يمكن أن تُناقش. كم من إشاعة يومية على أربعة أو خمسة فصول بكل منها خمسة وثلاثون تلميذاً؟

يستطيع مدرس أن يتساءل وبشكل شرعى. أين يوجد الوقت اللازم لهذه التحقيقات؟

أأكون أنا من جهة أخرى مُحققاً؟

أعلىّ على صعيد التربية الأخلاقية أن أحلّ محل الأسرة؟

إن كانت الإجابة بنعم.. فإلى أى حد؟

وهلمّ جراً. قوائم من الأسئلة والطلبات يجعل من كلٍّ منها فى يوم أو فى آخر موضوعاً للنقاش بين الزملاء.

لكن ثمة سبب آخر من أجله يتجاهل المدرس هذه الأكاذيب.. سبب أكثر توارياً والذى لو كان يقترب من شعور واضح سيعطى هذه النتيجة تقريباً:

هذا الولد هو تجسيد فعلىّ لفشلى المهنى الخاص بى. لم أستطع أن أتوصل لا إلى جعله يُحرز

تقدماً ولا لجعله يعمل. تماماً جعلّته يأتى إلى الفصل.. وما زلتُ مطمئناً من حضوره المادى الوحيد.لحسن الحظ.. بالكاد يواجهنى هذا الاتهام الشخصى الذى حورب بكمية من الحجج التى يمكن قبولها: أنا أُخْفقُ مع هذا.. موافق.. لكنى أنجح مع آخرين كثيرين. ما كان هذا خطئى لو كان هذا الصبىّ وجد نفسه فى الصف الرابع!.

ماذا علّمه إذاً أسلافى؟

فيما يفكر والداه؟

أنتخيل أنه مع مجموعاتى ومواعيدى أستطيع أن أجعله يلحق بتأخر كهذا؟

عدد من الأسئلة التى تسمح لنا وهى تثير ماضى التلميذ.. أسرته..الزملاء.. المؤسسة نفسها.. أن نكتب وبكل صراحة التعليق الأكثر ذيوعاً عن الشهادات الدراسية: عدم اهتمام بالقواعد (التى وجدتها حتى على شهادة للدروس الإعدادية!).

بمعنى آخر: بطاطا ساخنة.

ساخنة تكون البطاطا بخاصة من أجل الآباء. لا ينتهون بجعلها تقفز من يدٍ إلى اليد الأخرى.الكذب اليومى لهذا الصبى يُنْهكهم: كذب بإهمال.روايات محبوكة.. تفسيرات مفصَّلة مبالغ فيها.. تبريرات متوقَّعة: (فى الحقيقة..الذى حدث....)

بعد أن أعيتهم الحيلة..عدد لا بأس به من الآباء يُبْدون قبولهم لهذه الأساطير المُضنية..كى يقوموا

مؤقتاً بتهدئة جزَعهم الخاص أولاً (ذرة الحقيقة . مارينيان ١٥١٥ ـ لاعبة دور قرص أسبرين).. ولكي يصونوا الجو الأسريّ بعد ذلك.. وحتى لا يتحول العَشاء إلى دراما.. ليس هذا المساء من فضلك..ليس هذا المساء.. لتأخير دليل الاعترافات الذى يمزق قلب كل واحد فيهم.

باختصار.. لطرد اللحظة التى سنقيس فيها دون مفاجأة واقعيةٍ مساحةَ المشهد الدراسى مستقبلين الشهادة الفصلية التى تُطلى بمهارةٍ أكثر أو أقل بالمنتفع الأساسى الذى أمسك مجاناً بصندوق الخطابات الأسرى.

غدًا سنرى..

غدًا سنرى...

ـ ١٧ ـ

إحدى أكثر حكايات التواطؤات الراشدة التى تستحق الذكر فى كذب طفل هى المغامرة الناجحة لأخى صديقى [ب.].. الذى كان عمره ـ آنذاك ـ اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاماً. ولأنه كان يخشى تفتيش الرياضيات فقد طلب من أفضل زملائه أن يُحدد له المكان الصحيح للملحق. على أى شىء ينهار متظاهراً بأزمة مرعبة. وتتظاهر إدارة المدرسة بأنها تصدقه.. تطرده إلى المنزل.. وهى بهذا لا تستريح منه. من هنا يقوده الآباء دون إشارة إلى عيادة مجاورة..حيث تُجْرى له عملية فى التوِّ!.

يظهر الجرَّاح بعد إجراء العملية وهو يحمل إناءً ينغمر فيه شىء ما دامٍ ويُصرح بوجه يُشعُّ براءة: (لقد أجريتُ العملية على أكمل وجه.. لقد كان يُشرف على التهاب صفاقى!).

لأن المجتمعات أيضاً تُبْنى على الكذب المُقسّم جيداً.

أو إليكم هذه الحكاية الأخرى الأحدث:

(ن)... مديرة مدرسة ثانوية فى باريس تراقب

ظاهرة الغياب المتكرر للتلاميذ هى بنفسها تنادى فى فصول البكالوريا النهائية فى مدرستها.

دون مقابل تمسك خصوصاً بعائد إلى الجُرْم والذى هددته بالطرد حال غيابه القادم إن لم يكن ثمة ما يُبرره.

فى ذاك الصباح. يتغيب الصبى.. إنها المرة الـ... اتصلتْ [ن.] فى الحال بالأسرة عن طريق تليفون السكرتارية. الأم وهى تعتذر تؤكد أن ابنها مريض تماماً وهو الآن طريح الفراش يحترق بالحمى.. وأثبتت لها بأنها كانت على وشَك أن تخبر المدرسة.[ن.] قطعت المكالمة التليفونية قانعة بما سمعت وهذا أمر طبيعى. باستثناء هذا.. تُقابل الصبى حال عودتها إلى مكتبها. لقد كان بكل بساطة فى الحمَّام أثناء الاتصال.

ـ ١٨ ـ

فى حالة حصْر الذهابات والإيابات ما بين المدرسة والأسرة تُبرز حالة التلميذ الداخلى ميزتها عن حالة التلميذ الخارجى بإقامة تلميذنا بين فترتين زمنيتيْن مُغايرتيْن: المدرسة من صباح الإثنين حتى مساء الجمعة .. والأسرة خلال العطلة الأسبوعية. مجموعة من المتحدثين طوال خمسة أيام عمل ومجموعة أخرى طوال يوميّ عطلة (والمجموعتان تجدان فرصة للرجوع عوداً على بدء ليوميّ عيد).

الواقع المدرسى من جانب والواقع الأسرى من جانب آخر. نائماً دون أن يُطمئن الآباء بكذب يومى.. مستيقظاً دون أن يُعدً بعناية اعتذارات بشأن العمل الذى لم يُنجز .. بما أنه أتم درس المساء فى أحسن الأحوال بمساعدة مشرف أو بمساعدة مدرس. من الراحة الذهنية.. إجمالاً .. تولد طاقة تعويضية تمتلك فرصة لأن تُستثمر فى العمل الدراسى.

أيكفى هذا لدفع تلميذ كسول وجعله على قمة الفصل؟

على أى حال أيمنحه هذا فرصة لأن يعيش الحاضر كما هو؟

والحالة هذه.. إنه فى ذمة حاضره الذى يُشيده الفرد دون أن ينحرف عنه هنا يتوقف ثنائى على المدرسة الداخلية. آه.. لو أن.. بعد كل حساب.. حكايةً تُرهب الجميع سأضيف لأنى تعلمتُ فيها بنفسى أن أفضل المدارس الداخلية هى تلك التى يكون فيها المدرسون أيضاً مُدرسين داخليين مُهيئين باستمرار لحالة الاستغاثة.

- ١٩ -

للملاحظةِ هناك.. طوال العشرين عاماً الأخيرة حيث ساءت سمعة المدرسة الداخلية.. ثلاثة من أضخم نجاحات السينما والأدب الشعبى لدى الشباب هى دائرة الشعراء الراحلين.. هارى بوتر(*).. المُرنّمون.. وكل منها يُعتبر مدرسة داخلية فى نطاقِه.

ثلاث مدارس داخلية قديمة بشكل كاف فضلاً عن ذلك: زى موحد.. مراسم.. عقوبات جسدية عند الأنجلو ساكسونيين.. بلوزات رمادية.. بنايات مشئومة.. مدرسون يكسوهم الغبار وأزواج من الحواجز الصوتية عند المُرنمين.

قد يكون مثيراً للاهتمام تحليلُ الاستقبال الاحتفالى الذى قام به شباب المشاهدين عام ١٩٨٩ تجاه دائرة الشعراء الراحلين.. تقريباً بالإجماع. لقد حطَّ نقدنا من شأنه وصالات المدرسين: غوغائية.. مجاملات. تشبّهٌ بالقدامى .. حماقات.. تكلُّفٌ

(*) سلسلة هارى بوتر الشهيرة للكاتبة البريطانية ج. ك. رولنج، وواكب صدور أجزاء السلسلة السبعة سبعة أفلام سينمائية حققت نجاحًا منهلا، كما أن السلسلة هى الأكثر شهرة ومبيعًا فى اللغة الإنجليزية حتى الآن.

عاطفى.. فقر سينمائى وفكرى.. عدد من البراهين التى لا يمكننا أن نعترض عليها بصواب... يبقى أن حشود تلاميذ الثانوى الفوضوية تهرول إليه وتعود فى حالة تألق.

أنْ نظنهم مفتونيين بعيوب الفيلم الوحيدة فهذا رأى تافه لجيل كامل. مُفارقات المدرس كيتنج التاريخية وسوء نيته على سبيل المثال لم تفلت من تلاميذى:

ـ لم يكن كلياً (مهذباً).يا سيدى.مع [كارب ديام] كيتنج يتحدث عنه كأننا كنا دائماً فى القرن السادس عشر. والحالة هذه.. فى القرن السادس عشر مات كثيرون وهم أكثر شباباً من اليوم!.

ـ من جهة أخرى..إنها قبيحة تلك البداية.حين يُمزِّق الموجز الدراسى.. نمط يَدَّعى أنه منفتح جداً...

ولمَ لا يحرق الكتب التى يستاء منها.. بقدر ما كان فيها؟ .. أنا.. قد أرفض.

هذا مجون.. تلاميذى عشقوا الفيلم.

كلهم وكلهن يتقمصون الشباب الأمريكان فى نهاية سنوات الخمسينيات التى كانت بالنسبة إليهم اجتماعياً وثقافياً أقرب من المريخيين.

كلهم وكلهن كانوا ولوعين بالممثل روبين ويليامز (الذى كان يَخال البالغون أنه يصنع أطناناً منهم).

كان مُدرسه كيتنج يُجسد أمام أعينهم الحرارة الإنسانية وحب المهنة: ولع بالمادة التى تُدرس.مُطلَقاً

لتلاميذه بتفانٍ الخدمة كلها عبر حيوية مدرب لا يَكِلّ. حوجلة المدرسة الداخلية كانت تضيف إلى حصصها حِدةً وتُضفى عليهم مناخاً من الألفة الدراماتيكية التى تُربى شبابنا المشاهدين على الكرامة الكاملة للطلاب.

أمام أعينهم كانت حصص كيتتج طقسَ عبور لم يكن يرى سواهم.. سواهم بمفردهم. لم تكن هذه هى قضية الأسرة ولا هى من جهة أخرى قضية المدرسين. إنه أحد تلاميذى عَبَّرَ دون مراوغة: حسناً.. المدرسون لا يحبون. لكنه فيلمنا.. وليس فيلمكم!.

بالضبط هذا ما كان على أغلب المدرسين أن يفكروا فيه قبل ذلك بعشرين عاماً.. حين تهلل تلاميذ الثانوى بأنفسهم بالسعفة الذهبية لمهرجان كانْ ١٩٦٩والتى سميت [طقسوس(*)].

حكاية أخرى لَمدرسة داخلية حيث أكثر تلاميذ المدرسة البريطانية تألقاً كانوا قد اقتحموا مدرستهم وأقاموا فوق الأسطح كانوا يطلقون الرشاشات والمدافع الهاون على الأقارب.. تجمع الأسقُف والمدرسون من أجل تأجيل الجوائز.

مشاهدون بالغون متعثرون كما يجب.. طلاب وتلاميذ ثانوى متهللون بطبيعة الحال: إنه فيلمنا.. لا فيلمكم!.

ظاهرياً.. تغيرت الأزمنة. لقد قلتُ لنفسى ـ آنذاك ـ إن دراسة مقارنة لكل الأفلام التى تتعلق بالمدرسة ستعبر كثيراً عن المجتمعات التى رأتها حين ولادتها.

(*) شجر يستخدم للزينة.(المترجم).

من [صفر فى السلوك] لجان فيجو إلى هذا الشهير [دائرة شعراء سانت ـ أچيل] لكريستيان ـ دريفيل (١٩٤٤ ـ عجوز المرنمين)..[بذرة عنف] لريتشارد تروفو (١٩٥٩).. [المعلم الأول] لميخالكوف ـ كونتشالوفسكى (الاتحاد السوفيتى١٩٦٥..)..مدرس لزورلينى (١٩٧٢).. وإليها يمكن أن نضيف بعد ١٩٩٠ حامل المنشفة لدانيل لوشيتى (١٩٩١). [اللوحة السوداء] للإيرانية سميرة ماخمالباف (٢٠٠٠).. التجنب لعبد اللطيف كيشيش (٢٠٠٢). وغيرها العشرات أيضاً.

مشروع دراستى المُقارنة لم يتجاوز طور النية. يعالجها من يريد..إن لم تُنجز الآن ها هى على أى حال ذريعة جميلة ترتدُّ إلى الماضى. معظم هذه الأفلام كان قد حقق نجاحات جماهيرية واسعة النطاق.. يمكن أن نحصى منها عدداً جيداً للتعليم المفيد.. من بينها: منذ رابليه[1].. كل جيل لغرغنتويا[2] يكابد رعباً فتويًا واحتياجاً ضخماً للبونوقراطيين. وبتعبير آخر: دائماً الرغبة المتجددة للتشكل فى تعارضها مع سمت الزمن.مع روح المكان.. وأغنية التفتح فى الظلام ـ أو بالأحرى فى الضوء! ـ تخميناً من مُعلمٍ مثالىّ.

---

(١) رابليه (فرانسوا رابليه) (١٤٩٥ ـ ١٥٥٣م) كاتب من عصر النهضة الفرنسية وطبيب كتب الفانتازيا والملهاة والأغانى.
(٢) شخصية سينمائية شهيرة.(المترجم).

-٢٠-

لكن لِنَعُدْ إلى سؤال [يصبح].

فبراير ١٩٥٩.. سبتمبر ١٩٦٩. عشر سنوات كانت قد انقضتْ بين الخطاب المشئوم الذى كنتُ قد كتبته إلى أمى وذلك الخطاب الذى أرسله أبى إلى ابنه المدرس. العشر سنوات حيث أصبحتُ بما يتعلق تَحوّلُ التلميذ الكسول إلى مُدرس؟

وبالتبعية. تحوّل الأُمّى إلى روائى؟

إنه بداهةُ السؤال الأول الذى يخطر على البال.

كيف أصبحتُ؟

الإغراء أكبر من عدم الإجابة. مستنتجاً على سبيل المثال أن النضج لا يوصف.. نضج الأفراد ليس أكثر من نضج البرتقال. فى أية لحظة يهبط المراهق الأكثر جموحاً على أرض الواقع الاجتماعى؟

متى يقرر أن يلعب هذه اللعبة؟

أيصلح هذا للقرار فقط؟

أى نصيب يناله منه التطور العضوى.. الكيمياء الخلوية .. فتحات الشبكة العصبية؟

عدد من الأسئلة التى تسمح بتحاشى الموضوع الأساسى.

ـ لو أن ما تكتبه عن تكاسلك حقيقى.. أيمكنك أن تعارضنى.. هذا التحول هو سر مصدق!.

لئلا يصدق فى الحقيقة. إنه من جهة أخرى نصيب التلميذ الكسول: لا أحد يصدقه قط.أثناء تكاسله نتهمه بأنه يُنكّر كسله المعيب فى شكاوى مريحة: (توقف عن رواية الحكايات واعمل!).

وحين يُثبت موقفه الاجتماعى أنه شُفى منه نرتاب فيه إذ يظهر مزايا لا يمتلكها: (أنت.تلميذ كسول قديم؟

هيا إذاً.. تفاخرّ!).

الحقيقة أن قبعة الكسول تُحْمل بطيبة خاطر استدلاليًا. إنها زخرفة نمنحها لأنفسنا بسهولة فى المجتمع.. الذى يميزكم عن هؤلاء الذين كانت جدارتهم فى أن يتبعوا دروب المعرفة الرشيدة. نسمع قدامى التلاميذ الكسالى الأبطال.. نسمع هؤلاء الماكرين فى قاعات الاستقبال.. على الأمواج.. يعرضون فشلهم الدراسى المرير كعملِ صمودٍ باهر. أنا لا أعتقد فى هذه الأحاديث إلا إذا لمحتُ فيها ذيل صوت ألم.

لأنه لو شُفينا أحياناً من التكاسل فإننا لن نشفى تماماً من الجروح التى يعاقبنا بها. لم تكن هذه الطفولة مُسلية. وسنندم على أنها لم تزد عن

هذا مستحيل أن نمتدحها. كأنَّ ربويًا (*) قديماً يتباهى بأنه شعر ألف مرة أنه مات مختنقاً!.

لهذا.. لا يأمل التلميذ الكسول الذى نجا من مأزق فى أن يُشفق عليه أحد.. خاصةً لا يريد أن ينسى. هذا هو كل شىء.. لم يعد يفكر فى الخزى. فضلاً عن هذا يعرفُ داخل أعماقه أنه ربما لن يتمكن من التخلص من ورطةٍ كهذى.

مهما حدث.. كثيرون هم التلاميذ الكسالى فى هذه الحياة. لكن دائماً ما كان لدىّ شعور بأننى سأنجو من الخطر. باختصار.. ما الذى حدث داخلى أنا خلال هذه السنوات العشر؟

كيف شُفيتُ منها؟

تقرير تمهيدى: بالغون وأطفال.. معروف هذا.. ليس لديهم الإحساس نفسه بالزمن. ليست العشر سنين شيئاً فى نظر البالغ الذى يحسب فترة وجوده بعشرات السنين. قد نشعر أن العشر سنين تمر مسرعةً.. حين يصبح لدينا خمسون!.

إنه إحساس السرعة الذى فضلاً عن ذلك يشحذ قلق الأمهات بالنسبة إلى مستقبل أبنائهن. البكالوريا فى خمس سنوات.. سابقاً.. لكن هذا بلا تأخير!

كيف يستطيع الصغير أنْ يتغيّر جذريًا فى هذا الزمن القليل جداً؟

والحالة هذه.. تُساوى كل سنة من تلك السنوات بالنسبة للصغير ألف سنة. يمكث مستقبله أمام عينيه

(*) المصاب بداء الربو (المترجم).

كاملاً فى بضعة أيام تأتى. أنْ نحدثه عن المستقبل فهذا يعنى أننا نطلب منه أن يقيس المطلق بالدسيمتر.

لو أن الفعل (يصبح) تسبب فى شلله فهذا خصوصًا لأنه يفسّر قلقَ وتوبيخَ البالغين الشديد. المستقبل.. إنه أنا فى أسوأ حالة.ها هو إجمالاً ما كنتُ قد ترجمته حين أثبت لى أساتذتى أننى لن أصبح شيئاً. وأنا أستمع إليهم لم أكن أصنع لنفسى أدنى تصور للزمن.كنت أصدقهم.بكل سذاجة: غبى إلى الأبد.. دائماً..(الأبد) و (دائماً) كانتا هما الوحدتان الوحيدتان لقياس أن الكرامة الجريحة تُطرحُ على التلميذ الكسول كى يتحرى حقيقة الزمن.

الزمن.. لم أكن أعرف أنه يلزمنى أن أشيخ كى أمتلك إحساسًا لوغاريتميًا.. من جريان الزمن. (كنتُ أجهل تماماً اللوغاريتمات.. جداولها.. خواصها.. مقاييسها.. وأقواسها الفتانة...).

لكن.. أصبحتُ مدرساً.كنتُ أعرف فطْريًا أنه لا جدوى من التلويح بالمستقبل قرّب أنوف أسوأ تلاميذى. يكفى عقابهم فى كل يوم.. وفى كل ساعة من هذا اليوم.. شريطة أن نكون - فى هذا اليوم - حاضرين تماماً معاً.

والأمر هكذا.. لمْ أكن طفلاً. كان يكفينى أن أدخل فصلاً حتى أخرج منه. كأحد الأشعة الساقطة من صحون الطائرات.. كان يبدو لى أنْ نظرة المُعلم العمودية تقتلعنى من مقعدى وتشحننى فوراً إلى مكان آخر. أين ذاك؟ فى رأسك بالضبط! رأس المعلم!.

كان هذا هو مختبر صحن الطائرة.

وكان الشعاع قد أودعنى فيه. ثمة من أخذ منه كل مقياس عدم كفاءتى.. ثم بَصَقنى بنظرةٍ أخرى كحُطام. كنتُ أتدحرج فى ماسورة صرف صحى حيثما لم أكن أستطيع أن أفهم لا الذى كنتُ أتعلمه ولا الذى كانت المَدرسة تنتظره منى من جهة أخرى بما أننى كنتُ مشهوراً بعدم امتلاك الكفاءة.

كان هذا الحُكْمُ قد قدَّم لى بدائل الكسل: ما جدوى أن نتقاتل على دورٍ لو أن السلطات العليا تعتبر أن الجَزَرَ قد نضج؟

نرى... كنتُ أطوِّر الكفاءة الأكيدة إلى مسألة ضميرية. إنها الطريقة الذهنية التى كنتُ أكتشفها بسرعة وأنا مدرس لدى تلاميذى الكسالى.

ثم يأتى مُنَقِذى الأول.

مدرس اللغة الفرنسية.

فى الصف الثالث.

مَنْ كشف لى مَنْ كُنْتُهُ: راوى صادق ومُخْفِقٌ بسرور. مُنْدهشاً.. دون شكٍّ من كفاءتى التى تُعدُّ بعنايةٍ اعتذاراتٍ مُبْتَكرةً دائماً عن دروسى التى لم أستذكرها أو واجباتى التى لم أنجزها.. قرَّر أن يعفينى من الأبحاث كى يُطالبنى برواية. رواية كان علىَّ أن أكتبها فى فصل دراسى(*).. بواقع باب كل أسبوع. موضوع الرواية مفتوح.. لكنه رجانى أن أُعدَّ بعنايةٍ مَلازمى دون خطأ فى الإملاء.(حكايةً لرفع المستوى النقدى).

(*) مدة الفصل الدراسى ثلاثة أشهر. (المترجم).

(أَتَذَكَّرُ هذه العبارة حين أنسى الرواية نفسها).

كان هذا المدرس رجلاً عجوزاً للغاية نَذَر سنواتِ حياته الأخيرة لنا. كان عليه أن يُنمى تقاعده فى هذه المدرسة التى لم تعُدْ خاصةً بالضاحية الشمالية فى باريس. سيد عجوز يمتاز بأنه عفى عليه الزمن لكنه هو الذى اكتشف مَلَكة الراوى داخلى. كان يدَّعى - تشوه إملائى أولاً - إنه لا بد أن يباغتنى بالحكاية إن كنتُ أريد فرصة لشروعى فى العمل الدراسى. كتبتُ هذه الرواية بحماس. كنتُ أصحح بدقة كل كلمة فيها بمساعدة القاموس (الذى لم يعد يفارقنى منذ ذاك اليوم).

بانتظامٍ كنتُ أُسلِّم أبواب روايتى كمؤلفِ روايةٍ مُسلسلة محترف.أتخيل أنها كانت حكاية حزينة كثيراً ومتأثرة كما كنتُ حينها بتوماس هاردى(*)..الذى تتنقل رواياته من سوء التفاهم إلى الكارثة ومن الكارثة إلى التراجيديا التى لا يمكن ترميمها.. والذى كان قد غيَّر ذوقى بروايته: قَدَرٌ. لا شىء يُفعل منذ الرحيل.. هذا هو رأيى.

لا أعتقد أننى أحرزتُ تقدماً جوهرياً أياً ما كان فى هذه السنة. لكن للمرة الأولى طوال فترة دراستى يجعل مُدرسٌ لى وَضْعاً.بقيتُ مَدْرسيًا فى عيون شخص ما كالمرء الذى كان لديه خط عليه أن يَتَّبِعَهُ.والذى كان قد ثبت فى هذه الفترة معرفة

(*) توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨م) شاعر روائى إنجليزى، كتب الرواية والقصة القصيرة من أنصار الحركة الطبيعية.

مضطرية بولى نعمتى.. بالتأكيد.. وإن كان بعيداً بشكل كاف. السيد العجوز أصبح موضع ثقة قُرائى السريين. عندئذٍ.. ماذا تقرأ - يا بناكشيونى فى هذه اللحظة؟

لأن القراءة كانت هناك. لم أكن أعرف وقتئذٍ أنها كانت منقذتى. فى ذلك الحين لم تكن القراءة هى إقدام هذه الأيام المُحَال.كانت تعتبر مضيعةً للوقت واشتهرت بأنها تؤذى العمل الدراسى.كانت قراءة الروايات محرمة علينا أثناء أوقات الدراسة.

مما تقدم كان ميلى السرىّ للقراءة: روايات يعاد تجليدها ككتب الفصل. مُخبأة فى كل مكان حيثما أمكن ذلك... قراءات ليلية تحت ضوء مصباح الجيب.. إعفاءات من الرياضة البدنية.. كان كل شىء على ما يرام كى ألتقى وحدى مع كتاب.إنها المدرسة الداخلية التى منحتنى هذا الذوق. كنتُ أفتقر فيها إلى عالم يخصنى.. وكان هو عالم الكتب. كنتُ أشاهد فى أسرتى خصوصاً الآخرين وهم يقرءون :

أبى وهو يدخن البايب جالساً فوق مقعده المريح أسفل مخروط مصباح ضوئى مُمرّراً إصبعه البنصر بشرود فى مفّرق شَعره المثالى.. كتاب مفتوح فوق ركبتيْه المتقاطعتين. برنار فى حجرتنا ممدد على جانبه ركبتاه منثنيتان ورأسه تستند على يده اليمنى.كان هذان الوضعان يشيران إلى رفاهية ما.

الواقع.. هذه هى فسيولوچيا القارئ التى دفعتنى إلى أن أقرأ دفعاً. ربما لم أقرأ فى البداية إلا من أجل

أن أقلد هذين الوضعين وأرتاد من خلالهما أوضاعاً أخرى.وأنا أقرأ كنتُ أستقر جسديًا داخل غبطة تستمر على الدوام. ماذا كنتَ تقرأ؟

حكايات أندرسونْ [١].. فى سبيل تقمّص قرويّ البط الصغير .. غير أن ألكسندر داماس[٢] أيضاً من أجل حركة السيوف ..الأحصنة والقلوب وسلمى لاچرلوف.. الرائع جوستا برلينج.. هذا القس السكّير والمُشْرِق..المنفى على يد مطرانه والذى فى روايته كنتُ رفيقاً لا يَكَلُّ المغامرة مع جنود إيكبى الآخرين..الحرب والسلام[٣] التى أهداها لى أخى برنار بمناسبة انتقالى إلى الصف الرابع.. أُصدّق قصة الحب بين ناتاشا وبين الأمير أندريه فى القراءة الأولى ـ التى كانت قد اختصرت الرواية إلى ما يقرب من مائة صفحة.

الملحمة النابليونية فى الصف الثالث.. فى القراءة الثانية: أوسترليتز.. بورودينو.. حريق موسكو.. انسحاب روسيا (رسمتُ لوحة جدارية شاسعة لمعركة أوسترليتز.حيث كان يتقاتل رجال كتابتى المستترة

---

(١) هانز كريستيان أندرسن (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥م) كاتب دانمركى وأشهر وأكبر كاتب أطفال فى العالم.

(٢) ألكسندر ديماس (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠م) الكاتب الفرنسى الشهير، من أشهر مؤلفاته «الكونت دى مونت كريستو» و «الفرسان الثلاثة».

(٣) الحرب والسلام: أشهر روايات الكاتب الروسى الأشهر ليف نيكولايفيتش تولستوى (١٨٢٨ ـ ١٩١٠م يعد من أعظم الروائيين على الإطلاق بداية من القرن التاسع عشر ومن أشهر أعماله «أنا كارنينا» و«الحرب والسلام» التى نشرت عام ١٨٦٩م وتناولت الأحداث السياسية والعسكرية فى أوروبا ما بين (١٨٠٢ ـ ١٨٢٠م) وأهمها غزو نابليون لروسيا عام (١٨١٢).

الصغار الطيبون)(*).. مائتان أو ثلاثمائة صفحة من أفضل ما يكون. قراءة جديدة فى الصف الثانى. من أجل صداقة بيير بيزنجوف (قروى بط صغير لرواية أخرى.. لكنها كانت تحتوى على أشياء كثيرة لم أكن أصدقها). ومحصلة الرواية أخيراً.. فى الصف النهائى للبكالوريا.. من أجل روسيا.. من أجل شخصية وتوزوف.. من أجل كلوزويتز.. من أجل إصلاح زراعى. من أجل تولستوى.

كان هناك ديكنز.. بالتأكيد أوليڤر تويست كان يحتاج إلىّ أنا.. إيميلى برونت الذى كان الجانب الروحى منه يُسمينى الغوث.. ستيڤنسون.. چاك لوندون.. أوسكار ويلد..

وأوائل قراءات ديستوفسكى.. العازف بكل تأكيد (مع ديستوفسكى ستعرف لماذا نبدأ دائماً بالعازف).

هكذا مضت قراءاتى.. تحت إرادة ما وجدته داخل مكتبة الأسرة وتانتان بالتأكيد.. سبيرو وعلامات الطريق أو لو بوب موران التى أضرت بالعصر. الميزة الأولى للروايات التى كنتُ أنشلها من المدرسة أنها لم تكن ضمن المنهج الدراسى. لم يكن أحد يسألنى. ما من نظرة كانت تتلصص على وتقرأ هذه الأسطر من فوق كتفى. كان مؤلفوها وأنا نقطن داخلنا. كنتُ أتجاهل وأنا أقرأها أننى أثقف نفسى وأن هذه الكتب تنشط داخلى شهية كانت تقاوم نسيان

(*) هنا يشير إلى الرسومات التى كان يرسمها على هوامش كتبه الدراسية.(المترجم).

هذه الروايات. قراءات الشباب هذه تَمَّتْ عن طريق أربعة أبواب مفتوحة على علامات العالم. أربعة كتب مختلفة أكثر مما يمكن لكنها كانت تنسج داخلى لأسباب غامضة تسكننى جزئيًا قيود قرابة محدودة:العلامات الخطيرة. بالمقلوب. ميثيولوچيات رولان بارت والأشياء لبيريك. لم أكن قارئاً ذوّاقة. دون أن يزعجنى فلوبير(*) كنتُ أقرأ مدام بوفارى وعمرى خمسة عشر عاماً من أجل إشباع مشاعرى التى انتعشت لحسن الحظ وهى فى حالة نَهَم شديد. لم أكن أجذب أية منفعة دراسية مباشرة من هذه القراءات. ضد كل الأفكار التى استقبلتها تبقى هذه الآلاف من الصفحات التى التهمتها ـ ونُسيتْ بسرعة جداً ـ لم تُحسِّنْ مستوایَ فى الإملاء.كان مستوای غامضاً دائماً وحتى اليوم مما تقدم يبقى حضور قواميسى كُليةً.. كلا.. فالذى تغلب على أخطائى مؤقتاً (لكن هذا العابر يعيد الشىء ممكناً قطعياً).. كان هو هذه الرواية المُيسَّرة بواسطة هذا المدرس الذى كان يرفض أن يقلل من قراءته لاعتبارات إملائية. كان علىّ أن أقدم إليه مخطوطاً دون خطأ. نابغة تعليمى إجمالاً. بالنسبة إلىّ وحدى.. ربما.. وربما فى هذه الحالة الوحيدة.لكن نابغة!.

قابلتُ ثلاثة آخرين من هؤلاء النوابغ داخل فصلى فى الصف الثالث وفصلى الدراسى الثانى.. ثلاثة

(*) فلوبير : جوستاف فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠م) كاتب فرنسى شهير، ارتبط اسمه بعمله الأشهر «مدام بوفارى» باعتبارها أول رواية واقعية فى الأدب الفرنسى.

منقذين آخرين سأتحدث عنهم فيما بعد: مدرس الرياضيات الذى كان هو الرياضيات.. ومُدرّسة التاريخ المدهشة التى كانت تمارس شخصياً فن التجسيد التاريخى ومدرس الفلسفة الذى باغته إعجابى لا سيما وأنه اليوم لا يحتفظ بأية ذكرى عنى (كتب لى عن ذلك).. مما جعله يكبر فى نظرى بما أنه نبّه ذهنى دون أن يكون علىّ شىء لكن كل شىء كان بمهارته. إليهم المعلمون الأربعة الذين أنقذونى من نفسى. هل وصلوا متأخرين جداً؟

أكان علىّ أن أقتفى آثارهم.. لو كانوا معلمى إبتدائى؟

أأحتفظ بأفضل ذكرى عن مرحلة طفولتى؟

أياً كان الأمر كانوا هم سعدائى غير المتوقعين هل كانوا بالنسبة إلى تلاميذ آخرين الثورة التى كانوها بالنسبة إلىّ؟

إنها أسئلة توّجه بقدر ما يلعب مفهوم المزاج دوره فى مادة التربية. حين يصل الأمر بى إلى مقابلة تلميذ قديم يبدو سعيداً من عهود ولّت داخل فصلى أقول لنفسى فى اللحظة نفسها على رصيف آخر ربما يتنزه من كنتُ من أجله مطفأة الوظيفة عنصر آخر من عناصر تحولى كان هو اقتحام الحب لى داخل عدم كفاءتى المزعومة.

الحب!.

كان عجيباً تماماً على المراهق الذى كنتُ أعتقد أنى أكونه. ورغم ذلك كانت الإحصائيات تحكى عن

انبثاقه المحتمل بل الأكيد. (لكن لا. فكروا إذاً في دفعي إلى الحب..أنا؟ وإلى من؟)

لقد قدم نفسه للمرة الأولى على هيئة لقاء مؤثر في الإجازة.. ظهر بشكل جوهري في تبادل الرسائل بغزارة. وانتهى بقطيعة أُتفق عليها باسم الشباب والمسافة الجغرافية التي كانت تفصل بيننا. الصيف المقبل.. وأنا كالقلب الذي انكسر بفعل نهاية هذا الهوى نِصْف ـ الأفلاطوني كنتُ قد تطوعتُ كنوتيٍّ يعمل على سفينة شحن.. إحدى سفن الخدمة الحرة في الأطلنطي.. وألقيتُ كمية كبيرة من الخطابات في البحر لجعل الحيتان تضحك ساخرة. كان عليّ أن أنتظر عامين آخرين ليصبح حب آخر هو الأول.. بالأهمية التي.. في هذا المجال.. تُكْسبها الأفعال للكلام. نوع آخر من التجسيد الذي أثار حياتي وحاكى توقف موت تكاسلي.امرأة كانت تحبني! للمرة الأولى في حياتي كان اسمي يرن في أذنيّ هاتين!.

امرأة تناديني باسمي! كنتُ أعيش في عينيّ امرأة.. في قلبها.. بين يديها.. والآن في ذكرياتها.. أول نظراتها في اليوم التالي أخبرتني بهذا! مختار من بين الآخرين! أنا المفضَّل! أنا بواسطتها!.

(تلميذة كانت.. فضلاً عن ذلك عندما رحت أعيد سنتي النهائية!). حواجزي الأخيرة أُجْتيزتْ: كل الكتب المقروءة ليلاً.. هذه الآلاف من الصفحات التي مُسح معظمها من ذاكرتي.. هذه المعرفة المختزنة دون علم أحد ودون علمي أنا.. مدفونة تحت طبقات من

النسيان.. من العزوف.. من التحقير الذاتى. هذا المزيج المعقد من الكلمات التى تفور بالأفكار.. بالأحاسيس.. بالمعرفة من كل نوع.. يجعل قشرة العار تنفجر فجأة وتتدفق داخل مخى الذى يتخذ مسالك سماء مرصعة للغاية بالنجوم!.

إجمالاً.. كنتُ أُحَلِّقُ كما يقول مسرورو اليوم. كنت أحب وكان ثمة من يحبنى! كيف استطاع مقدار من الشوق المتلهف أن يثير مقداراً من الهدوء ومن اليقين؟

أية ثقة وُضعتْ فجأة فى داخلى!.

وأى ثقة امتلكتْها داخلى بغتة!.

أثناء السنوات التى استغرقتْها هذه الغبطة لم أعد أناقش قضية الغباء. قطع الشيكولاتة المحشوة.. نعم.

بعد البكالوريا استبعدتُ فى وقت قصير حصولى على شهادة الليسانس وشهادة الأستاذية. كتابة روايتى الأولى.

دفاتر كاملة من الأقوال المأثورة التى كنت أسميها دون ضحك مختصراتى.. إنتاج أبحاث لا تحصى.. خُصّص بعضها لصديقات رُشحن لمعهد المعلمين العالى من قِبل صديقة لى.. واللاتى احتجن لمعرفتى درجة إجهاد النفس فى التاريخ.. فى الأدب.. أو فى الفلسفة.

فى سياق كهذا. كنت قد قدمت بذخاً لتلميذة كنت قد تخليت عنها فى الطريق من أجل كتابة هذه

الرواية الأولى الشهيرة. أدع ريشتى الخاصة تمضى.. أطير بجناجىّ.. فى سمائى الخاصة!.

لم أكن أريد شيئًا آخر. أو أن تواصل صديقتى حبها لى. على مزاح أبى بأنه لابد من انقلاب ضرورى لحصولى على شهادتى وعلى المخاطرة بمعركة كونية لو أنى حصلت عليها.. ضحكتُ من كل قلبى وأجبت بأنه على الإطلاق ما من انقلاب يا أبى.. الحب.. اسم الله!.

الحب منذ ثلاث سنوات! لن يجعله الانقلاب على فراشنا .. هى وأنا!

أما من جهة الشهادة فلا شهادة أنا لا أحب ألعاب المصادفة!.

ما من كفاءة! يكفى ما ضاع من الوقت هكذا. شهادة أستاذية وكفى: الحد الأدنى لمعيشة مدرس. مدرس صغير يا أبى. فى هذه المدارس الصغيرة لو اقتضى الأمر هذا.

عودة إلى مكان الجريمة. انشغلتُ فيه بصبيان سقطوا فى صندوق قمامة چيبوتى.انشغلت بهم مع ذكرى جلية لمن كنته.

بالنسبة إلى الباقى..الأدب! الرواية! التعليم والرواية! اقرأ.. اكتب.. تعلَّم!.

أيضاً تقتضى إفاقتى كثيراً من تصلب هذا الأب البعيد كذباً. أبداً وهو واهن العزم من فتور همتى.. عرف كيف يقاوم كل محاولاتى للهرب: هذا الالتمام

الحاد ـ على سبيل المثال ـ فى سن الرابعة عشر من أجل أن يدخلنى فى أطفال الجيش. ضحكنا على ذلك كثيراً بعد مرور عشرين سنة. حين أعطيته بعد أن حُرِّرتُ من خدمتى يقرأ التنويه الذى سُجّل فى دفترى العسكرى.. درجات متوالية: درجة ثانية.

ـ بالتتابع درجة ثانية.. آنذاك؟

نِعْمَ ما فكرتُ فيه: غير لائق بالإذعان ولا ذوق له فى القيادة. كان هناك هذا الصديق القديم أيضاً. چان رولان.. مدرس الفلسفة.. أب نيكولا.. چين. وچان. بول.. رفاق مراهقتى. فى كل مرة كنت أخفق فيها فى البكالوريا كان يدعونى إلى مطعم ممتاز كى يواسينى. وذات مرة فضلاً عن هذا كان كل منا يتخذ إيقاعاً خاصاً به وتأخرت بسذاجة عن الظهور.. چان. عزيزى چان.. هذه الصفحات ـ متباطئة فى الحقيقة جداً ـ تجعلك تبتسم فى فردوس الفلاسفة.

-٢١-

باختصار.. نصبح.

لكن لا نتغير كثيراً. نتصرف بما نكونه. ها هي نهاية القسم الثاني.. قدمت لنفسي نوبة شك. شك من جهة ضرورة هذا الكتاب.. شك من جهة مقدرتي على كتابته .. بكل بساطة شكي في نفسي.. الشك الذي يتفتح عما قريب في ملاحظات تهكمية على مجمل عملي. بل على حياتي كلها...

شك يتوالد...

هذه النوبات تتكرر. تحاول عبثاً أن تكون ميراث تكاسلي .. لم أعتد عليها:

دائماً نشك للمرة الأولى.. أما شكي أنا فهو مُدمرٍ. يدفعني ناحية منحدر طبيعي. أقاوم.. لكن من يوم ليوم أرجع عوداً على بدء التلميذَ السيئ الذي أحاول أن أصفه. الأعراض مشابهة بدقة لأعراض عامي الثالث عشر: أحلام يقظة.. تسويفات.. تبديدات. وساوس مَرَضية .. عصبية..اشتهاء الإثم.. تغيرات مزاجية. نواح.. وختاماً انصعاق أمام شاشة كمبيوتري.. كأني قديماً أمام تمرين عليّ أن أنهيه. أو

أسئلة لابد وأن أستعد لها ـكنت هناك.. يهزأ التلميذ الكسول الذى كنته.

أرفع عينىّ.. تهيم نظراتى فوق جنوب فيركور. ما من منزل واحد فى الأفق. ما من طريق ـما من أحد. حقول حجرية تحيط بها جبال دُكَّتْ حيث تزدهر من هنا وهناك غابات الزان كقنبرات صامتة.

فوق كل هذا الفراغ تبرعم بكثرة سماء من وعيد.

يا الله.. كم أحب هذا المنظر!

الواقع.. أحد أعظم ابتهاجاتى كان أنْ أقدم لنفسى هذا المنفى الذى وأنا طفل كنت أحتاج إليه من والدىّ.

هذا الأفق من جانبه ليس به ما يقدمه لأحد. (ما عدا هذا الأرنب الصغير لطائر السقاوة(*).. فى السماء.. ويُعدّ هذا الطائر مشروعات حول هذا الأرنب...).

فى الصحراء.. المغْوِى.. ليس إبليس..إنما هى الصحراء نفسها. إغواء طبيعى لكل التنازلات.

حسناً.. الأحوال مُرْضية هكذا.

أوقف سيرَكَ.

عدْ إلى العمل مرة أخرى.

(*) طائر من فصيلة الصقور (المترجم).

ـ ٢٢ ـ

ونعود ثانية إلى العمل. سطرًا تلو سطر نداوم على أن نصبح.. برفقة هذا الكتاب الذى يصبح.

نصبح.

بعضنا تلو الآخر نصبح. نادراً ما يحدث هذا كشىء مُقدّرًّ.لكن الشىء المؤكد هو أننا نصبح.

الأسبوع الماضى.. لدى خروجى من سينما إذا بفتاة صغيرة عمرها تسعة أعوام أو عشرة.. تركض خلفى فى الشارع وتلحق بى وهى تلهث:

ـ سيدى. سيدى!.

ماذا إذًا؟

أأنا نسيت مظلتى داخل السينما؟

يبتسم الجميع.. فيما تشير الفتاة بإصبعها إلى صورة تنظر إلينا من الجانب الآخر للشارع.

ـ إنه جدى يا سيدى!.

جد يرسم تحية متضايقة قليلاً.

ـ لا يجرؤ أن يقول لك صباح الخير.لكنك كنتَ مُدرّسه.

....

عجباً. جدها!.

أنا كنتُ مدرس جدها!.

وأجل. نحن نصبح.

...

تترك صبية فى الصف الرابع.. لا أحد.. لا أحد.. لا أحد بشهادتها (كم كنتُ لا أحد!)

عشرون عاماً فيما بعد تنادى عليك شابة فى شارع أچاكسيو.. متألقة.. جالسة فى شرفة مقهى:

ـ سيدى..لا تلمس كتف الجندى الذى يمر!.

تتوقف.. تلتفت إلى الوراء.. تبتسم لك الشابة.. تتلو عليها تتمة قصيدة الممر لسوبرڤيال التى ظاهريًا تعرفانها أنتما ـ الاثنين ـ:

قدْ يلْتفتُ إلى الوراء

قدْ يكونُ هذا هو الليلُ

ليلٌ بلا نجمةٍ وحيدةٍ

بلا مُنْحنى ولا سحابةٍ.

تقهقه هى وتسأل:

ماذا قدْ يُصبحُ إذاً

كلُّ ما يُكوّن السماءَ

القمرُ ومنظرُهُ

وضجةُ الشمسِ؟

وتجيبُ على الطفلة التى تظهر فى ابتسامة

المرأة.. الطفلة التى تمردت على مَن علَّمك هذه القصيدة قديماً:

عليكَ انْ تنتظرَ

جُنْدياً ثانياً

اقوى مِن الآخر

يَأذنُ بالمرور.

فى باريس.. أثرثر داخل مقهى مع بعض الأصدقاء. من طاولة مجاورة يُصَوِّبُ رجل إصبعه نحوى وهو يُحدِّق فىَّ. أرفع عينىَّ وأسأله بهزة جبهةٍ عما يريده منى.

حينئذٍ.. ينادينى باسم آخر غير اسمى.

ـ دُنْ سيجوندو سومبرا!.

هذا الحدث يجعلنى أقفز قفزة دوارية(*)

داخل الزمن.

ـ أنتَ. كنتَ لدىَّ عام ١٩٨٢! فى الصف الخامس.

ـ تماماً يا سيدى. وتلك السنة قرأت لنا دُنْ سيجوندو سومبرا.. رواية أرجنتينية لريكاردو جويرالدس.

لا أتذكر أبداً اسم تلاميذ المصادفة ولا وجوههم إضافةً إلى هذا. لكن منذ أبيات الشعر الأولى.. أوائل عناوين الروايات المذكورة. الإشارات الأولى فى حصة معينة.. شىء ما يُؤلف ثانية من المراهق الذى لم يكن

(*) نسبةً إلى الدَّوار (المترجم).

يريد أن يقرأ أو من الصغيرة التى كانت تؤكد أنها لم تفهم أى شىء فى أى شىء..أصبحا بالنسبة إلىّ مرة أخرى مقربين كأبيات شعر سوبرفيال أو اسم سيجوندو سومبرا الذى سيعرف لماذا لم يتكبدا تآكل الزمن.

هم.. فى الوقت نفسه.. هذه الصبية المذعورة.. هذه المرأة الشابة التى تضع اليوم موضة جيلها. هذا الصبى العنيد.. وقائد السفينة هذا الذى يقرأ فى أعالى المحيطات. طيار آلى فى حالة تعشيق.

فى كل مقابلة أُسجِّل أن ثمة حياة غير متوقَّعَة تتفتح فى مثل هيئة سحابة. إياك أن تتخيل أن هذه الأقدار تقتضى بهذا القدْر تأثير مُدرِّسك!.

أشاهد الوقت فى ساعة جيبى التى أهدتها لى مين زوجتى ذات عيد ميلاد قديم.. ولم تفارقنى قط هذا النوع من الساعات ذى العلبتين يُسمَّى سافونيت (١) . فإذا بى انزلق خمسة عشر عاماً إلى الوراء. مَدْرسة [H]الثانوية . قاعة..[F] حيث أراقب قرابة ستين من الأوائل والأواخر الذين يُمْتحَنون فى صمت المستقبل جميعهم يُسوِّدون الأوراق متنافسين ماعدا إيمانويل على يمينى.. على مقربة من النافذة على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف من دِكَّتى. أنف فى الريح.. نسخة بيضاء(٢) يا إيمانويل تلتقى نظراتنا تتضح نظرتى: ماذا إذاً؟

(١) أى ساعة بعلّبتيْن(المترجم).

(٢) يقصد انه لم يُدوّن أى شىء فى كراسة إجابته (المترجم).

نسخة بيضاء؟ هل ستجلس فيها.. نعم؟يشير إيمانويل إلىَّ بالاقتراب. كان تلميذى قبل ذلك بعامين. ذكىّ.نشيط.. كسول.. مبتكر.. مضحِك.وحازم. و..الآن.. نسخة بيضاء علانيةً. أوافق على الاقتراب.. يختلق اعتزام العمل.. لكنه قاطعَ توبيخى قاذفاً فى تأوّه قطْعىٍّ:

ـ لو كنتَ تعرف كم يزعجنى هذا يا سيدى!.

ما الذى يجب أن تفعل بتلميذ كهذا؟ الانقضاض عليه فى مكانه؟

توقع.. مع أن هذه ليست هى اللحظة..أسأل:

ـ وهل أستطيع أن أعرف ما الذى يفيدك؟

ـ هذه يجيب رادًا إلىّ ساعتى التى سرقها دون أن أكتشف هذا.

ـ وهذا.. يضيف وهو يُعيد إلىّ قلمى.

. نشّالّ؟

أتريد أن تصبح نشالاً؟

. حاوٍ يا سيدى.

ما يُصّبحه.فى الواقع.هو ما يكونه الآن.ومعروف به.دون أن يكون لى فى الأمر يد.

أجل.. يحدث أن تتحقق بعض المشروعات فى بعض الأحايين..أن تكتمل بعض الميول.. أن يُكرِّم المستقبل مواعيده.

أكد لى أحد الأصدقاء أن ثمة مفاجأة تنتظرنى فى المطعم الذى يدعونى إلى تناول وجبة فيه. أذهبُ

إلى المطعم. مفاجأة ذات أهمية. إنه ريمى.. طباخ المكان.

مدهش ارتفاعه المتر والثمانون سنتيمترًا أسفل قبعة الرأس البيضاء!.

بداية لم أتعرف عليه.. لكنه أنعش ذاكرتى وهو يضع أمام عينىّ نسخة كَتَبَها هو وقمتُ أنا بتصحيحها قبل خمسة وعشرين عاماً. ١٢/ ٢٠ . الموضوع:ارسمْ صورتك فى سن الأربعين. والحالة هذه.. الرجل ذو الأربعين عاماً المنتصب أمامى.. المبتسم.. الخجول قليلاً من ظهور مُدرسه القديم.. هو تماماً من كان الصبىّ قد رسم صورته : طاهٍ فى مطعم.. كان يقارن مطابخه بقاعة آلات باخرة فى عرض البحر.كان المصحح قد قدَّر باللون الأحمر.. وأعرب عن أمنيته فى الجلوس فى يوم ما على طاولة فى ذاك المطعم...

إنه نوع من المواقف حيث لا تتأسف على كونك أصبحتَ المدرس الذى لن تكونه من الآن فصاعداً. نحن نصبحُ.. نصبح.جميعاً بقدْر ما نكون.. ونتلاقى أحياناً بين من أصبحوا.

إيزابيل.. فى لقائى بها داخل مسرح الأسبوع الماضى أدهشتنى إذ وعامها المقبل هو الأربعون تشبه فتاة ذات ستة عشر عاماً كانت تلميذتى فى الصف الثانى.

كانت قد رسبت فى فصلى بعد أن فُصِلتُ مرتين. (فصلى للمرة الثانية فى ثلاث سنوات.. بعد كل

حساب!) الآن تعمل مطبّبة نُطّق بابتسامة حذرة.
تسألنى كالآخرين:

أتتذكر أونتيل؟ وأنتل؟وغيرهما؟

واحسرتاه.. يا تلاميذى.. دائماً ما تمتنع ذاكرتى القبيحة عن توثيق الأسماء العَلَم.

تواصل حروفها الكبيرة(*) إقامة العراقيل. كنتُ أحتاج إلى أجازات طويلة كى أنسى معظم أسمائكم. آنئذ.. تأملون مع كل هذه السنوات!.

نوع من الرشّافات الدائمة تغسل دماغى الذى يُقْصى.. مع أدمغتكم أسماء المؤلفين الذين أقرؤهم.. عناوين كتبهم أو عناوين الأفلام التى أراها.. المدن التى أعبرها.. المتجولون الذين أكونهم.. الخمور التى أشربها...

ما لا يدل على أنكم قد تغرقون فى نسيانى!

على أنه منحنى فقط خمس دقائق كى أراكم مرة أخرى ... ووجه ريمى الواثق.. ضحكة نادية العريضة.. دهاء إيمانويل.. رقّة كريستيان المتأمِّلة.. حيوية إيكسل.. بشاشة أرتر التى لا تصدأ..

كلها توقظ التلميذ داخل هذا الرجل أو هذه المرأة اللذان وهما يُقابلاننى يُسعداننى بالتعرف على مدرسهما.

أستطيع اليوم تماماً أن أعترف لكم بهذا.. ذاكرتكم كانت دائماً أكثر نشاطاً وأكثر وثوقاً بها من ذاكرتى.. حتى فى تلك الأوقات حيث كنا نتعلم معاً

(*) يقصد الحروف الأولى التى تُكتب بشكل كبير فى بدايات الأسماء العلَم(المترجم).

تلك النصوص الأسبوعية التى كان لابد لنا من أن نتمكن من تسميعها بالتبادل فى أية لحظة من العام.عام جيد عام سيئ..

قرابة ثلاثين نصاً من كل نوع.

أعلنت إيزابيل عنها بفخر:

ـ لم أنْسَ منها واحداً يا سيدى!

ـ أتصور أنكَ كانت لديك (١)......المفضلة..

ـ أجَلْ.. ما حددتم ـ على سبيل المثال ـ أننا سننضج كى نفهمه فى عامنا الستين.وما منه أتلو النص الذى نحن بصدده فى الحقيقة يسقط عمودياً كى أختتم باب يصبح(٢):

دأب جدى على أن يقول:الحياة قصيرة بشكل مذهل. اليوم تتألّب الحياة فى ذكرياتى على نفسها مشدودة جداً درجة أنى أفهمها بالكاد (على سبيل المثال) كشاب يقدر أن يصمم على السفر على ظهر حصان إلى أقرب قرية دون أن يخشى ألا (كل حادث مُسْتبعَد) تكفى حياة عادية تجرى دون تصادمات بعيداً جداً حتى من أجل هذه النزهة.)

فى مجمل الإجلال تُطلق إيزابيل اسم المؤلف: فرانز كافكا(٣)

وتحدد بدقة:

ـ فى ترجمة ڤيالات.. التى تفضلها.

---

(١) هذه النقط ومثلها فى الرواية هى من المؤلف.(المترجم).

(٢) يقصد هذا الباب الثانى من رواية (المترجم).

(٣) فرانز كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤م) أديب نمساوى، من أنصار المدرسة التعبيرية أشد تأثيرًا كبيرًا فى الوجودية.

٣

Y(*)

أو مُضارع التجسيد

لن أتوصل إليه أبداً

(*) حرف الـ [Y] فى اللغة الفرنسية يُستخدم كضمير شخصى يحل محل مفعول غير مباشر يعبر عن المكان أو عن أشياء غير محسوسة مسبوقة بأحد حروف الجر.(المترجم).

ـ ١ ـ

ـ سأصل إليه أبدًا (١) يا سيدى.

ـ أنتَ تقول؟

ـ سأصل إليه أبداً!

ـ أين تريد أن تذهب؟

ـ لا مكان..أريد أن أذهب إلى لا مكان!

ـ إذًا لماذا تخاف من عدم الوصول إليه؟

ـ ليس هذا ما أريد أن أقوله!.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أننى لن أصل إليه أبداً.هذا هو كل شىء!.

ـ اكتبْ لنا هذا على السبورة: لن أصل إليه أبدًا.

Je ni ariverai jamais.

ـ لقد أخطأتَ فى [n'y] (٢) .. إنه وصْلٌ سلبى..(٣)سأشرحه لك فيما بعد.صَحِّحْ.[n'y] تُكتبُ هنا هكذا: n'y

(١) يقصد المتحدث هنا أن يقول لن أصل إليه أبداً.لكن نظراً لطبيعة اللغة الفرنسية التى يختلف ما يُكتب عما ينطق فى كثير من الأحيان فقد فهمها المستمع هكذا.(المترجم).

(٢) الـ n تشير إلى النفى (لا) فيما يشير (y) إلى مكان ما أو شىء ما حُذف.(المترجم).

(٣) يحدثَ أن ننطق كلمتين أولاهما تنتهى وثانيتهما تبدأ بحرف متحرك على أنهما كلمة واحدة، وهذا ما يقصد به الوصل وهو لا يجوز فى بعض الحالات لذا يسمى وصل سلبى.(المترجم).

كما أن [arriver] (١) يأخذ حرفين(R) (٢)

Je n’ y arriverai jamais.

ـ حسناً. ما هذا الـ [Y] وفق ما ترى؟

ـ لا أعرف(٣)

ماذا يريد أن يقول؟

ـ لا أعرف.

ـ إذًا.. حتماً لابد من أن نقع على ما يريد أن يقوله.

لأن هذا ما يُخيفك. هذا الـ [Y]

ـ لستُ خائفًا.

ـ لستَ خائفًا؟

ـ لا.

ـ ألستَ خائفاً من عدم التوصل إليه؟

ـ لا.. إننى أهتز منه.

ـ معذرة!

ـ سيّان عندى. ماذا.. أنا أسخر منه!

ـ أتسخر من عدم التوصل إليه؟

ـ أسخر منه وهذا هو كل شىء.

ـ وهذا.. ما تستطيع أن تكتبه على السبورة؟

ـ ماذا.. أنا أسخر منه؟

---

(١) يصل أو يتوصل إلى.(المترجم).

(٢) معنى هذه الجملة: لن أتوصل أو أصل إليه أبدًا.(المترجم).

(٣) نطق المتحدث هنا هذه الجملة دون حرف النفي لا في اللغة الفرنسية.(المترجم).

- نعم.

Je mens moque.

هنا أنت كتبت تصريف فعل (يكذب/mens) m'en مع الضمير الشخصى الأول: أنا فى زمن المضارع.

Je m' en moque.

- حسناً. وهذا الـ[en]ما هو هذا الـ [en](*) بالتحديد؟

- ...

- ما هذا الـ [en]

- لا أعرف..أنا. هذا هو كل شىء!.

- كل هذا ماذا؟

- كل ما يجعلنى أنتفخ!.

(*) الـ [en] فى اللغة الفرنسية يُستخدم كضمير شخصى يحل محل مفعول تسبقه إما اداة نكرة أو أداة تجزئة أو عدد أو كلمة تعبر عن كمية كما يستخدم كحرف جر بمعنى إلى أو فى.(المترجم).

ـ٢ـ

منذ اللحظات الأولى لحصص ذاك العام الدراسى ونحن ـ أنا وتلاميذى ـ نُهَاجَمُ بـ: هذا الـ[y] بهذا الـ[En] بهذا الـ [Tout] بهذا الـ [Ca/] هذا

إنه بواسطتها كنا قد شرعنا فى الهجوم على حِصْنٍ نحوىٍّ. إن كنا نريد أن نستقر بمتانة فى صيغة المضارع الدلالية لحصتنا.. فكان يجب أن نثأر من الرُسل الغامضة لقبض الروح.أسبقية مطلقة!.

لقد سعينا إذاً لإيجاد الضمائر الضبابية هذه الكلمات المُلَغَزة كانت تعرض نفسها كعدد من الدمامل التى تحتاج إلى تفريغها.

[Y].. أولا بدأنا بهذا الـ [Y] الشهير الذى لم نتوصل إلى فهمه أبداً. نعرج على تسميته بضمير ظرفىّ والتى تَرنُّ كشىء غريب فى أُذن التلميذ الذى يستمع إليها للمرة الأولى.. فلنفتح بطنه.. لنستأصل منه كل المعانى الممكنة.. ونُلصق به علامته النحوية مستخدمينه بعد أن نعيد أمعاءه المُفهرسة إلى مكانها كما ينبغى.

يمنحه النحويون قيمة ملتبسة فلنحدد بدقة إذًا.. فلنحدد بدقة!.

بالنظر إلى ذلك.. تلك السنة بالنسبة للصبى الذى يصيح ويلقى بكلمات ضخمة كمن يدحرج آلين. كان الـ [Y] ذكرى تمرين رياضيات مُحرِّقة.. كان يُقبل عليه ليكسر الأسنان. كان التمرين يفلت من أزمة: قلم مُلقى.. كراس مُنهكة (على أى حال.. لم أفهم منه شيئاً.. أرتج منه.. هذا ما يجعلنى أنتفخ.. إلخ.)

تلميذ كريه مطرود من الفصل.. ستقرصه أزمة جديدة فى اللحظات المُقبلة.. فى بيتى.. فى اللغة الفرنسية.. حيث كان يصطدم بصعوبة أخرى.. نحوية هذه المرة لكنها كانت تعيده إلى الذكرى السابقة...

ـ سأصل إليه أبداً.. أقول لك. ليست المَدرسة مُهيأةً لى يا سيدى!.

(جدل محلى أيها الرجل الصغير. وقريباً سيصبح جدلاً قرنياً(*). معرفة إنْ كانت المدرسة مُهيأة لك أو أنت مهيأ للمدرسة.. لن تتصور كم نُجرح فى هذا الصدد فى سماء التهذيب.)

ـ منذ ثلاث سنوات.. هل كنتَ تعتقد أنك ستصبح فى الصف الرابع؟

ـ ليس حقيقةً.. كلا من جهة أخرى كانوا يريدوننى أن أُعيد سنتى فى .[CM2]

ـ إذاً.. رغم كل هذا أصبحت فى الصف الرابع وصلت إليه. (فى القِدَم.. ربما.. فى شأن لا

(*) نسبة إلى القرْن (المترجم).

قيمة له أمنحه إياك نوعاً ما طوعاً. يتطلع إليك هذا. يُناقش هذا لدى السلطات العليا. لكنك وصلت إليه على الرغم من هذا.

الحقيقة هناك.. ونحن جميعاً معك هناك. والآن وها نحن فيها. سنقضى العام فيها.. سنعمل فيها.. سنستفيد منها من أجل حل بعض المشكلات.. فلنبدأ بالأكثر إلحاحاً من الجميع: هذا الخوف من عدم الوصول إليه. هذا الإغراء بالسخرية منه. هذا الهَوَسُ بإقحام (كل) فى (كل) نفسها.

ثمة آلاف مؤلَّفة فى هذه المدينة.. يخافون من عدم الوصول إليه.. يعتقدون أنهم يسخرون منه.. لكنهم لا يسخرون منه إطلاقاً.. إنهم يدَّعون.. يكتئبون.. يحيدون..

يحتجون. يصطدمون.. يلهون بشدة.. لكن إن كان ثمة شىء لا يسخرون منه. فإنه من هذا الـ [y] ومن هذا الـ [en] اللذيْن يفسدان عليهما حياتهم. ومن هذا الـ [tout] الذى يجعلهم ينتفخون.)

- لا يصلح هذا لشىء. على أى حال!.

- موافق. سننشغل بهذا الـ [aÇ] وأيضاً بهذا الـ [rien] (١)

وبفعل [servir] (٢) بقدر ما نكون فيه. لأنه يضربنى على أعصابى. فعل [servir]!

(١) تعنى لا شىء. (المترجم).

(٢) هذا الفعل يعنى فى اللغة الفرنسية يخدم/يصلح لى. (المترجم).

لا يصلح هذا لشىء.هذا لا يصلح لشىء.وفى فمك..الآن لأى شىء يصلح فعل[servir]

إنه وقت توجيه السؤال إليه فى تلك السنة..إذًا فتحنا بطن هذا الـ[y] هذا الـ [en] الـ..[aÇ] (*)

هذا الـ [tout]

هذا الـ [rien]

فى كل مرة كانت هذه الكلمات تفاجؤنا فى الفصل كنا نسافر بحثاً عما خبأ عنا هذه الكلمات المُحبِطة نفسيًا جدًا.

فرَّغنا هذه القِرَب المدودة للغاية ممن يثقلون زورق التلميذ حتى الهلاك الأبدى.. فرغناهم كمن ينزح من سفينة ماءً يوشك على الانسياب.. وفحصنا عن قُرْبٍ محتوى ما ألقيناه من أعلى حافةٍ:

[y] تمرين الرياضيات هذا أولاً..الذى سبَّب نزاعاً.

[y] تمرين النحو..لا يزال يجعلنى أنتفخ أكثر من الرياضيات.يا سيدى!).

وهَلُمَّ جراً.. [y] اللغة الإنجليزية التى لم يتمكن منها..[y] التكنولوچيا التى كانت تجعله ينتفخ كالباقين (عشر سنين فيما بعد كانت قد سيطرت على رأسه وعشر سنين فيما بعد أيضاً سَمَّنته)..[y]النتائج التى كان ينتظرها كل البالغين دون جدوى منه.باختصار..[y] كل ما رآه طوال فترة دراسته من حيث ظهور [en] ظهور يزدريه (يسخر منه..

(*) تعنى هذا (المترجم).

يتضارب معه.. يهتز منه.. قصة اختبار مقاومة آذان المعلمين. أيضاً قرابة عشرين سنة وتتقاتل الخصىّ قادمة لتتضم إلى القائمة).

[En] محضر يومى لرسوبه..

[En] الرأى الذى كوّنه البالغون عنه..

[En] إحساس الخزىّ هذا الذى يُفضّل أن يُبدّله إلى كُرْه المدرسين وإلى إزدراء التلاميذ جيدى المستوى...

من حيث رفضه البحث عن فَهْم[Ça] الضخمة التى لا تصلح لـ..[rien] هذه الرغبة الدائمة فى أن يغفل.فى أن يفعل شيئاً آخر.أياً ما كان وأينما كان تشريحهم المتمرد لهذا الـ[y] رفع لهؤلاء التلاميذ الصورة التى رسموها لأنفسهم بأنفسهم: ما من أحد يضل داخل عالم عبثىّ.. كانوا يفضلون أن يسخروا منه.. بما أنهم لم يروا فى الأفق بصيصاً من مستقبل.

- ولا حتى فى الحلم يا سيدى!.

لا مستقبل.

[y] أو المستقبل الذى لا يمكن بلوغه.ليس فقط فى عدم مواجهته لكن كذلك فى عدم الاستقرار فى الحاضر. جالسون فوق مقاعدنا لكن فى مكان آخر.. سجناء حدود دائرة النواح. وقت لا يمر.. نوع من الخلود.. إحساس بألم معنوى يجعلنا نُسدّده إلى أى إنسان وبسعر باهظ جداً.

من حيث تحليلى كمدرس:استخدام التحليل النحوىّ من أجل أن أبعثهم هنا الآن حتى أجرب فيه لذة الفهم الخاصة جداً..إلام يصلح ضمير ظرفىّ..

كلمة أساسية تستخدم مائة مرة يومياً دون أن نفكر فيها.

إنها غير مفيدة تماماً.. أمام هذا التلميذ الغاضب.. من ضلاله فى تَمحّك أخلاقى أو نفسىّ.. فالوقت ليس للجدل ..إنما للإلحاح ذات مرة [y] و [en] مُفرّغان ونقيان.. إننا وسمناهما كما ينبغى. ضميران ظرفيان عمليان بقوة كى تُعقّد الأمور فى محادثة عسيرة.

لقد قارناهما بكهوف اللغة. هاذين الضميرين.. بمخازن الغلال التى لا يمكن بلوغها.. بحقيبة لن تفتح أبدًا.. بلفافة نُسيتْ داخل مستودع فُقِدَ مفتاحه.

ـ مخبأ يا سيدى. مخبأ مقدس!.

ليس جيداً جداً والأمر هكذا.

نعتقد أننا سنختبئ فيه فإذا به يهضمنا.
[y] و[en] يبتلعاننا ونحن لم نعد نعرف من نكون.

- ٣ -

أمراض النحو تُعالَج بالنحو.. الأخطاء الإملائية بالتمرين على الإملاء.. الخوف من القراءة بالقراءة.. الخوف من عدم الفهم بالانغماس فى النَّصِّ.. والتعود على عدم التفكير بالتدعيم الهادئ لعقل محصور بدقة فى الموضوع الذى يشغلنا.. هنا.. الآن.. داخل هذا الفصل.. أثناء وقت الدرس.. بقدر ما نكون فيه.

لقد ورثتُ هذا اليقين من فترة دراستى الخاصة بى. ثمة من كان يوبخنى عليه كثيراً.. ثمة من كان يحاول غالباً أن ينصحنى وبرفق لأن الأمم لا تنقص لدى المدرسين.

يوم أن أرسل لى مدير المَدرسة على سبيل المثال سطوى الأسرىّ. كان هذا نُوتيًا.. قائد مركب قديم.. جرّب صبر المحيطات.. رب أسرة وزوج لطيف لامرأة كان يُقال عنها إنها مصابة بداء غامض.

رجل قوى ينشغل بأقاريه وبإدارة هذه المدرسة الداخلية التى لم يكن ينقصها حالات من نوعيّتى. كم كان لديه من ساعات مُنهكة رغم ذلك كى يُقنعنى أننى ما كنتُ الأحمق الذى كنتْ أدّعيه.. أن أحلام منفاىَ

الإفريقي كانت محاولات للهرب.. وأنه كان يكفي أن أباشر العمل بجديةٍ كي أُزيل العراقيل التي كان نواحي يضغط بها على كفاءتي!.

لقد وجدته طيباً جداً إذ يهتم بي.. وهو الذي كان لديه تلال من الهموم.. تعهدتُ أنا بتصحيح أخطائي.. نعم.. نعم.. في التوٍّفقط.. بمجرد أن وجدتني في درس الرياضيات..أو في درس المساء منكباً على درس العلوم الطبيعية.. لم يعد يبقى شيء من الثقة التي لا تقهر التي كنتُ قد حجبتها في حديثي معه.

ما لم نتحدث عنه هو الجبر.. سيدي المدير وأنا.. ولا عن التمثيل الضوئيّ [1].. بل عن قوة الإرادة.. بل عن التركيز..

إنه أنا من كنا نتحدث عنه.. أنا سريع التأثر كليًا بالتحسن. كان مقتنعاً بي.. لو شرعتُ في العمل بشكل حقيقي!.

وهذا الأنا.. المنتفخ بأمل مباغتٍ.. أقسمَ على أن يُثابر.. على ألا يعود لرواية الحكاياتٍ.. واهاً.. عشر دقائق فيما بعد.. مواجِهاً جبرية لغة الرياضيات فرغ ككرةٍ.. هذا أنا.. وفي درس المساء لم يعدْ سوى عزوفٍ أمام الطعم ذي الطلاسم للنباتات بالنسبة إلى الغاز الكربوني عن طريق الكلوروفيل[2] الغريبة.

عدْتُ مرة أخرى الغبيَّ المألوفَ الذي لم يكن يفهم شيئاً أبداً لسبب أنه ما فهم شيئاً قط.

---

(١) إحدى العمليات الحيوية التي يقوم بها النبات. (المترجم).

(٢) مادة خضراء يحتوي عليها النبات. (المترجم).

من هذه الحادثة المزعجة التى تكررتْ أكثر من مرة.. ظل يقينى أنه يجب التحدث مع التلاميذ بلغة المادة الوحيدة التى كنتُ أُدرِّسُها لهم.

خوف من النحو؟ فلنمارس النحو. ما من شهية تجاه الأدب؟ فلنقرأ.

لأنّ.. أيضاً الأغرب من هذا يمكن أن يظهركم يا تلاميذنا .. أنتم معجونون بمواد درَّسْناها لكم. أنتم المادة بل كل موادنا تعساء فى المدرسة؟ ربما ضاجون من الحياة؟ بالتأكيد..أجل.

لكن فى نظرى مُكَوَّنين من الكلمات.. جميعاً مثلما أنكم منسوجون من النحو.. مكتظون بالعروض التعليمية حتى الأكثر صمتاً منها أو الأقل تسلحاً بالمعاجم الوجيزة.

مسكونون بتقديم أنفسكم للعالم.. مفعمون بالأدب..إجمالاً.

أرجوكم واحدًا واحدًا أن تصدقونى.

- ٤ -

ما أشد ما يتمتع به زهو التدخلات النفسية بذوى النيات الأفضل. فصل الصف الأول. چوسلين غارقة فى دموعها.. لم يمكن للدرس أن يبدأ. ليس هناك شىء أكثر حجزًا من الحزن لعمل ستار على العِلْم.الضحك.. يمكن أن نطفئه بنظرة عين.. لكن الدموع...

- ألدى أحدكم قصة مضحكة يحفظها؟

لابد من أن نُضحك چوسلين كى نتمكن من بدء الدرس. نقّبوا فى أدمغتكم. قصة مضحكة جداً. ميزانية.. ثلاث دقائق.. لا أكثر.. إذ ينتظرنا مونتسكيو.

فجأة تتدفق القصة المضحكة. فى الواقع مضحكة.

يمزح الجميع بما فيهم چوسلين التى أدعوها لتأتى إلىّ فى الفسحة.. إن كانت فى حاجة لهذا.

- من الآن فصاعداً.. لن تنشغلى سوى بمونتسكيو. مسلٍ تعرض چوسلين تعاستها. لم يعد والداها يتفاهمان. يتشاجران من بدء الصباح حتى

المساء. يتلفظان بألفاظ نابية تحولت الحياة فى المنزل إلى جحيم..الموقف مؤثر.

حسناً.. قلتها لنفسى.. أيضاً عداً من الأساس كرَّسا عشرين عاماً ليُغْمى عليهما وهما فى حالة تجانس.. ثمة طلاق يَعنُّ فى الأفق جوسلين.. التى كانت من التلاميذ الفائقين.. تدهور مستواها فى كل المواد الدراسية. وهأنا أسير متعرجًا داخل حزنها. من الأفضل..أقولها بحذر.. ربما الطلاق.تعرفين يا وسلين.. أخيراً.

مُطلّقان هادئان يمكن أن تحتمليهما عن زوجين عنيدين فى طريقهما إلى الانتحار.

إلخ.

من جديد تزرف جوسلين الدموع بغزارة:

بالضبط يا سيدى.. كانا قد قررا أن يُطلّقا لكنهما عدلا مؤخراً عن هذا القرار!.

آه!

حسنًا.

حسنًا.. حسنًا.. حسنًا.

جيد.

دائماً ما يكون هذا أكثر تعقيدًا درجة ألا يصدقه عالم نفس مبتدئ.

- ...

- ...

- أتعرفين ميزى فارانج؟

- كلا. من هى؟

- إنها ابنة فارانج من زوجته التى نسيت اسمها. مُطلَّقان شهيران فى عصرها. كانت ميزى صغيرة وقت انفصال أبويها.. لكنها لم تُفوِّت شيئاً منهما.

عليكِ أن تمارسى معرفتكِ. إنها رواية. لأمريكىّ هنرى چيمس. ما كانت تعرفه ميزى. ومع ذلك فهى رواية معقدة.. التى قرأتها چوسلين خلال الأسابيع التالية.. مُثارةً حتى بأرض المعركة الزوجية (إنهما يتأرجحان بين الحجج نفسها كأبوىّ ميزى(*). يا سيدى!).

إيه.. أجل. كى تكون داميةً بدم حقيقى.. حرب الأزواج وحزن الأطفال ليسا أقل أدبيًا منها.

يقال هذا.. حين يهب مونتسكيو حضوره لفصلنا.. لا بد أن نكون حاضرين فى مونتسكيو.

(*) اسم الرواية التى كتبها الروائى الأمريكى هنرى چيمس. (المترجم).

ـ ٥ ـ

حضورهم فى الفصل... ليس مُريحاً بالنسبة إلى هؤلاء الفتيان أو هؤلاء الفتيات أن يُزوَّدوا بخمس وخمسين دقيقة من التركيز فى خمسة أو ستة دروس متتالية.. حسب هذا العمل الأكثر فردية من أن تجعل المدرسة منه وقتاً. يا له من عمل صعب.. عمل الوقت!.

توزيع الفصول.. المواد الدراسية.. الساعات.. التلاميذ.. تبعاً لرقم القاعات.. لتكوين أنصاف مجموعات.. لرقم المواد الدراسية النظرية.. لشغور المعامل.. للمطالب المتعارضة لمدرسٍ هذا أو مُدرسٍ ذاك...

صحيح أنه اليوم أُنقذتْ رأس المدير بجهاز الكمبيوتر الذى يعهد إليه بثوابته:

(معذرةً.. بشأن ظهيرة الأربعاء.. سيدتى مدام أونتل.. إنه الكمبيوتر).

ـ خمس وخمسون دقيقة للغة الفرنسية.. أكنتُ أشرح لتلاميذى إنه وقت قصير ببدايته ووسطه ونهايته.. حياة كاملة فى مجملها.

قضية دائمة.. ليتهم يتمكنون من أن يجيبوا عليّ.حياة الأدب التى تفتح على حياة الرياضيات.. التى تفتح بدورها على عالم ملىء بالتاريخ.. تدفعكم دونما سبب إلى حياة أخرى.. إنجليزية تلك أو ألمانية أو كيميائية أو موسيقية.

هذا ما يصنع منهم نسخاً عديدة فى نهار وحيد! ودون أدنى منطق!.

إنها أليس فى بلاد العجائب.. وظيفة الوقت الخاصة بكم: نحتسى الشاى عند أرنب مارس البرى ونلتقى دون تمهيد لنلعب الكروكى (١) مع ملكة الفؤاد.

يمر نهار مع (المهزوز) للويس كارول..المعجز على الأقل.وأنتم تتحدثون عن رياضة بدنية!.

وهذا ما يُعطى مسالك لابد منها فضلاً عن ذلك.. اختلال مطلق منحوت كحديقة على الطراز الفرنسى.. أيكة خمس وخمسين دقيقة بواسطة أيكة خمس وخمسين دقيقة. لا يوجد نادراً إلا نهار محلل نفسى وسلامى الخنازيرىّ (٢) كى يُقطع إلى شرائح متساوية. وهذا .فى كل أسابيع العام!.

المصادفة بلا المفاجأة.شىء يتجاوز الحد!.

سيكون مغرياً أن أجيبهم:كفوا عن الاحتجاج.. يا أعزائى التلاميذ واتخذوا أماكنكم.. مقارنتكم بالمحلل النفسى ليست سيئة من جهة أخرى. يقضى كل الأيام

---

(١) لعبة بالكرات الخشبية. (المترجم).

(٢) وعاء من السجق. (المترجم).

داخل غرفته المنعزلة.. المسكين ليرى تتابع تعاسة الناس. ونحن فى فصولنا لنرى تجاهله.. عبر مجموعات من خمسة وثلاثين وفى وقت محدد. حياتنا كاملة.. التى - إدراك حسى لوغاريتمى أو لا - أكثر طولاً من مرحلة شبابكم المختصرة.. سترون.. سترون...

لكن كلا.. لا أطلب من تلميذ أبداً أن يضع نفسه مكان المدرس.. إغراء الاستهزاء قوى جداً. ولا أعرض عليه أن يقيس وقته بوقتنا: وقتنا ليس حقيقة وقته.. نحن لا نتطور فى الوقت نفسه. أما من جهة التحدث معه عنا أو عنه هو.. فلا نقاش: خارج الموضوع نحن نتشبث بما قررناه: ساعة النحو هذه لابد وأن تكون فُقاعة فى الوقت. يرتكز عملى على الأسلوب بحيث أنَّ تلاميذى يشعرون بأنهم يعيشون نحويًا أثناء هذه الخمس وخمسين دقيقة. كى نُوفق فى هذا.. لا يغرب عن بالنا أن الأوقات لا تتشابه: أوقات الصباح ليست هى أوقات بعد الظهر.. أوقات الاستيقاظ.. الأوقات الهاضمة.. تلك التى تسبق أوقات الفُسَح.. الأوقات التى تتلوها.. كلها مختلفة والوقت الذى يتلو درس الرياضيات لا يقدم نفسه كالوقت الذى يأتى عقب درس الرياضة البدنية...

هذه الاختلافات نادراً ما يكون لها تأثير على التلاميذ جيدى المستوى. هؤلاء أنفسهم يتمتعون بكفاءة محمودة: يُغيِّرون الجلد بدراية.. فى اللحظة المناسبة وفى المكان المناسب. يَعْبرون من المراهقة

المضطربة إلى التلميذ المُصغى.. من المُغْرَم المطرود إلى طالب الرياضيات المنطوى.. من محب اللعب إلى تلميذ مجتهد.. من هناك إلى هنا.. من الماضى إلى الحاضر. من الرياضيات إلى الأدب...

هذه هى سرعتهم فى التَّجَسُّدِ التى تُميز التلاميذ جيدى المستوى عن ذوى المشكلات.

هؤلاء الذين كأقاربهم يلومون مدرسيهم.. هم غالباً فى مكان آخر. يتحررون بصعوبة بالغة من الوقت السابق.. يتسكعون فى ذكرى أو ينفذون فى تمنى أى شىء آخر. مقعدهم هو الوسيلة التى تقوم بشحنهم إلى خارج الفصل حيث يستقرون هناك.. إلا إذا ناموا فيه.

إن أريد أن أنتظر حضورهم الذهنى التام فعلىّ أن أساعدهم فى الاستقرار فى الدرس. تُرى ما هى وسيلة الوصول إلى هذا؟

هذا ما يُعرف خصوصاً على أرض الميدان على مر الأيام. يقينى الوحيد.. أن حضور تلاميذى يخضع بدقة لحضورى:

لحضورى فى الفصل كاملاً وفى كل فرد على حِدةٍ.. لحضورى فى مادتى أيضاً.. لحضورى الجسمانى.. الفكرى والذهنى.. أثناء الخمس وخمسين دقيقة التى يستغرقها درسى.

- ٦ -

يا لها مِن ذكرى مُضنية.. ذكرى دروسى التى لم أكن موجوداً فيها!.

كأنى أشعر أننى أجعل تلاميذى يَعومون.. فى تلك الأيام.. بهدوءٍ أنحرف بينما كنتُ أحاول أن أستجمع قوايَ مرةً أخرى. هذا الإحساس بفقدان فصلى.. لستُ فى الفصل .. ولم يعودوا هم فيه.. انفصلنا ومع ذلك يمر الوقت. ألعب دور مَن يقوم بالتدريس وهم يؤدون دور مَن يُصغى. جاد جداً مظهرنا العام.. ثرثرة من جانب وأسلوب ردىء من جانب آخر.. مُفتش ربما قد يُعجب بهم شريطة أن يكون الدكانُ مفتوحاً.. لكنى لستُ داخله.. أنا لستُ هناك فيه.. اليوم أنا فى مكان آخر. ما قلته لا يتجسد.. هم يسخرون بولع مما يسمعون. ما من أسئلة وما من إجابات. أنعطف وراء الدرس الجدير بأستاذ. الطاقة المُفرطة التى أبدها آنئذ من أجل أن أجعلنى أمسك بشبكة المعرفة المثيرة للسخرية هذه!.

أنا بعيد جداً عن ڤولتير (١).. عن روسو(٢).. عن ديديرو(٣).. عن هذا الفصل.. عن هذه المدرسة.. عن هذا الموقف.. أتعب فى تقليص المسافة لكن ما من وسيلة. كذلك أنا أبعد عن مادتى الدراسية من فصلى.

أنا لستُ مدرساً.. أنا حارس المتحف.. أقود زيارة إجبارية بشكل آلىّ.

كانت هذه الأوقات المُحبِطة لا تفارقنى وأنا مرتخ على ركبتىّ. كنت أخرج من فصلى مُنهكاً وحانقاً. كان تلاميذى على وشَك أن يروحوا ضحية اندفاع طوال النهار.. لأنه لا يوجد أسرع توبيخاً لكم إلا مدرس مُستاء من نفسه هو شخصياً.

انتبهوا أيها الصغار.. لامسوا الجدران.. مُدرسكم أعطى نفسه درجة سيئة.. المسئول الأول قادم ليقيم العقبات!.

---

(١) ڤولتير.. فرانسو مارى أرويه (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م) المعروف بـ «ڤولتير» كاتب فرنسى عاش فى عصر التنوير، وهو فيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، كتب فى كل الأشكال الأدبية وهو من رواد عصر التنوير الذين كانت لهم بصمات على مفكرى وثوار الثورة الأمريكية والفرنسية.

(٢) روسو.. چان چاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) فيلسوف سويسرى، أهم كاتب فى عصر العقل وهو فترة من التاريخ الأوروبى، امتدت منذ أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين، ساعدت فلسفة روسو فى تشكيل الأحداث السياسية والتى أدت إلى قيام الثورة الفرنسية وأثرت أعماله فى التعليم والأدب والسياسة.

(٣) ديديرو: دنيس ديديرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤م) فيلسوف وكاتب فرنسى برز بإشرافه على إصدار «موسوعة الفنون والعلوم والحرف» وتحرير العديد من فصوله، من قادة التنوير، وكان رئيس أول موسوعة حديثة «إنسكلوبيديا».

دون أن أتحدث عن أخطاء موضوعاتكم.. هذا المساء فى المنزل. مجال لا يكون فيه التعب والإحساس بالخطأ ناصحيْن!.

لكن كلا.. ما من موضوعات هذا المساء.. ما من تليفزيون .. ما من خروج.. بل هناك نوم!.

ميزة المُدرس الأولى.. هى النوم. المدرس الجيد هو الذى يذهب إلى فراشه مبكراً.

-٧-

ما يُمكن أن يُدرك فى التو.. هو حضور المدرس الذى يستوطن فصله تماماً.. الحضور الذى يحسه التلاميذ منذ اللحظة الأولى فى العام الدراسى.. نتدرب عليه جميعاً: لتوِّه دخل المدرس.. هو حتماً هناك.. تَجلَّى هذا فى طريقته فى النظر إلى تلاميذه وتحيته لهم.. فى طريقة جلوسه.. فى إقامته فى المكتب. لم يتبدد بالخوف من فُسَحِهمْ.. لم ينطوِ على نفسه.. كلا. هو فى شأنه.. من البداية.. حاضرٌ.. يتبين كل الوجوه.. يبقى الفصل أمام عينيه فوراً.

هذا الحضور.. جربّته مرة أخرى.. يوجد قليلاً.. فى بلانك - مِسْنىّ حيثما دعتنى شابة زميلة كانت قد غمست تلاميذها فى واحدة من رواياتى. يا له من صباحٍ ذاك الذى قضيتُه هناك!.

مُمْطَراً بوابلٍ من أسئلة القراء، الذين كان يبدو أنهم يعرفون مُحتوى كتابى أفضل منى.. صداقة الشخصيات الحميمة.. الذين تحمسوا لعدد من الفقرات وسخروا بتعليق عاداتى فى الكتابة بدبوس. كنتُ آمل فى أن أجيب بحكمة على عدد من أسئلتهم

المكتوية تحت إشراف عين مدرس غائرة بخفة ومهمومة بأمر الفصل الوحيد.. مثل هذا ما كان يصلنى فى أحايين كثيرة بحيث إننى كنتُ أحتل دوامةَ مناظرةٍ أدبية حيث كان التلاميذ يوجهون بقوة لى قليلاً من الأسئلة التى أُتّفق عليها. حين كان الحماس يرفع أصواتهم إلى مستوى أعلى من الديسيبل(*) المحتمل كانت تسألنى بنفسها.. مجموعتان لا شأن لهما أما الفصل بكامله فيصطف فى هذا الصف اللحْنىّ.

فيما بعد.. داخل المقهى الذى نتناول فيه طعام الغداء سألتها كيف تُخْضع لها هذا القدْر من الطاقة الحيوية.

راوغت بدايةً:

ـ لا أتحدث قط بصوت أعلى منهم.. إنها المهارة.

لكنى أردتُ أن أزداد معرفةً عن سيطرتها التى تمارسها على هؤلاء التلاميذ.. عن سعادتهم الواضحة بكونهم هناك .. عن التلاؤم بين أسئلتهم.. عن رزانة إنصاتهم.. عن تدقيق حميّتهم.. عن سلطانهم على أنفسهم حين لا يتفقون فيما بينهم.. عن قدرة وبشاشة الجميع.. باختصار كل ما كان يختلف كثيراً مع التصور المرعب الذى كانت تبثه وسائل الإعلام عن هذه الفصول الغارقة فى الرسوب.

جمعتْ معظم أسئلتى.. فكرتْ قليلاً. وأجابت:

(*) وحدة قياس شدة الصوت. (المترجم).

ـ حين أكون معهم أو أكون فى موضوعاتهم لا أكون فى بقعة أخرى على الإطلاق. بقعتها الأخرى بالنظر إلى ذلك هى عزفٌ رباعى على أوتار تتطلب شدتها المطلق الذى تحتاج إليه الموسيقى. ومع ذلك.. كانت ترى أُلْفةً بين فصل وبين أوركسترا.

- كل تلميذ يعزف على آلته.. لا حاجة للذهاب إلى النقيض. اللذيذ هو معرفة موسيقيّينا معرفة جيدة وإيجاد الانسجام . فصل جيد.. ليس هذا هو الفيلق الذى يمشى الهوينى.. إنها أوركسترا تعزف السيمفونية نفسها ولو كنتم تلقيتم مثلثاً صغيراً لا يعزف إلا عزْف تنج تنج. أو قيثارة رديئة لا تُصدر سوى بلونج بلونج..المهم أن يعزفوا هذا فى اللحظة المناسبة.. أن ينتجوا أفضل ما يتاح.. أن يصبحوا مثلثاً(١) ممتازاً.. قيثارة لا عيب فيها..أن يكونوا فخورين بالميزة التى تضفيها مشاركتهم على الجميع. كما يجعلهم التناغم يتحسنون جميعاً.. ينتهى الحال بالمثلث الصغير أيضاً بمعرفة الموسيقى.. ربما ليس بتفوق مثل الكمان لكنه سيُلمّ بالموسيقى نفسها.

اشمأزتْ اشمئزازاً جبريًا:

ـ المعضلة.هى أننا نريد أن نجعلهم يعتقدون فى عالم حيث يُحْصون بمفردهم آلات الكمان الأولى.

ـ بعض الرفاق سيعتبرون أنفسهم مَن يقاوم بشكل سيئ قيادة جوقة موسيقية بلدية(٢).

---

(١) آلة من آلات النقر الموسيقية.(المترجم).

(٢) نسبة إلى البلديات أو كما نسميها هنا المحليات. (المترجم).

يحلمون جميعاً بموسيقىً برلين.. من الممكن أن نتفاهم على هذا...

ثم.. وبما أننى أعدتُ على مسامعها إعجابى.. وهى تغادرنا ردت:

ـ يجب أن نقول إنك جئتَ وعقارب الساعة تعلن العاشرة . وكانوا لِتوِّهم مستيقظين.

- ٨ -

ثمة نداء صباحى. أن تسمع اسمك منطوقاً بصوت مدرس إذاً هو معاون الاستيقاظ. الصوت الذى ينادى باسمك فى الساعة الثامنة صباحاً يمتلك تموجات معيارة النغم(*).

- أنا لا أستطيع أن أعزم على إهمال النداءات.. بخاصة النداءات الصباحية. يشرح لى مدرس آخر - مدرس رياضيات ذات مرة - .. كأنى فى حالة عجلة. احفظ قائمة الأسماء كأننا نُحصى خرفاناً. ليس هذا ممكناً. أنادى شُجعانى وأنا أنظر إليهم.. أستقبلهم.. أسميهم واحداً واحداً.. أُصغى إلى ردهم على كل حال.. النداء هو اللحظة الوحيدة فى النهار حيث تتاح الفرصة للمدرس فى أن يتوجه إلى كل واحد من تلاميذه. لن يكون هذا سوى النطق باسمه. برهة خاطفة يجب فيها أن يشعر التلميذ بوجوده أمام عينىّ.. بنفسه وليس شخصاً آخر. أما من جهتى.. فأحاول بمقدار ما هو ممكن أن أمسك بمزاجه الحالى فى نبرة الصوت التى تُحدثها كلمة (حاضر).

(*) آلة فولاذية صغيرة على شكل شوكة تعطي نغم (لا) حين تُهز.(المترجم).

فإن كان صوته مشقوقاً فيجب ـ على سبيل الاحتمال ـ أن أقيم له وزناً.

أهمية النداء...

كنا نلعب لعبة صغيرة.. تلاميذى وأنا. كنتُ أناديهم.. فكانوا يردون.. كنتُ أكرر (حاضرَ) هُمَّ همساً لكن على إيقاع النبرة نفسها كصدىً قادم من بعيد:

ـ مانيل؟

ـ حاضر!

ـ (حاضر) لياتيتى؟

ـ (حاضرة)!.

ـ (حاضرة) فيكتور؟

ـ حاضر!.

ـ (حاضر) كارول؟

ـ حاضرة!.

ـ (حاضرة) ريمى؟

كنتُ أُقلِّد (حاضر) مانيل المعتدلة.. (حاضر) لياتيتى النقية.. (حاضر) فيكتور القوية.. (حاضر) كارول الشفافة .. كنتُ صدى صوتهم الصباحى.

بعضهم يدأب على استرداد صوته الأكثر صلادة.. بعضهم الآخر يتسلى بتغيير النبرة كى يدهشنى.. أو كانوا يردون:(نعم).. أو (أنا هنا)..أو (إنه حقًا أنا). كنتُ أردد الرد بكل خفوت أياً ما كان.. دون أن أبدى دهشتى. إنها لحظة تواطؤنا.

التحية الصباحية لفريق ذهب ليباشر العمل. صديقى بيير.. هو نفسه.. يعمل مدرسًا فى إيفرى.. لا ينادى أبدًا.

ـ أخيراً.. مرتان أو ثلاث مرات فى بداية العام.. وقت معرفة أسمائهم ووجوههم. بقدر ما ينتقل فى الحال إلى أشياء جادة.

تلاميذه ينتظرون فى طوابير فى الممشى أمام باب الفصل. فى كل مكان آخر فى المدرسة.. ثمة من يجرون.. من يتقاذفون الشتائم.. من يقلبون المقاعد والطاولات.. من يجتاحون الفناء.. من يُشْبعون الصوت الجهورى.. بيير بنفسه ينتظر الطوابير أن تتكون ثم يفتح الباب.. يشاهد فتياناً وفتيات يدخلون واحداً واحداً يتبادلون من هنا وهناك تحية الصباح التى تصدر منه.. يعيد غلق الباب.. يتوجه إلى مكتبه بخطوات متزنة.التلاميذ ينتظرون.. منتصبين وراء مقاعدهم. يرجوهم أن يجلسوا. ويبدأ: (حسناً. كريم فيما كنا؟)

درسه هناك محادثة تُسترجَع حيثما تتوقف.

فى وقاره الذى يضعه على مهمته.. فى ثقته العطوفة التى حملها له تلاميذه.. فى وفائهم يصبحون بالغين..أرى دائماً صديقى بيير كإعادة تجسيد للعم چول.

ـ الواقع..أنت العم چول مؤلف ڤال ـ دو ـ مارن!

ضحكته الرائعة تدوى فى الفراغ:

معك حق.. رفاقى يعتبروننى مدرس من القرن التاسع عشر!.

يعتقدون أننى أجمع علامات الاحترام الظاهرى.. أن الوضع فى طوابير.. الصبيان واقفون وراء مقاعدهم. هذا نوع من المهارات.. يتعلق بالحنين إلى قديم الأزمان.

لاحظ.. هذا لا يؤلم أحداً قط. قليل من الأدب..(*) لكن والحالة هذه يعنى شيئاً آخر:

وتلاميذى يستقرون فى الصمت أمنحهم الوقت ليهبطوا داخل درسى ليبدءوا بالهدوء.

من جانبى.. أفحص رءوسهم.. أدوّن الغائبين.. ألاحظ المجموعات التى تتكون وتنفك.. باختصار.. أقيس درجة حرارة الفصل الصباحية.

فى اللحظات الأخيرة لفترة الظهيرة يقع تلاميذى تعباً.. بيير وأنا كنا نمارس المراسم نفسها. كنا نطلب منهم الإصغاء إلى المدينة (إيڤرى بالنسبة إليه.. بالنسبة إلىّ باريس). كانت تتبعان ذلك دقيقتان من السكون والسكوت حيثما ضجة الخارج تؤكد هدوء الداخل. فى تلك اللحظات كنا نُدرّس بصوت خفيض.. كنا غالباً ما ننهيها بقراءةٍ ما.

(*) الأدب هنا هو الصفة الأخلاقية وليس سواه.(المترجم).

ـ ٩ ـ

أيُوصَمُ جيلى بحماقات نتيجةً لطقوس تُعتبرِ كعلامة للطاعة العمياء.. التدوين التخمينى المُهين.. الإملاء الرجعية.. الحساب العقلى المُرهِق.. الحفظ الطفولى للنصوص.. هذا نوع من البلاغ الرسمى...

إنه تأثر بعلم التربية.. بل مع ذلك بمجرد أن نكفَّ عن التفكير فى حالات ذات خصوصية (والأمر هكذا.. فى هذا المجال.. كل الحالات ذات خصوصية).. نبحث.. كى نُنظم تصرفاتنا.. عن ظلٍّ لمذهب جيد.. عن رعاية السلطة المُكمِّلة.. عن كفالة المرسوم.. عن التوقيع الإيديولوجى على بياض.

ثم.. نقيم معسكراً على يقين لا يزعزعه شىء.. ولا حتى التكذيب اليومى للواقع. ثلاثون عاماً فيما بعد فقط.. لو أن التربية المحلية بالكامل غيَّرت مسارها كى تتحاشى جبل الكوارث المتراكمة الجليدى.. فإننا سنستند على منعطف داخلى خجول.. لكنه منعطف باخرة بعينه.. وها نحن باتجاه رأس مَذهب جديد تحت إدارة قيادة جديدة باسم حرية الاختيار بطبيعة الحال.. تلاميذ قدماء سرمديون كنا هُم.

-١٠-

رجعيةً هى الإملاء؟ هى مهما حدث عديمة التأثير.. لو كانت تُمارس بواسطة عقل كسول يَرضى بطرح النقاط بقصد رسم مستوى!.

التدوين مُهين؟ بالتأكيد.. حين تُشبه هذه الاحتفالية التى شُوهدتْ منذ قليل فى التليفزيون لُمدرس يرد لتلاميذه كراساتهم.. كل واجب مُهمَلٍ أمام كل مذنبٍ كحُكم مُعلَن.. وجه المدرس يشع جنونًا وتعليقاته تَنْذُرهؤلاء الجيدين فى لا شىء للتجاهل الباتّ والبطالة الأبدية.

يا إلهى.. يا له من صمتٍ حقود.. صمت هذا الفصل!.

يا له من تبادلِ ازدراءٍ جلىّ!.

ـ ١١ ـ

دائـمـاً مـا كـنتُ أتـصـور الإملاء كـمـوعـد تـام مع اللغة.اللغة مثلما تُدوَّى.. مثلما تُكتب.. مثلما تُبنى.. الإدراك مثلما يُوضَّح بتدريب تصحيح دقيق لأبعد حد.. لأنه لم يكن يوجد هدف آخر لتصحيح الإملاء سوى المدخل لإدراك النص الصائب.. إدراك روح النحو.. إدراك مدى الكلمات. لو كان على الدرجة أن تقيس شيئاً ما فإنها المسافة التى تُجتاز بواسطة منتفعٍ على طريق هذا الفهم. هنا كما فى تحليل أدبى..المقصود عبور غرابة النص (أية قصة ستحكيها لى؟).. إلى وضوح المعنى (ماذا يعنى كل هذا بالضبط؟).. ماراً بشغف العمل (كيف يسيرهذا؟). ما أشد رعبى وأنا طفل من الاقتراب من الإملاء ـ الله وحده يعلم أن مُدرّسِىَّ كانوا يمارسون الإملاء كغزو الأثرياء لحى فقيرا ـ كنتُ دائماً أُجرب حبَّ الاطلاع على قراءتها الأولى. كل إملاء تبدأ بلغز: ماذا ستقرأ لى هنا؟

بعض موضوعات إملاء طفولتى كانت أجمل من أن تُواصل ذوبانها داخلى كملبِّس(*) قليل الحموضة.

(*) نوع من الحلوى.(المترجم).

لوقت طويل بعد الدرجة المُشينة التى كلفتنى إياها بعد ذلك. لكن..هذا الصِّفْر فى الإملاء أو هذا أقل من ١٥ أو أقل من ١٢٧!.. لقد صنعتُ من هذا مأوىً لم يستطع أحد أن يطردنى منه. غير مجْدٍ إنهاكى فى تصحيحٍ ما دامت النتيجة معروفة مُقدَّماً لىَ!

كمْ مرة وأنا طفل أُثبتُ لمُدرِّسِىّ ما كان تلاميذى يكررونه لى بدورهم فى أحايين كثيرة:

ـ مهما يكن من شىء سأحصل على صفر فى الإملاء!.

ـ آه حسنًا.. يا نيكولا؟ما الذى جعلك تعتقد هذا؟

ـ كنتُ دائماً ما أحصل على صفر!.

ـ أنا أيضاً يا سيدى!.

ـ وأنتِ أيضاً يا ڤيرونيك؟

ـ وأنا أيضاً أنا أيضاً!

ـ إنه وباءٌ..إذًا!.

ارفعوا أصابعكم يا مَن كنتم تحصلون على صفر دائماً فى الإملاء.

كانت هذه المحادثة فى بداية العام الدراسى.. أثناء تواصلى مع تلاميذ الصف الرابع على سبيل المثال. لقد فُتحتْ المحادثة بمنهجية على الإملاء الأولى من سلسلة طويلة:

موافق.. سنرى جيداً. خذوا ورقة..اكتبوا إملاء.

ـ أوه..لا يا سيييييدى!.

ـ هذا ما لا يُتفاوَض فيه.إملاء.اكتبوا:

يدَّعى نيكولا أنه سيحصل دائماً على صفر فى الإملاء.. يدَّعى نيكولا...

إملاء لم يُحضَّر لها.. كنتُ أرتجلها فى الحال.. صدىً لحظىّ لاعترافهم بعدم الكفاءة:

يدَّعى نيكولا أنه سيحصل على صفر دائماً فى الإملاء لسبب وحيد هو أنه لم يحصل قط على درجة أخرى. فرديريك.. سامى و ڤيرونيك يشاركونه فى الرأى. الصفر الذى يلاحقهم منذ إملائهم الأولى يقبض عليهم ويبتلعهم. مُصْغياً إليهم.. كل منهم يسكن فى صِفْر لن يستطيع الخروج منه. لا يعرفون أن المفتاح لديهم فى جيوبهم.

فيما كنتُ أرتجل النَّصَّ مُوزعاً منه على كل منهم دوراً صغيراً.. على سبيل إنعاش فضولهم.. كنتُ أنتبه لحساباتى النحوية:اسم مفعول مُصرَّف مع فعل (Avoir) (١).

مفعول شىء مباشر (٢) موضوع فى الوراء.. مضارع مفرد مسبوق بضمير مفعول جَمْع وبضمير وصل للفاعل.. اسْما مفعوليْن آخريْن مع فعل (Avoir)

مفعول شىء مباشر موضوع فى الأمام.. مصدر فعل مسبوق بضمير مفعول..إلخ.

---

(١) هناك أزمنة في اللغة الفرنسية تحتاج في تكوينها لفعل مساعد واشهر هذه الأفعال فعلان هما: فعل(Avoir/ يملك) وفعل(être/ يكون). (المترجم).

(٢) هناك مفعولان في اللغة الفرنسية: مفعول مباشر ومفعول غير مباشر وهو الذي يسبقه أحد حروف الجر. (المترجم).

أُنجزتْ الإملاء.. كنا قد شرعنا فى تصحيحها فى التو.

ـ حسناً.. يا نيكولا.. اقرأ علينا الجملة الأولى.

ـ يدَّعى نيكولا أنه سيحصل دائماً على صفر فى الإملاء.

ـ أهذه هى الجملة الأولى؟أهذه نهايتها..أنت متأكد؟

ـ...

ـ اقرأ ـ بانتباه.

ـ آه‌لا.. لسببٍ أنه لم يحصل قطْ على درجة أخرى.

ـ جيد. ما أول فعل مُصرَّف؟

ـ يَدَّعى/.pretend

ـ أجلْ ومصدره؟

Pretendre..

ـ وإلى أى مجموعة(*) ينتمى؟

ـ يا للعجب...

ـ الثالثة. سأشرح لك ذلك بعد قليل وما هو زمنه؟

ـ مضارع.

ـ وفاعله؟

(*) تنقسم الأفعال في اللغة الفرنسية إلى ثلاث مجموعات: أولى.ثانية .ثالثة.. وفقاً لحروفها الأخيرة. (المترجم).

ـ أنا .أخيراً .. يا نيكولا .

ـ الضمير الشخصى؟

ـ الضمير الشخصى الثالث للمفرد [١] .

ـ الضمير الشخصى الثالث لفعل -Preten (dre) فى المضارع.. نعم.

. انتبه للنهايات [٢].

بالنسبة إليكِ يا ڤيرونيك.. ما الفعل الثانى فى هذه الجملة؟

ـ a![٣]

ـ a? فعل(avoir /يملك)؟ أأنتِ متأكدة منه؟

أعيدى القراءة.

ـ...

ـ...

. لا معذرةً. يا سيدى..إنه (a obtenu/[٤] حصل على).

إنه فعل (obtenir [٥] يحصل على)

. فى أى زمن؟

---

(١) الضمائر الشخصية فى اللغة الفرنسية هى (أنا.. أنت.هو/هى.. نحن.. أنتم/أنتن../هن). (المترجم).

(٢) النهايات هنا هى حروف تضاف للفعل بغرض تصريفه حسب فاعله وزمنه . (المترجم).

(٣) تصريف فعل (avoir) فى زمن المضارع مع الضمير الثالث (هو).(المترجم).

(٤) هنا الفعل مصرف فى زمن الماضى المركب.(المترجم).

(٥) لفعل هنا فى حالة المصدر.(المترجم).

تصحيح يسترد الجميع من أصفارهم.. بحيث نؤكد الرحيل من هناك. فى الصف الرابع؟ إيه..أجلْ!

الكل يُسترد من الصفر فى الصف الرابع! حتى فى الصف الثالث لم يكن أبداً الوقت متأخراً للرحيل من الصفر.. مهما نُفكر فى ضرورات النحو!.

ورغم ذلك لن أصدق نقص القواعد المستمر..لن أدس بمنهجيةٍ البطاطا الساخنة للرفيق القادم!.

هيا.. سنرحل ثانيةً من الصفر: كل فعل تمَّ فحصه.. كل اسم.كل صفة.. كل رابط.. خطوة خطوة.. إنها اللغة التى لديهم مُهمةُ إعادةِ بنائها فى كل إملاء.. كلمة كلمة.. مجموعة مجموعة..

رازون (١)..اسم علَم.مفرد مؤنث.

ـ مُحددٌ؟

ـ لا(٢)!

ـ ما هى كمحددٌ؟

ـ علامة!.

ـ ما نوع العلامة؟

ـ علامة تعريف!.

ـ ألكلمة رازون صفة نعتية؟ توضع أمامها؟

أم خلفها(٣)؟ بعيداً ؟ أم قريباً؟

---

(١) Raison.. وهى تعنى عقلا أو سببًا أو حقًا.. (المترجم).

(٢) لا هنا تعنى(la) وهى أداة التعريف الخاصة بالاسم المفرد المؤنث فى اللغة الفرنسية.(المترجم).

(٣) معنى الصفة فى اللغة الفرنسية يتوقف أحياناً على مكانها قبل أو بعد موصوفها.(المترجم).

ـ•أمامها.. نعم: صفة وحيدة. خلفها.. لا صفة. ما من صفة خلفها. تحديداً صفة وحيدة.

ـ أكمل التبعية (*) إن كنتَ قد نسيتَ أن تكتبها.

موضوعات الإملاء اليومية هذه كانت تقدم فى الأسابيع الأولى فى هيئة قصص مُختصَرة حيثما كنا نكتب مذكرات الفصل لم تكن مُعَدَّةً.. من نقطتها النهائية كانت تفتح على تصحيح فورىّ.. مليمترىّ وجماعى.

ثم كان يأتى تصحيح المدرس السرِّى.. تصحيحى أنا.. فى منزلى.. وإعادة الكراسات فى اليوم التالى.. الدرجة.. الدرجة المشهورة.. على سبيل رؤية الهيئة التى يكون عليها نيكولا وهو خارج من صفره للمرة الأولى وجه نيكولا. ڤيرونيك أو سامى يوم أن كانوا يكسرون قشرة البيضة الإملائية.

متحررون من القضاء والقدر! أخيراً! أوه.. تفريغ ظريف!.

من إملاء لإملاء كان تَمَثُّل استدلالات النحو يَعْتِقُ آليات كانت تُعيد عمليات التصحيح سريعةً أكثر فأكثرٍ. كانت بطولات القاموس تقوم بالباقى. كان هذا هو جزء التدريب الأوليمبى. نوع من الفسحة الرياضية. كان هذا يعنى: ساعة توقيت فى اليد للوصول بأقصى سرعة ممكنة للكلمة المراد البحث

(*) التبعية: هى حروف (e/s/es) التى تُضاف إلى اسم المفعول فى زمن الماضى المركب حسب كون الفاعل مفردًا مؤنثًا أو جمعًا مذكرًا أو جمعًا مؤنثًا. (المترجم).

عنها.. لاستخراجها من القاموس.. لتصحيحها.. لغرزها ثانية فى كراسة الفصل الجماعية وفى دفتر صغير فردى.. وللمرور إلى كلمة أخرى.. كانت سلطة القاموس دائماً فى عِداد أولويّاتى وكوّنتُ رياضيين استثنائيين على أرض الملعب رياضيون عمرهم اثنا عشر عاماً كانوا ينّقضّون من أجلكم على الكلمة المراد البحث عنها فى ضربتين أو ثلاث على أقصى تقدير!.

إدراك الصلة بين الترتيب الأبجدى وبين سُمْك القاموس هو ذاك المجال حيثما كان عدد من تلاميذى يهزموننى شرهزيمة! (بقدر ما كنا فيه كنا نطرح أرضًا دراسة أساليب الترتيب فى مكتبات البيع ومكتبات الاطلاع باحثين فيها عن المؤلفين.. عن عناوين وناشرى الروايات التى كنا قد قرأناها فى الفصل أو التى كنتُ أحكيها لهم. لقد كنا نتحدى أنفسنا فيمَن يصل إلى العنوان الذى اختاره أولاً!.

أحياناً كان أمين المكتبة يفتح الكتاب للفائز.)

هكذا كان حال موضوعاتنا فى الإملاء اليومية حتى اليوم الذى أوصيتُ فيه واحداً من تلاميذى القدامى عديمى الكفاءة بالإملاء التالية:

ـ من فضلك يا سامى اكتب لنا إملاء الغد نَصاً من ستة أسطر يحتوى على فعلين ضميريين(*)..اسم مفعول يأخذ الفعل المساعد (avoir) مصدر لفعل من أفعال المجموعة الأولى.. صفة إشارة.. صفة ملكية..

(*) الفعل الضميرى فى اللغة الفرنسية هو الفعل الذى لا يحتاج إلى مفعول إذ إن فاعله هو نفسه مفعوله.(المترجم).

كلمتين صعبتين أو ثلاث رأيناها معًا ومهارةٍ أو مهارتين حسب اختيارك.

ڤيرونيك.. سامى .. نيكولا.. كانوا يدركون النصوص بالتناوب.. ويُلقّنونها لأنفسهم ويقودون تصحيحها. ذاك.. حتى ما يستطيع كل تلميذ فى الفصل عمله بوسائله الخاصة.. يصبح دون أدنى مساعدة فى سكون رأسه.. مُصحّحه الخاص والمنهجىّ.

كانت الإخفاقات - كان هناك منها بكل تأكيد - تنهض فى أغلب الأحيان من سبب خارج - دراسى:عُسر القراءة والفهم.. صَمَمٌ غير مُلاحظ...

تلميذ الصف الثالث هذا - على سبيل المثال - الذى لم تكن أخطاؤه تشبه شيئاً - التحوّل من [i]أو من[é] إلى [a] من [u]إلى [o] والذى يؤكد أنه لا يسمع الذبذبات الحادة. لم تعتقد أمه لثانيةٍ واحدة أن الصبىّ يمكن أن يكون أصم. حينما كانتْ تعود من السوق.. ناسية جزءاً من مهماتها.. حين كان يرد على مقربة منها.. حين كان يبدو أنه لم يسمع ما قالته له.. مُبدياً أنه فى قراءة.. فى مُرّيكة.(*). أو فى ماكيتٍ لمركب شراعى - كانت تنسب إلى صمتها الشرود الذى كان يؤثر فيها. (كنتُ دائماً ما أعتقد أن ابنى كان حالماً كبيراً.) تَخيُّله أصمَّ كان أعلى من قدرتها كأم. (قياس السمع وفحص دقيق جداً للنظر كانا يجب أن يُعتبرا

(*) رسم كرتونى مبعثر الأجزاء على اللاعب أن يعيد تنظيمها المعروف هنا بـ «البازل» (المترجم).

إجباريين قبل دخول كل طفل إلى المدرسة. كانا قد يتحاشيان الأحكام الخاطئة للمدرسين وقد يخفيان عمى الأسرة وقد يحرران التلاميذ من الآلام العقلية التى يتعذر شرحها.)

ذات مرة.. وكل واحد يخرج من صفره.. كانت موضوعات الإملاء قد أصبحت أقل غزارة وأكثر طولاً.. موضوعات إملاء أسبوعية وأدبية.. موضوعات إملاء وَقَّعَها هوجو(١).. ڤاليرى (٢).. بروست (٣).. تورنيه (٤).. كونديرا (٥).. أكثر جمالاً أحياناً من أن نستظهرها (٦). كَنَصٍّ كوين (٧) هذا المُقتَبس من [كتاب أمى]:

(١) هوجو.. «فيكتور هوجو» (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) شاعر فرنسى، كتب المسرح والرواية والمقالة، وكان فنانًا تشكيليًا ورجل دولة وناشطًا فى الدفاع عن حقوق الإنسان ونصير الحركة الرومانسية فى فرنسا يُعتبر من أعظم شعراء الفرنسية ومن أشهر أعماله «البؤساء» و«أحدب نوتردام».

(٢) ڤاليرى «بول ڤاليرى» (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) أحد رموز المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى، أخذت هذه المدرسة تناهض مذهب البرناسية الذى فض التعبير عن المشاعر الفردية وبينما تبنى ڤاليرى ومجموعة من الشعراء، هم مالارميه وبول فيرلين وأرثر رامبو وجان موريياس قصيدة جديدة تعبرر عن العالم الخارجى للشاعر وتطلق هى فى النفس من رغبات ومافى الذهن من أحلام وما فى القلب من مشاعر.

(٣) بروست، مارسيل بروست (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) روائى فرنسى وناقد ومترجم وباحث اجتماعى، عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى باريس، صاحب أشهر عمل فى الأدب الفرنسى المعاصر «البحث عن الزمان»، وهو مؤلف من سبعة أجزاء نُشرت بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢٧م.

(٤) تورنيه كاتب فرنسى شهير.

(٥) كونديرا: ميلان كونديرا (١٩٢١ ـ) روائى تشيكى، من أشهر الكتّاب المعاصرين الآن، من أشهر أعماله.. «الخلود» و«كائن تُحتمل خفته»، «البطء»، «فن الرواية»

(٦) أى نقوم بتسميعها عن ظهر قلب (المترجم).

(٧) Cohen المقتبس من كتاب أمى.

لكن لِمَ يكون الرجال أشراراً؟ لِمَ يكونون حقودين بسرعة جداً وشرسين؟

لِمَ يعشقون الانتقام.. يغتابونكم فى عجلة.هم مَن سيموتون قريباً.. المساكين؟

ما المغامرة المرعبة للبشر الذين يصلون إلى هذه الأرض.. يضحكون.يتحركون.. ثم فجأةً لا يتمكنون من الحركة.ولا تعيدهم المغامرة طيِّبين.هذا لا يُصدّق.

ولمَ يجيبونكم بسرعة البرق بصوتِ كَتُوَّة(*)..إن كنتم لطفاء معهم.. هؤلاء الذين يجعلونهم يعتقدون أنكم بلا أهمية.. هذا يعنى بلا خطر؟

هؤلاء الذين يتصرفون بحيث يكون على الحنونين أن يتظاهروا بكونهم أشراراً من أجل أن يَدَعوهم فى سلام .. أو حتى هؤلاء الذين يكونون مأسويين من أجل أن نحبهم.ولو كنا نذهب إلى الفراش بفظاعة وننام؟

كلب نائم ليس فى جسده برغوث. أجلْ.هيا لننام.. ففى النوم محاسن الموت وليس فيه أصغر مساوئه. هيا لنستقر فى التابوت المناسب. مثلما أحب أن أستطيع أن أنتزع ـ كسِنّةٍ ـ طاقم أسنانه الذى يضعه داخل كوب ماء على مقربة من سريره..أحب أن أنتزع مخى من علبته.. أن أنتزع قلبى الذى يخفق بشدة.. هذا المسكين البرجوازىّ الذى يؤدى واجبه

(*) ببغاء بيضاء اللون لديها مَلَكة التعلم.(المترجم).

بشكل جيد.. أنتزع مخى وقلبى وأغمرهما.. هذين المسكينين المليارديريِّن.. داخل محاليل مُنعشة فيما قد أنام أنا كالطفل الصغيرالذى

لم أعد ولن أكونه أبداً. كما لو كان ثمة بشر قليلون وفجأةً يصير العالم يباباً.

كانت ساعة الزهو قد أقبلتْ: اليوم الذى هبطتُ فيه على تلاميذى فى الصف الرابع.. بل فى الصف السادس بالأبحاث التى كان تلاميذى فى الصف الثانى أو الأول تعهَّدوا بتصحيحها إملائياً: المشتركون فى الصِّفْرِ خاصتى الذين تحوَّلوا إلى مصححين!.

طيران الدُّوريِّين(*) الإملائيين يحط على موضوعاتهم!

ـ موضوعى. لم أضفْ فيه أية تبعية يا سيدى!.

ـ بحثى. به جمل لا أحد يعرف أين تبدأ وأين تنتهى...

حين كنتُ أصحح خطئاً. ماذا كنتُ ألاحظ فى الهامش؟

ـ الواقع.. الذى تريده...

احتجاجات مِزاحية لأصحاب الحق وهم يطالعون ملاحظات هؤلاء المصححين عديمى الشفقة:

إطلاقاً. بل. شاهدوا ما الذى كتبه فى الهامش:

غبىٌ! أبلَه! بطاطا! بالأحمر!.

ـ أكان هذا يقتضى أن تُنسى تبعية...

(*) جمع دورىّ وهو نوع من العصافير. (المترجم).

كانت تنشأ.. داخل صفوف الكبار.. حمّلة تصحيح تستعير المنهج التطبيقى بواسطة الصغار: استجواب أفعال وأسماء قبل أن تفىء بحثها.. تضيف التبعية الملائمة.. باختصار.. تنكبُّ على ضبط نحوىّ له الفضل فى أن يقوِّم شرود بعض الجمل وبناءً عليه تخمين بعض البراهين. فى مناسبة كتلك.. كنا نكتشف.. وكان هذا ما يخلق موضوعَ عدد من الدروس.. أن النحو هو الأداة الأولى للتفكير المُنظَّم وأن التحليل المنطقى المعروف (الذى نحتفظ منه بطبيعة الحال بتذكار ممقوت) يلائم حركات تفكيرنا.. الذى يجد نفسه مشحوذاً بحسن تصرّف الجملة التابعة الشهيرة. بل كان يصل الحال إلى أن نقدم لأنفسنا بين الكبار موضوعَ إملاء صغيراً.. على سبيل قياس الدور الذى تلعبه التوابع فى تطور برهان يُقاد بشكل جيد.

ذات يوم ساعدنا فى هذا لا بروبير شخصياً.

- هيا.. تناولوا ورقة. شاهدوا كيف وهو يواجه التوابع والأصول يعلن لا بروبير - فى جملة وحيدة! - نهاية العالم وبداية عالم جديد.

سأقرأ عليكم النصَّ واليوم سأترجم لكم منه الكلمات غير المفهومة. اصغوا جيداً. ثم ستكتبون.. ليس ثمة ما يدعو إلى العجلة.. سأُملِّى ببطء ستسيرون خطوة خطوة.. كأنكم كنتم تتمهلون بأنفسكم!.

فيما يتوانى الكبار فى معرفة شىء لا أنطق فقط بمصالح الأمراء وبالشئون السياسية.. لكن بشئونهم

الخاصة بهم.. إنهم يتجاهلون اقتصاد وعلم رب الأسرة.. يمتدحون أنفسهم بهذا التجاهل.. يُتركون فى حالة عوز وخضوع لمُديرين.. إنهم يكتفون أن يكونوا ذوَّاقة أو تلالأ.. أن يذهبوا إلى بيت زايس أو إلى بيت فرينيه.. أن يتحدثوا عن رهط وعن رهط متأخرين..أن يقولوا كم موقع يوجد من باريس إلى بيزانسون [1] أو إلى فيليسبورج [2] .. مواطنون يتعلمون من داخل ومن خارج المملكة.. يراقبون الحكومة.. يصبحون نُبهاء وسياسيين.. يعرفون قَوىّ الدولة كلها وضعيفها. يحلمون باتخاذ أفضل المواقع.. يتخذون مواقعهم.. ينهضون.. يصبحون ذوى نفوذ.. يُريحون الأمير بقسْط من اهتمامات شعبية.

ـ والآن.. الضربة القاضية:

الكبار الذين يحتقرونهم.. يوقرونهم:سعداء إن يصبحوا أصهارهم.

ـ جملتان أساسيتان.. حُذفتْ ثانيتهما.. سعداء (هم يكونون سعداء).. محبوكتان بجملتين تابعتين.. الجملة الموصولة: الذين يحتقرونهم.. والجملة الشرطية الختامية.. المُفتالة: إن يصبحوا أصهارهم.

---

(١) بيزانسون: مدينة سياحية رئيسية فى شرق فرنسا تقع على مقربة من الحدود الفرنسية السويسرية.

(٢) فيليسبورج: مدينة ألمانية.

- ١٢ -

ولماذا لا نستظهر هذه النصوص عن ظهر قلب؟

وبأى اسم لا نتملّك الأدب؟

لأن هذا لم يعد يحدث منذ زمن طويل؟

- قد نترك أنفسنا نختفى من الصفحات المثيلة كأوراق ميتة.. لأن هذا لم يعد يجىء فى أوانه؟

عدم الاحتفاظ بلقاءات مثيلة.. أهذا يُعقل؟

لو كانت هذه النصوص كائنات.. لو كان لهذه الصفحات الاستثنائية وجوه.. قياسات.. صوت..ابتسامة.. رائحة.. أكنا سنقضى ما تبقى من حياتنا نعض على النواجذ ندماً على أننا تركناها تجرى؟

لمَ نلتزم بألا نحتفظ منها إلا بأثر سيتلاشى حتى لن يعود يبقى منه إلا ذكرى أثر... (يبدو لى.. أجلْ.. أننى درست نَصّاً فى المَدرسة.. سابقاً عن مَنْ؟ لا برويير[1]؟ مونتسكيو[2] ؟ فينيلون[3]؟ أىّ عصر..

---

(١) برويير :جون ميشيل برويير.كاتب فرنسى مشهور فى علم الأخلاق

(٢) مونتسكيو : شارل لوى دى سيكوندا إلى (١٦٨٩ - ١٧٥٥) المعروف بـ «مونتيسكيو» فيلسوف فرنسى صاحب نظرية فصل السلطات التى تعمل بها غالبية الأنظمة حاليا ومن أشهر مؤلفاته «روح القانون» الذى صار من أبرز المراجع فى العلوم السياسية.

(٣) فرانسوا دوسالينياك دولاموت فينيلون (١٦٥١ - ١٧١٥م كاتب وشاعر فرنسى، من أبرز رموز النهضة الأوروبية خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر.

السابع عشر؟ الثامن عشر؟ نصٌ فى جملة وحيدة كان يصف الانزلاق من طبقة إلى أخرى...)

باسم أى مبدأ.. هذه الورطة؟

فقط لأن مُدرسى العام الماضى ذائعى الصيت كانوا يجعلوننا نُسمِّع أشعاراً معتوهة غالباً.. أمام أعين بعض المسنين البلهاء كانت الذاكرة عضلةً تحتاج إلى تدريب أكثر من احتياج مكتبة للنمو؟ آملهذه القصائد الأسبوعية التى لم نفهم منها شيئاً...

كل قصيدة منها كانت تطّرد سابقتها.حتى اعتقدنا أننا نتدرب على النسيان!.

من ناحية أخرى.. كان مدرسونا يعطونها لنا لأنهم كانوا يحبونها..أو لأن مُعلّميهم كانوا قد لقّنوها لهم.. أنها كانت تُنسب إلى بانتيون صاحب رسائل ميتة؟

هم أيضاً.. ألصقوا بنا الأصفار!.

وساعاتٍ من التسميع!.

(بداهةً.. بناكشيونى.. لم نتعلم تسميعه!)

لكن إذا.. يا سيدى.كنتُ عرفته مساء أمس أيضاً كنتُ سمَّعْته على أخى.. كان هذا من الشِّعر مساء أمس.. لكن هذا الصباح ها هو التسميع الذى تنتظره.. وهذا يُصيبنى بالإمساك.هذا المرصاد.

بطبيعة الحال.. لم أقل شيئاً من كل هذا.. كنتُ خائفاً للغاية. لم أعد إليها.هذه المحنة المرعبة.. محنة التسميع أمام المِنَصةِ.. إلا لأحاول أن أفسر الازدراء

لى حيث اليوم ثمة من يمسك بكل تحريضات الذاكرة.قد يكون هذا إذاً من أجل التوسل إلى هذه الأشباح التى كنا قد قررنا ألا نُلحق بها أكثر صفحات الأدب والفلسفة روعةً؟

نصوص حُرِّمَ التذكر عليها.. لأن بعض الحمقى لم يجعلوا منها سوى قضية ذاكرة؟

إذا كان هذا كذلك.. فإنها حماقة طردت حماقةً أخرى. ربما يعارضنى من يقول إن العقل المُنظم ليس فى أى احتياج للتعلم عن ظهر قلب.فهو يعرف كيف يصنع عسله من اللب الجوهرىّ.

هو يحفظ ما يُؤدى معنى ما.. ومهما قلتُ عنه يحتفظ بإحساس الجمال كاملاً. زد على هذا.يمكن أن يلتقيكم فى أى كتاب فى لحظة داخل مكتبته.. يصل فى أوانه إلى السطور الجيدة فى دقيقتين. أنا شخصياً.. أعرف أين ينتظرنى لا بروبير.. أراه على رفه الجدارىّ.. كونراد.. ليرمونتوف[١].. بيرو..[٢] شاندلر..[٣] كل رفقتى هناك.. مبعثرة هجائياً فى هذا المنظر الذى أعرفه جيداً. دون أن أتحدث عن فضاء

(١) ليرمونتوف: (ميخائيل ليرمونتوف) (١٨٤١ ـ ١٨٤١م) شاعر روسيا العظيم ومن أشهر مؤلفاته «الأسير القوقازى» و«القرصان» و «بطل هذا الزمان».

(٢) بيرو... أديب وكاتب فرنسى معروف.

(٣) ألفردشاندلر جونيور (١٩١٨ ـ ٢٠٠٧) مؤرخ أمريكى، له أكثر ٥٢ مولفًا وهو صاحب نظرية «اليد المنظورة» فى الاقتصاد التى حلت محل «اليد المخفية» التي روّج لها الاقتصادي الشهير «آدم سميث» في القرن الثامن عشر، في تحديده لمصادر السوق الحرة.

الإنترنت حيث يمكننى بنهاية سبابتى أن أستشير كل الذاكرة البشرية. الاستظهارعن ظهر قلب؟

في الوقت الذى تُعدّ الذاكرة فيه بالمليارات.

صحيح كل هذا.. لكن الشىء الأساسى فى موضع آخر. وأنا أستظهر عن ظهر قلب.. لا أعوض عن شىء.. أضيف إلى الجميع.

القلب هنا هو قلب اللغة. يغطس داخل اللغة. كل شىء هناك. ابتلاع الماء وقيْئه مرة أخرى. وأنا أجعل تلاميذى يتعلمون بعض النصوص.. فى الصف السادس فى السنة النهائية (نصٌّ يُدرّس أسبوعياً.. فيما تُسَمَّع بقية النصوص فى كل يوم من أيام العام الدراسى).

كنتُ ألقى بهم يقظين جميعاً داخل موج اللغة العظيم الذى يتسلق العصور لكى يأتى ليدق بابنا ويعبر منزلنا. بكل تأكيد كانوا يجمحون.. المرات الأولى!.

كانوا يتصورون الماء بارداً للغاية.. عميقاً جداً.. والتيار قوياً جداً.. تكوينهم هزيل جداً. شرعىّ!.

كانوا يقدمون لأنفسهم الخوف من شرفة الغطس:

- لن أصل إليه أبداً.

- ليس لدىّ ذاكرة.

(تخرجنى هذه الحجة أمِهاً(*) من الميلاد!.

(*) الأمِه: هو الشخص المُصاب بداء النسيان /الزهايمر.(المترجم).

ـ هذا طويل جداً!.

(بالنسبة إلىّ.. غبى الخدمة العسكرية القديم!)

ـ فضلاً عن ذلك.. ليست الأشعار كما نتحدث اليوم!.

(آه! آه! آه!)

ـ سيُدوَّن هذا يا سيدى؟

(وكيف!)

دون إحصاء اعتراضات الناضجين المُهينين:

ـ أتستظهر(*) ؟ لم نعد رُضَّعاً!.

ـ أنا لستُ ببغاء!.

كانوا يقامرون بكل شىء. كان هذا بشكل شرعى.

من جهة أخرى.. كانوا يقولون هذا النوع من الأشياء.. لأنهم كانوا يسمعونها تُقال. آباؤهم.. بأنفسهم.. أحياناً.. آباء.. إلى أى مدى متحضرون: (كيف.. يا سيدى بناكشيونى تجعلهم يستظهرون نصوصاً؟ لكنَّ ابنى لم يعد طفلاً!).

ابنكِ يا عزيزتى لن ينتهى به الحال إلى أن يصبح طفلاً للغة.. وأنتَ بنفسك رضيع صغير جداً.. وأنا صبى مثير للسخرية.. والجميع بقدر ما نكون هَنَةً يحملها نهر عظيم يتدفق من النبع الفموى للحروف.. وأنه سيحب معرفةً فى أية لغة يسبح.. هذا الذى يحمله.. يروى ظمأه.. يغذيه.. وسيصبح بنفسه حامل هذا الحُسْن. وبأى فخر!..

(*) الاستظهار: هو ما نطلق عليه التسميع أي أن نقول الشيء عن ظهر قلب.(المترجم).

سيعشق هذا.. ثقى به.. طعم هذه الكلمات داخل فمه.. شُهب الأفكار المضيئة داخل رأسه.. اكتشاف كفاءات ذاكرته الخارقة.. رشاقته اللانهائية.. صندوق الصدى هذا.. هذا الصوت الغريب حيث يجعل أكثر العبارات روعةً تُغنّى.. تُدوّى الأفكار الأكثر وضوحاً.

سيُفتتن بها.. بهذه السباحة تحت اللسانية حيث سيكتشف مغارة ذاكرته الشرهة.. سيعشق الغطس داخل اللغة.. فيها يخطئ عمق النصوص.. وعلى مدار حياته سيعرفها هناك.. إنها أساسيات وجوده.. مقدرة تلاوتها ارتجالاً.. يقولها لنفسه من أجل نكهة الكلمات. رسول عُرّف مكتوب بفضله يصبح فموياً مرة أخرى. سيصل ربما إلى أن يقولها لشخص آخر من أجل أن يقتسمها معه.. من أجل ألعاب التضليل.. أو من أجل أن يتحذلق.. إنها مخاطرة الركض.. سيرتبط فى المسير بأوقات ما قبل الكتابة حيث كان بقاء الفكر يتبع صوتنا الوحيد. لو حدثتينى بشكل ارتدادىّ.. سأجيبك مستخدماً طريقة إعادة الاتصال. المعرفة جسدية فى البداية. إنها آذاننا وأعيننا التى تجتذبها.. وفمنا هو الذى يرسلها. مؤكد.. تأتينا المعرفة من الكتب.. غير أن الكتب تخرج من داخلنا نحن هذا ما يُحدِثُ ضجة. فكرة.. ذوق القراءة هو ميراث الاحتياج إلى الكلام.

- ١٣ -

آه! كلمةٌ أخيرة.لا تقلقى يا سيدتى. (أأستطيع أن أضيف اليوم إلى هذه الأم التى لا تتغير من جيل لجيل).

كل هذا الجمال فى رأس أطفالك.. ليس هذا ما سيُعيقهم عن أن يلعبوا كالقط صوتياً مع رفاقهم الصغار على اللوحة.. ولا أن يرسلوا هذه الرسائل القصيرة(*) التى تجعلك تُصدرى صرخات عُقاب منْسورىّ:

(يا إلهى.. يا لها من إملاء! كيف يتكلم شباب اليوم!.

لكن ماذا تفعل المَدْرسة؟)

اطمئنى..اجعلى أطفالك يعملون.لن نَمَسَّ رأس مالك من القلق الأمومىّ.

(*) المقصود هنا الرسائل التى تُرسل عبر التليفون المحمول.(المترجم).

ـ ١٤ ـ

إذاً .. نَصٌّ واحد أسبوعياً .. كان علينا أن نُجيد تسميعه كل يوم من أيام العام الدراسى .. ارتجالاً . هم مثلى. نصوص مُرقَّمة .. لزيادة مدى الصعوبة. الأسبوع الأول .. نص رقم واحد . الأسبوع الثانى .. نص رقم اثنين. الأسبوع الثالث والعشرون .. نص رقم ثلاثة وعشرين. كل مظاهر دراسة الآلات البلهاء .. لكن هذه الأرقام هى عِوَضاً عن العنوان .. كان هذا من أجل اللعب .. من أجل إضفاء سرور المخاطرة على فخر المعرفة.

ـ أميلى .. اتْلُ علينا النص التاسع عشر.

ـ التاسع عشر؟ إنه نص كونستان عن الخجل .. بداية أدولف.

ـ تماما .. نحن نُصغى إليك.

كان أبى خجولاً ... وكانت خطاباته ودودة .. ملأى بالوصايا الحكيمة والمؤثرة .. لكن ما أن تواجهنا معاً .. حتى وجدت داخله شيئاً من الإكراه الذى لم أتمكن من تفسيره لحظتها والذى كان يتفاعل ضدى بطريقة مُضنية. لم أكن أعرف ـ آنذاك ـ ما الذى كان سوى

الخجل.. هذه المعاناة الداخليةالتى تطاردنا حتى سنين العمر المتقدمة.. والتى تدفع عن قلوبنا المشاعر الأكثر عمقاً.. التى تُجمِّدُ كلماتنا.. التى تُشوِّه فى أفواهنا كل ما نحاول أن نتفوه به.. ولا تسمح لنا بأن نتكلم إلا بألفاظ غامضة أو بتهكم أكثر أو أقل مرارة.. كأننا كنا نريد أن ننتقم من أحاسيسنا.. حتى من الألم الذى نعانى من أجل أن نُعرِّفها عليه.لم أكن أعرف أن أبى كان خجولاً حتى وهو برفقة ابنه.. وأنه غالباً بعد أن انتظر منى لزمن طويل بعض دلائل تَعلّقى به الذى كان يبدو فتوره الجلىّ أنه يمنعنى.. تركنى وعيناه مغرورقتان بالدموع.. وشكا لآخرين أننى لا أحبه.

ـ رائع١٨/ ٢٠..

فرانسوا النص الثامن.

ـ الثامن.. وودى ألين! الأسد والحَمَل.

ـ هيا.

سيقتسم الأسد والحمل الفراش نفسه..

لكن الحمل لن ينام كثيراً.

ـ تمام.. ٢٠/ ٢٠!

صمويل.. النص الثانى عشر.

ـ الثانى عشر.. نص إيميل لروسو. وَصْفُه لحالة الإنسان.

ـ بالضبط.

ـ مهلاً يا سيدى.. نجح فرانسوا فى الحصول على ٢٠/ ٢٠ بسطرين من نص وودى.. وعلىّ أنا أن أسمَع نصف إيميل؟

ـ إنه يانصيب الحياة الشنيع.

ـ حسنًا.

أنتم تعتمدون على النظام الحالى للمجتمع دون أن تفكروا فى أن هذا النظام كان هدفاً لثورات حتمية.. ثورات كان يستحيل عليكم أن تتكهنوا بها وأن تتداركوها.. تلك التى تشاهد أطفالكم. الكبير يصبح صغيراً.. الغنىّ يصبح فقيراً.. يصبح الراعى من الرعيّة.. أتكون نوائب الدهر نادرة جداً درجة أن تتمكنوا من عدِّها.. وتكونوا معصومين منها؟

نقترب من حالة الأزمة ومن عصر الثورات.من الذى يستطيع أن يُعيدكم مما ستصبحونه آنذاك؟

كل ما فعله البشر يستطيعون أن يهدموه.ليست هناك سِمات لا تزول سوى تلك التى تُرسّخها الطبيعة..

والطبيعة لا تصنع لا أمراء ولا أثرياء.ولا حتى سادة.

ماذا سيفعل إذًا.. فى الدناءة.. هذا المستبد الذى لا يُعظّم إلا من أجل التعظيم؟

ماذا سيفعل فى الفقر جابى الضرائب الذى لا يعرف كيف يعيش إلا من الذهب؟

ماذا سيفعل.. محروماً من كل شىء.. هذا المزهو المعتوه الذى لا يعرف قط يستخدم نفسه ولا يضع عالمه إلا داخل ما هو غريب عنه؟

سعيداً من يعرف كيف يغادر حينئذ الحالة التى تغادره.. ويبقى إنساناً رغماً عن الأقدار!.

لمَ نمتدح هذا المَلِك المهزوم الذى يريد أن يندفن غاضباً تحت أنقاض عرشه؟.. أنا أزدريه.. أنا أرى أنه لا يعيش إلا بواسطة تاجه.. وأنه كان لن يكون شيئاً على الإطلاق إن لم يكن ملكاً.. لكن ما يفقده ويمتنع عنه حينئذ هو ما لا طاقة له به. من مكانة الملك التى يستطيع خسيس.. شرير.. مجنون أن يملأها كغيره.. يرتقى إلى حالة الإنسان.. وقليلون جدًا من البشر يعرفون كيف يملئون...

ـ مَنْ يقول أفضل؟

لم أكن أبرحهم داخل هذه النصوص. كنتُ أغطس فيها معهم. كان قد وصل الحال بنا إلى أن نتعلم النصوص المُعقَّدة جداً معاً.. أثناء الدرس نفسه.. طوال تحليلها.

كنتُ أُبْهِرُ نفسى بمُعلِّم سبَّاح. كان الضِّعاف جداً يتقدمون فى عناء.. رافعين الرأس خارج الماء.. جزءاً جزءاً.. متعلقين بلوح شروحى الخشبى.. ثم كانوا يسبحون بمفردهم.. فى البداية كانت بعض الجُمَل.. إلى أن يقدموا لأنفسهم عما قليل امتداد فقرة.. دون قراءة.. عن ظَهْرِ قلب.

منذ أن فهموا ما كانوا يقرءونه اكتشفوا قدرات ذاكرتهم.. وغالباً.. قبل انتهاء الدرس.. كان عدد جيد منهم يُسمِّع النص كاملاً.. كانوا يقدمون لأنفسهم امتداد بِرْكة دون مساعدة معلم سبَّاح. كانوا يبدءون التمتع بذاكرتهم. لم يكونوا ينتظرون فيها على

الإطلاق. حكينا عن اكتشاف وظيفة جديدة.. كأنه كان يدفعهم بزعانف يفاجأ الجميع بهذا التذكر السريع جداً.. كانوا يكررون النص مرتين.. ثلاث مرات.. ودونما أية صعوبة.

إنه كبْح قائم.. كانوا يفهمون ما كانوا يتذكرونه.لم يكونوا يرضون أن يُسمِّعوا تكملة الكلمات.. لم يعد هذا فقط فى ذاكرتهم التى كانوا يحمحمونها.. كان هذا فى ذكاء اللغة.. لغة الآخر.. فِكْر الآخر. لم يكونوا يُسمِّعون إيميل.. كانوا يُصوِّبون منَطق روسو فى تلك اللحظات.. لكن بعد كل حساب.. هذا هو التأليه اللغنىّ لچان ـ چاك الذى يتكلم بواسطة فَمِكمْ!.

-١٥-

أحياناً.. كانوا يلعبون.. يتدربون معاً.. يُنظمون مسابقات سرعة.. أو يُسمِّعون نَصّهم بنبرة غريبة عن طبيعتها:

الهيجان.. المفاجأة..الخوف.. التعتعة.. الفصاحة اللبِقة.. الشغف العاشق.. عند الحاجة كان هذا أو ذاك يُقلّد الرئيس الحالى.. وزيراً.. مغنياً.. مُقدّم نشرة الأخبار التليفزيونية...

كذلك كانوا يَنْكبُّون على لعبتين.. تدريبات الرشاقة العقلية المحفوفة بالمخاطر.. كانوا يُطلقون تحديات أكروباتية قوّمها لى ذات مساء فصل الصف الثانى.. أثناء عشاء نهاية العام الدراسى. (كانوا يحرسون الشىء السرىّ.. كى يُدهشوا المدرس.)

بين الكمثرى والجُبْن.. تُصوّب كارولين إصبعها نحو سيباستيان:

ـ تَحدٍّ: أريد الفقرة من النَّصِّ الثالث.. المقطع الشِّعرى الثانى من النص الحادى عشر.. الرابع من النص السادس والجملة الأخيرة من النص الخامس عشر. حشد سيباستيان المتحدى ذهنياً نَصَّ رُقع

أقمشة ملونة الذى سمَّعه تقريباً دون تردد كنَصٍّ فريد وغير مألوف.ثم ألقى تحديه الخاص: وأنتِ بدوركِ اتلى علينا جسر ميرابو(*).

حدِّدَ بدقة:

- بالمقلوب.

- سهل.

فإذا فى أذنيَّ المشدوهتين.. تحت جسر ميرابو يتخذ نهر السين مكانه ليعود إلى مجراه.. من البيت الأخير إلى الأول.. حتى الاختفاء تحت بلاتوه لانجر. مسرورةً.. أطلقت اسم المؤلف: إيريانيلويا!.

- وهذا.. يا سيدى.. أتعرف كيف تفعله؟

ربما لم يكن مفتش الأكاديمية يحب أن يرى السين عائداً إلى منبعه أو أسطوانة الغسالة وهى تخلط كل نصوص العام الدراسى.. أو تلاميذى فى الصف السادس وهم يُزينون فصلنا بأشرطة؛ حيث كانت تتدلى أخطاؤهم الإملائية الأكثر مُشاهَدةً كجلود انهزامية. ثمة من استطاع أن يلومنى على تركى لأكبر تلاميذى يتعهدون بكراساتهم فى تصحيحٍ يَغتال التلاميذ الصغار!.

ألن يكون هذا مدحاً للبعض بهدف إذلال آخرين؟

لم نداعب هذه الأشياء.. بعد كل حساب!.

لم يكن يجب أن تكون ثمة مرافعة:

ما من هلع يا سيدى المفتش.. يجب معرفة اللعب

(*) اسم قصيدة للشاعر الفرنسى جيوم أبولينير.(المترجم).

مع المعرفة. اللعب هو تنفس الكدّ.. الخفقان الآخر للقلب. اللعب لا يُلحق الضرر برصانة التدريب.. بل هو طِباقه.

من جهة أخرى.. اللعب مع المادة الدراسية تدريب لنا على السيطرة عليها. لا تصف بالطفل الملاكمَ الذى يقفز على الحبّل..إنه متهور.

فى خلطهم لنصوصهم.. لم يكن ينقص تلاميذى فى الصف الثانى أن يحترموا السيد الأدب.. كانوا يُشيدون بسيادة ذاكرتهم!.

كانوا لا يُقلّلون قَدْر معرفةٍ ما.. وفى براءةٍ يندهشون بمهارةٍ ما!.

يُعبّرون عن فخرهم وهم يلعبون دون أن يرفعوا أعناقهم. كانوا من جهة أخرى يمزحون بروسو.. يواسون أبولينير .. يتسلون بـ كورنىّ(*) ـ الذى كان لديه مذاق الخدع المُسلية هو أيضاً.. والذى يجب أن يدرك أن خلوده طويل بعض الشيء. وبخاصة.. كانوا يقيمون فيما بينهم وَسَطاً من البوح اللُّعَبىّ الذى كان يُعضّد الذهن الجاد لكل واحد فيهم. ثم كانوا ينتهون من هذا بالخوف. كانت هذه هى طريقتهم فى أن يقولوا.. فى أن يصيحوا: أخيراً!.

زد على هذا كنتُ أحياناً ما ألعب معهم.لقد وصل بنا الحال إلى أن نتأمل الغباء مع الفائدة الكبرى..أن ندرس نتائج تعايشه مع الذكاء النادر جداً. مندهشون

(*) كورنى: بيير كورنى (١٦٠٦ ـ ١٨٤٨م) شاعر مسرحى فرنسى، يعتبر من رواد المسرح الكلاسيكى فى تاريخ الأدب.

لكن منهكون بارتقائنا ابن أخى رامو(*).. كنا ننسجم على سبيل المثال مع وضع الشتائم. شتيمة بواسطة تلميذ (كانت لدىّ ميزانية لهذا العمل). مَنْ كانت تقع عليه القصة الأكثر غباءً.. التى اقترحت بواسطة قطع الحلوى هذه.. الخدعة الأكثر إهانة فى قمة الذكاء حيث كنا نُخيِّم.. هذا الذى كان يربح شتيمة ثانية.. وكنا نحن نستعيد ارتقاءنا.. القدم خفيفة.. مُكرَّمين بصداقة ديديرو. كنا نعرف أنه لو كان إدراك النص غزواً وحيداً وفظاً للعقل.. فإن الخدعة الغبية تثبت.. هى.. تواطؤ مريح لن يتجزأ إلا بين أصدقاء حميمين كنا نتبادل معهم القصص الأكثر غباءً.. طريقة إعادة الاحترام المُضمر إلى ذكاء عقولهم. أتخابث مع آخرين.. أبوح بمعرفتى.. أستقر فيها.. أُغْوِى.

(*) اسم كتاب.(المترجم).

ـ ١٦ ـ

تُرى مَنْ كانوا .. تلاميذى؟

بالنسبة إلى عدد مؤكد منهم نوع التلميذ الذى كنته فى سِنّهم.. الذى نجده بعض الشئ فى كل مكان فى المدارس الداخلية حيث يرسب الفتيان والفتيات الذين استبعدتهم المدارس الثانوية الجديرة بالاحترام. كان كثيرون منهم يعيدون العام الدراسى ويمكثون فى تقدير لا قيمة له. آخرون.. كانوا يشعرون ببساطة أنهم على الهامش.. خارج (النظام). بعضهم فقد ـ حتى الدُّوَار ـ الإحساس ببذل المجهود.. بالزمن.. بالإجبار.. باختصار.. بالعمل.. ببساطة شديدة.. تهاونوا فى الحياة.. متفرغين بدءاً من سنوات الثمانينيات للاستهلاك الجامح.. لا يعرفون قط أن يستخدموا أنفسهم ولا يضعون عالمهم إلا داخل من كان غريباً عنهم (تَأمُّل روسو منقولاً على سطح مادىّ.. لم يتركهم غير مكترثين). والجميع من الحالات الخاصة.. بكل تأكيد هذا.. تلميذ ممتاز فى مدرسة الولاية الثانوية.. وجد إذناً أخيراً على سطح باخرة على أهبة الإقلاع إلى المدارس الكبرى حيث جعله ملفُّه يُقبل فيها.

لقد حمل منها حزناً شبيهاً حول شعر رأسه إلى بُقَعٍ: انهيار عصبى.. فى عمر الخامسة عشرة!.

هذه.. التى أقبلت على الانتحار بِجَرْح أوردتها (لماذا فعلتِ هذا؟ ـ كى أرى!).. تلك التى كانت تُغازل بالتناوب فقدان الشهية والجوع المرضى.. هذا الذى كان يهرب مؤقتاً.. ذاك القادم من إفريقيا.. المصدوم بثورة دامية.. وهذا.. ابن البواب الذى لا يكل.. ذاك الصبىّ الكسول ابن الدبلوماسىّ الغائب.. كان بعضهم مثقلاً بالمشكلات العائلية.. كان بعضهم يعزف على أوتارها بلا حياء.. هذه الأرملة القوطية ذات العينين السوداوين والشفتين البنفسجيتين.. أقسمت ألا تندهش من شىء.. حين سُمِّر هذا القميص الرياضى.. بنان وسانتياج.. الهاربان من مدرسة كاشان الثانوية الفنية.. كى يلتحقا لدينا بمرحلة طويلة.. اكتشفا متعجبين مجانية الثقافة. كانوا فتيان وفتيات جيلهم.. سوقيّو السبعينيات.. قرطاجينيو أو قوطيّو الثمانينيات.. مشدوهو التسعينيات المعاصرين.. كانوا يقلّدون صيحات الموضة مثلما نلتقط ميكروبات: موضة الملابس.. الموسيقى.. الغذاء.. الألعاب.. الإليكترونيات.

كانوا يستهلكون. تلاميذ بداياتى.. تلاميذ السبعينيات كانوا يملئون بالنسبة إلى نصفهم الفصول المذكورة (مُجهَّزة) لَمدرسة سوانسون الثانوية.. فصول كنا قد حددنا بدعابة مهنية جداً أنها لم تكن (لـ التجهيز).. فى كلمتين. كان بعضهم تحت حراسة

قضائية. كان الآخرون أبناء مزارعين برتغاليين.. تجار محليين أو أبناء كبار مُلاك الأراضى الذين كانت حقولهم تغطى سهول الشرق الفسيحة. بدناء من كل الشباب قُدموا للانتحار الأوروبىّ من ١٤ ـ ١٨.

كان سُوقيُونا يقتسمون الأماكن نفسها مع هؤلاء التلاميذ (الأسوياء).. المطعم نفسه.. الألعاب نفسها.. وكان هذا الخليط المحظوظ ليوضع فى حساب الإدارة. الأمية المتأخرة لا تؤرخ من اليوم.. هذا بالنسبة إلى هؤلاء الفتيان وهؤلاء الفتيات (المُجهًزين) الذين كان يجب علىً فى الصف الرابع أو فى الصف الثالث أن أعلمهم الثقافة والإملاء مرة أخرى.. كان هذا معهم.. هم الذين كنا نسألهم عن هذا الـ[y] حيث لم نتوصل إليه أبداً لأننا نجهل أنه لم يكن سوى كائن هناك.. كائنٍ الآن.. كائنٍ معاً.. وهذا يجعله على طبعه يبقى مدرسهم لمادة الرياضيات وأنا كنا قد علمناهم كيف يلعبون لعبة الشطرنج.. أيضاً. الواقع.. أنهم لم يشفوا منه وإن كان ألماً. صنعنا رقعة شطرنج جدارية كبيرة والتى قدموها لى ساعة رحيلى (لقد صنعنا منها واحدة أخرى).. والتى أحتفظ بها بشعور من الإجلال والحب. انتصاراتهم فى هذه اللعبة الشهيرة والصعبة.. كان ذاك هو عصر البطل الشهير سباسكى ـ فيشر.. الثقة المكتسبة التى حازوها فى هذه اللعبة هازمين فصول المدرسة المجاورة (هزمنا علماء اللاتينية يا سيدى!).

لم يكونوا بلا ثمن فى تقدمهم فى الرياضيات.. فى تلك السنة.. ولا فى نجاحهم فى الشهادة

التكميلية. فى نهاية العام كنا قد ارتقينا أوبو ملكاً.. كل الفصول مختلطة. أخرجت صديقتى فانشون.. المُدرّسة اليوم فى مارسيليا.. هى أيضاً من طراز العم چول.. لا تصدأ فى مقاومتها ضد كل الجهالات. بالتبعية..الأب والأم أوبو كانا قد أثارا صخباً فى سريرهما الكبيرعلى مرأى من المطران المحلى. (عمودىّ ..السرير.. من أجل أن نستطيع أن نُعجب الزوج الملكى حتى مؤخرة قاعة الألعاب البدنية حيث تُنتج المسرحية.)

منذ ١٩٦٩ وحتى ١٩٩٥ لو استثنينا عامين انقضيا فى مؤسسة أُختير بدقة من يدخلها كان معظم تلاميذى سيكونون إذاً مثلما كنتُ بنفسى.. أطفالاً ومراهقين فى صعوبة دراسية تزيد أو تنقص. كان الأكثر إصابةً يُظهرون تقريباً الأعراض نفسها التى كانت لدىّ فى مثل عمرهم: فقدان الثقة فى النفس.. العدول عن بذل أى مجهود.. عدم الكفاءة فى التركيز.. غفلة.. ولع بالأكاذيب.. تكوين جماعة عند زقاقىً.. كحول أحياناً.. أيضاً مخدرات .. اللطيفة زوراً.. العين سائلة بالأحرى.. بعد كل حساب.. بعض الصباحات...

كانوا تلاميذى. (ياء الملكية هنا لا تُحدد أية ملكية.. إنها تشير إلى فاصل زمنى.. أعوامنا الدراسية.. حيث مسئوليتى كمدرس توجد مرهونة كاملة إزاء هؤلاء التلاميذ.)

جزء من مهنتى يرتكز على إقناع تلاميذى الأكثر هجراً؛ لأنفسهم أن المجاملة أفضل من الصفعة المُعَدَّة

سلفاً عند التروّى.. أن الحياة فى تجمع هى حياة التزام.. أن يوم وساعة تأدية واجب ما ليسا قابلين للتداول.. أن واجباً ما لم يُتّقن يكون فى انتظار إعادته فى اليوم التالى.. أن هذا.. أن ذاك..لكن هيهات.. هيهاااااات طويلة.. لا رفاقى ولا أنا لم نكن لنتركهم فى وسط المعبر من أجل أن تكون لديهم فرصة الوصول إليه.. كان يجب أن نعيد إليهم ثانية المعرفة بل بذل المجهود.. ومن ثَمَّ مذاق العزلة والسكون .. وبخاصة تأثيرالوقت.. إذاً..السأم. لقد وصل الأمر إلى أن أوصيهم بتدريبات السأم.. نعم.. كى أُسْكنهم فى الوقت. كنتُ أرجوهم ألا يفعلوا شيئاً..ألا يغفلوا.. ألا يستهلكوا شيئاً ولا حتى فى المحادثة.. كذلك ألا يعملوا.. باختصار.. ألا يفعلوا شيئاً..لا شىء إطلاقاً.

ـ تدريب السأم.. هذا المساء.عشرون دقيقة لعدم فعل شىء قبل أن ألقى بكم فى العمل.

ـ ولا حتى الاستماع إلى الموسيقى؟

ـ خاصة لا!.

ـ عشرون دقيقة؟

عشرون دقيقة. الساعة فى اليد. من الخامسة والثلث إلى السادسة إلا الثلث ستعودون مباشرة إلى أماكنكم.. لن تتحدثوا مع أحد.. لن تتوقفوا فى مقهى.. تتجاهلون وجود البليار الكهربائى.. لن تلتقوا بأصحابكم.. تدخلون حجرتكم .. تجلسون فى ركن سريركم.. لن تفتحوا حقيبتكم.. لن تسمعوا الوكمان..

لن تشاهدوا الجيم بوى.. ستنتظرون عشرين دقيقة.. والعين فى الفراغ.

ـ لأى شىء نفعل؟

ـ بالفضول فكروا مليًا فى الدقائق التى تمر..لا تفوتكم منها واحدة واحكوا لى فى الغد. كيف ستستطيع أن تتحقق من أنهم فعلوا؟

ـ لن أستطيع.

ـ وبعد العشرين دقيقة؟

ـ ستقضون على طعامكم كالجائعين.

- ١٧ -

لو كان علىّ أن أصف هذه الدروس سأقول إن تلاميذى الكسولين المفترضَين وأنا كنا نصارع فيها ضد الفكر السحرىّ.. ذاك الذى كما فى الأساطير.. يجعلنا أسرى مضارع مستمر. الانتهاء إلى حل مع الصفر فى الإملاء.. على سبيل المثال.. تخلص من الفكر السحرى. نُحطم قَدَراً. نخرج من الدائرة. نفيق. نضع قدماً فى الواقع. نشغل المضارع الاستدلالى. نبدأ فى الفهم. يجب جيداً أن نصل ذات يوم إلى حيث نُفيق!.

ذات يوم.. ذات ساعة! لم يقضم أحد إلى الأبد تفاحة عدم الكفاءة! لسنا فى حكاية.. ضحايا الفتنة!

ربما صدقت.. يُعلَّم: الانتهاء إلى حل مع الفِكر السحرى.. يحدث بحيث أن كل درس يدق ساعة الإفاقة.

أوه! أرى جيداً ما الذى يستطيع هذا النوع من البلاغ الرسمى أن يتملكه ممن يتضجر من كل المدرسين الذين يحملون على أكتافهم الفصول الأكثر تعباً فى أحياء هذه الأيام. خفة هذه الصيغ فى نظر البُلداء الاجتماعيين..

السياسيين.. الاقتصاديين.. العائليين والمثقفين.. هذا حقيقى ...

يبقى أن الفكر السحرى يلعب دوراً يُعتد به فى الاستبسال الذى يرتديه التلميذ الكسول ليبقى كامناً فى قاع عدم الكفاءة. وذاك.. منذ الأزل وداخل كل الأوساط. الفكر السحرى... ذات يوم أطلب من تلاميذى فى الصف الأول أن يرسموا بورتريهاً للمدرس الذى يعطى موضوعات البكالوريا .إنه واجب مكتوب:ارسموا بورتريهاً للمدرس الذى يعطى موضوعات اللغة الفرنسية فى البكالوريا. لم يعودوا أطفالاً.. كان لديهم وقت ليفكروا.. أسبوع ليُعيدوا إلىّ كراساتهم.. كانوا يستطيعون أن يقولوا لأنفسهم إن مدرساً واحداً لا يكفى لإعداد كل موضوعات اللغة الفرنسية من كل الأقسام بالنسبة إلى كل الأكاديميات.. إن الأمر أصبح على الأرجح فى مجموعات.. أننا نتقاسم المهمة.. أن لجنة قررت موضوعات من المحتوى تبعاً للمناهج المختلفة.هذا نوع من الحُسبان..لا شئ: رسموا بورتريهاً لى جميعاً.. بلا استثناء.. بورتريهاً لعجوز حكيم .مُلْتَحٍ.. منعزل.. وعلاَّمة.. الذى كان من أعلى جبل الأوليمب المعرفى يُطلق على فرنسا موضوعات البكالوريا كعدد من الألغاز الشيطانية.

تخيلتُ هذا الموضوع لأقدّم لى الصورة التى رسموها من المُرافعة.. ومن هناك تضئ طبيعة كبْحِهم. غرض مصاب فى الحال تَزوِّدنا بحوليّات

البكالوريا..أحصينا منها كل موضوعات أبحاث السنوات الأخيرة. شَرَّحْناها .. درسنا تركيبها.. اكتشفنا أننا لم نَعرض فيها أكثر من أربعة أو خمسة أغراض تفكيرية.. هى نفسها قُدمت فى نمطين صياغيين أو ثلاثة فقط.

(كانت نادراً أكثر تشعّباً.. فى مجملها.. من الروايات المختلفة حول الدخل من البط إلى البرتقال: ليس هناك بط.. خذوا دجاجاً.. ليس هناك برتقال.. خذوا لِفْتاً. وإن لم يكن ثمة دجاج ولا بط.. فخذوا ثوْراً وجزراً. كانت الصلصة تبقى كما هى: ستؤيدون منطقكم الاستشهادى المأخوذ من ثقافتكم الشخصية.)

إلى جانب هذا التحليل البنيوىّ كانت لديهم مهمة.. بالنسبة إلى الواجب التالى.. أن يُؤلفوا بأنفسهم موضوع بحث.

ـ سَيُدَوَّنُ هذا يا سيدى؟

(كم مرةً سمعت هذا السؤال!)

ـ بالتأكيد.كل عمل يستحق راتباً.رائع! موضوع بسيط يُدوّن كبحث تام.. الحظ!كنا نبتهج. كنا نتوقع إجازة أسبوعية مُخففة. لكن ما لم أقلق لأجله هو أن هذا العمل لن يرتفع فوق سيقانهم. لقد وعدونى بالتفكير فيه بجدية.. موضوع طبقاً للقانون هو بحث.. تأليف.. والجميع مُحلّفون شديدو الشبه.. يا سيدى! (كل شىء مأخوذ فى الحسبان.. حلول الأب محل الله كان يغريهم بشكل كاف.)

لم يتخلصوا من ورطة مشئومة جداً. كتبوا موضوعات أبحاثهم تبعاً لما كانوا يعرفونه من منهجهم ولبعض الأفكار التى كانت تسبح فى فضاء الزمن. استطعت أن أجعلهم يُستأجرون بواسطة الوظيفة. الواحد منهم.. أو بالأحرى الواحدة منهن.. كانت فتاة لاحظت أن صياغة هذه الموضوعات الرسمية لم تكن مُستثناة من الفكر السحرىّ:

- (ستؤيدون منطقكم الاستشهادى المأخوذ من ثقافتكم الشخصية.)

أىّ استشهاد.. فى يوم البكالوريا يا سيدى؟

من أين يُخْرجه مَنْ رُشّح للامتحان؟ مِنْ رأسه؟ الجميع لم يتعلموا نصوصاً مثلما تعلمنا!.

وأية ثقافة شخصية؟ أيريدون أن نحدثهم عن مطربينا المُفضَّلين؟ عن رسومنا المتحركة؟ سحرية قليلاً. هذه الصيغة. كلا؟

- ليس هناك ساحر مثالى.

الأسبوع التالى.. لم يبقَ لهم إلا أن يعالجوا الموضوع الذى عرضوه لأنفسهم. لم أشأ أن يَمَسُّوا السموّ.. لكن القلب كان يتطلع إليه. لقد حصدتُ أبحاثاً كان يلزمها القليل من الفكر السحرى... وكان يلزمهم درجات أكثر فى فَهْمِ صيغة أمر البكالوريا.

ـ١٨ـ

ـ سَيُدَوَّنُ هذا يا سيدى؟

كان هناك سؤال الدرجات.. بكل تأكيد سؤال جوهرىّ.. التدوين.. لو نريد مهاجمة الفكر السحرى.. فلنقاوم العبث. مهما كانت المادة الدراسية التى يُدرّسها.. يكتشف المدرس على وجه السرعة أنه فى كل سؤال مُوجَّهٍ يُجهّز التلميذ الذى يُسأل ثلاثة إجابات ممكنة:الدقيقة.. المُزيفة.. العبثية.أنا بنفسى أسرفتُ بشىء مقبول فى العبث خلال فترة دراستى (الكَسْر.. (١) يجب أن يُحوّل إلى عامل مشترك!).

أو.. فيما بعد: (جا a على جا .. b (٢) اختصر جا.. يتبقّى a على b!)

سوء فهمى خلال فترة دراستى بلا شك يتوقف على ما كان المدرسون يُدونونه كما لو كانت إجاباتى المُزيفة عبثية.كنتُ أستطيع أن أجيب حتماً بأى شىء.. شىء وحيد كان يضمننى: كنتُ أحصل على درجة!

---

(١) يقصد الكسر الاعتيادى الذى يتكون من بسط ومقام مثل $\frac{1}{5}$: (المترجم).

(٢) جا: هى رمز لجيب الزاوية وهى مصطلح يستخدم فى مادة الهندسة. (المترجم).

صفر.. كالعادة. فهمتُ هذا مبكرًا جدًا.. كان هذا أفضل طريقة لامتلاك السلام.. الصفر على أى حال.. مؤقتًا.

والحالة هذه.. الشرط اللازم لتحرير التلميذ الكسول من الفكر السحرى.. هو الرفض الصريح لتدوين إجابته لو كانت عبثية. خلال أولى جلسات التصحيح النحوى لـ (مُهيّآتى)..[1]، والتى تطمح ـ كعادتها ـ إلى الصفر لم تكن شحيحة فى الإجابات العبثية.

فى الصف الرابع على سبيل المثال.. الصديق سامى.

ـ سامى.. ما هو أول فعل مُصرَّف فى الجملة؟

ـ vraiment[2] يا سيدى إنه vraiment.

ـ ما الذى جعلك تقول إنَّ vraiment هو فعل؟

ـ لأنها تنتهى بـ (ent)!

ـ وفى المصدر ماذا يكون؟

ـ...؟

. هيا.. هيا! ماذا يكون؟ فعل من أفعال المجموعة الأولى؟

الفعل(vraimer) [3]

---

(١) يقصد تلك الإجابات التى كان يُعدها مقدماً. (المترجم).

(٢) هذه الكلمة التى اختارها سامى على أنها فعل؛ لأنها تنتهى ب (ent) والـ (ent) هى نهاية الأفعال المصرفة مع الضمير هم /هن ليست فعلاً لكنها ظرف بمعنى حقاً.(المترجم).

(٣) تنتهى أفعال المجموعة الأولى فى اللغة الفرنسية ب(er) والكلمة هنا محرفة وليست صحيحة .. لقد اختلقها المدرس بناء على إجابة التلميذ.وما بعدها تصريف للفعل المختلق مع الضمائر (أنا/أنت/هو). (المترجم).

Je vraime ..Tu vraimes..Il vraime

الإجابة العبثية تُميز بتزييفها بما لا ينبثق عنها من مساعى الاستدلال غالباً.. وبشكل آلىّ. تقتصر على فعل منعكس. التلميذ لا يُخطئ.. إنه يجيب بأى شىء مُنطلقاً من إشارةٍ مَهْما كانت (هنا النهاية.ent) ليس هذا فى السؤال الموجه الذى يجيب عليه.. لكن فى الحقيقة الذى نوجهه إليه. وننتظر إجابة منه؟ يعطيها. بدقة.. مزيفة.. عبثية.. لا طائل منها من جهة أخرى .فى بداية حياته الدراسية كان يعتقد أن قانون اللعبة يرتكز على الإجابة من أجل الإجابة.

كان يُبرز فجأة إصبعه الممدود من مقعده. والذى يهتز من نفاد الصبر:(أنا! أنا!.. يا مُعلمتى.. أنا أعرف! أنا أعرف!) (أنا موجود! أنا موجود!).

وكان يجيب بأى شىء. لكن بسرعة جداً.. نتآلف معاً. نعرف أن المدرس ينتظر منا إجابةً دقيقة. من المعروف أننا لن نشتريها من المتجر حتى ولو كانت مزيفة. ما من فكرة لما كان عليه أن يجيبنا. تماماً لو أننا فهمنا السؤال الذى يوجهه لنا. أأستطيع أن أذكر هذا للمدرس؟ إلى أن أختار الصمت؟ كلا سقطتُ جانباً يا سيدى؟

اعتقدوا أننى أتأسف له. جرّبتُ الصدمة.. كان هذا فى وقت متأخر.. ذاك كل شىء.. ضع لى صفراً ولنظل أصدقاء طيبين. الإجابة العبثية تنشئ الاعتراف الدبلوماسى للتجاهل الذى رغم أى شىء يبحث عن تثبيت الصلة. بالتأكيد.. تستطيع الإجابة

العبثية أيضاً أن تُعبّر عن عصيانٍ مُميَّز: يكسر أقدامى.. هذا المدرس بدفعى داخل خنادقى. هل أوجهها إليه.. هذه الأسئلة.. أنا؟

فى كل حالات المشهد.. تدوين هذه الإجابة عن طريق تصحيح استفهام مكتوب ـ على سبيل المثال هو قبول تدوين أى شىء.. ومن ثَمَّ يقترف بنفسه فعلاً تربوياً عبثياً. هنا.. تلميذاً ومدرساً يُظْهران أكثر أو أقل الرغبة نفسها بوعى: الإقصاء الرمزى للآخر. مجيباً بأى شىء على السؤال الذى يوجهه لى مُدرّسى.. أكف عن اعتباره مدرسًا.. إذ يصبح هو البالغ الذى أداهنه أو الذى أُقْصيه بواسطة العَبَث. موافقاً على أخذ الإجابات العبثية المزيفة لتلميذى أكف عن اعتباره تلميذاً..إذ يصبح موضوعاً خارج الموضوع الذى أنفيه فى كواكب الصفرالسرمدى. لكن.. إلى جانب هذا..أقوم بنفسى بإلغائى كمدرس.. وظيفتى التربوية تتوقف على مقربة من هذه الفتاة أو من هذا الفتى اللذيْن يرفضان أن يلعبا دورهما كتلميذيْن حين أُشرع فى ملء بطاقتهم الدراسية.. يمكننى دائماً أن أستنتج نقص الأساسيات لديهم. التلميذ الذى يعتبر الظرف (vraiment) فعلاً من أفعال المجموعة الأولى ألا يفتقر بغرابة إلى الأساسيات؟ بالتأكيد. لكن المدرس الذى يتظاهر زيفاً بتشبثه بإجابة عبثية بوضوح أهو جدير بالعكوف على مقامرة؟

على أى حال.. هو عرضة لخسارة أمواله فى هذه المقامرة.. للمخاطرة فيها بزمن تلاميذه

الدراسىّ. لأن التلميذ الكسول.. هو نفسه.. كواكب للصفر.. لقد سلَّم بهذا (يعتقد)

إنها قلعة لن يطرده منها أحد. يُدعِّمها مُكوِّماً العبث.. يُزيِّنها بتفسيرات مُتغيِّرة وِفْق عمره.. مزاجه.. نزعته .. وسطه الاجتماعى.. طبعه: (أنا غبىّ جداً).. (لن أصل إليه أبداً).. (لن يستطيع المدرس أن يشعر بى).. (أنا حاقد).. (يُمسكون برأسى).. إلخ..إنه يُغيِّر وجهة مسألة التعليم على أرض العلاقة الشخصية المُلتبسة حيث يصبح كل شىء مسألة نَزَقٍ.كذلك ما يفعله المدرس.. مُقتنعاً أن هذا التلميذ يقوم بفعل هذا عمداً؛ لأن ما يمنع المدرس من الإمساك بالإجابة العبثية من أجل نتيجة مدمِّرة للفكر السحرىّ.. هو فى أغلب الأحيان الشعور الذى يستهزئ به التلميذ عن قصد.مذ ذاك.. ينزوى المعلم فى [y] الخاص به: (برفقة ذاك.. لن أصل إليه أبداً).

ليس ثمة مدرس معصوم من هذا النوع من الإخفاق. إننى أصونه من آثار الجراح العميقة. إنها أشباحى الأسرية.. الوجوه المترددة لهؤلاء التلاميذ الذين لم أعرف أن أخرجهم من [y] الخاص بهم.. والذين احتجزونى داخل الـ [y] الخاص بى هذه المرة.. لم أتمكن من فعل شىء فيها.

ـ ١٩ ـ

ـ آه.. أخيراً!

ـ ماذا.. أخيراً؟

أعرفُ هذا الصوت. إنه يتسكّعُ داخلى منذ السطور الأولى لهذا الكتاب. إنه يترصّد فى كمين. ينتظر فُرْجةً ما. إنه التلميذ الكسول الذى كنته. متيقّظ دائماً. اليوم هو أكثر ميلاً من بعضى إلى حمل نظرة ناقدة لنشاطى كمُدرس.لم يستطع أبداً أن يُخلصنى من ورطة.لقد شِخْنا معاً.

ـ أخيراً ماذا؟

ـ أخيراً نصلُ إلى الـ [y] الخاص بك! الـ[y] الخاص بك كمدرس. منطقة عدم كفاءتك. لتقرأه إلى الآن.. لقد ملّكتنى سَمْتَ المدرس الذى لا شائبة فيه. قل إذاً!

قل إننى أُنْقذكَ مِن كل تشوهات الإبداع.. إننى أمْلأُ لكَ كل واحد فيها بأدب لا يُنْسى.. إننى أُعيد إليكَ كل العقول الأكثرغموضاً إلى عقول منهجية!.

ما من إخفاقات إذًا؟

ـ ...

ـ صبى عَلامَ (هذا لا يأخذ). هذا لم يصل إليك أبداً؟

ما مِنْ مُنْتقم صغير يصعد ثانيةً من لُجَجى كى يوقظ أشباحى!.

وكلٌّ على ما يُرام تظهر ثلاثة وجوه فى الحال. ثلاثة وجوه من قاع الفصل. فى السنة النهائية. لديها العشرات من النقاط لتلحق ببكالوريا اللغة الفرنسية لكن تظل مُحْكَمَةَ السَّد تماماً لما أقوله لها عن كامى[1] الذى كان عليها أن تُقدم روايته الغريب. وجوه حاضرة فى كل الدروس لكن فى مكان آخر كلياً. ثلاثة غُرباء معينين. إلى من لم أستطع أبداً أن أنتزع أدنى دليل على منفعة ما؟ ومنها ضَيِّق الصمت الخناق علىّ فى الدرس المُتقن.

ثلاثة «ميرسول» [2] يخصوننى...

أصبحتْ هذه الوجوه نوعاً من التصور القسْرى. لم يكن باقى الفصل يكفى لأنتزعها من العينين.

ـ أهذا هو كل شىء؟

ـ ...

ـ أهذا هو كل شىء؟

أليس هناك سوى هذه الوجوه الثلاثة ؟

---

(١) كامى (البير كامى) (١٩١٣ ـ ١٩٦٠م) أديب وفيلسوف فرنسى مثالى، من أعلام الوجودية ومن أهم أعماله.. «أسطورة سيزيف» و«المتمرد».

(٢) ميرسول: اسم شخص يعرفه الراوى وهنا يقصد ثلاثة أشخاص يحملون هذا الاسم.(المترجم).

كلا.. هناك ميشيل فى الصف الثانى.. سبعة عشر عاماً ويزيد.. طُرِد حيث كان.. تجمَّد على وصيتى التى تُحصِّنُ فى وقت قياسى اضطراباً هائلاً فى المؤسسة وينتهى بانفجار على مرأى من عينىّ (لكن لم أطلب منكم أبداً. بئس الردىء!).

قبل الاختفاء داخل [أنا] لا أعرف أى حياة.

ـ أتريد آخرين منهم؟ جماعة من صغار اللصوص الذين يسطون على كبرى المحلات رغم دروسى الأخلاقية.. أيرضيك هذا؟

ـ لنفترض أن هذا سيتحسن ونحن نتفوه به.

ـ أيجعلك هذا ترى..أعرفه جيداً.. سرورك سرور إنسان بلا قيمة لجعل الدروس فى العالم كله!لو أنى أصغيت إليك.. ما كنتُ عَلَّمْتُ أحداً.. كنتُ سأستيقظ مبكراً جداً ذات صباح كى أتنزه على شاطئ لاجُود.

ضحك ساخر:

ـ نتيجة..أنا هناك دائماً.. معك.. يمشى التلميذ الكسول بانحراف ويتعلق بـ.. قضية علم الاشتقاق...

ختام محادثتنا.إلى: إلى اللقاء يتوارى داخل أعماقى.. تاركاً لى بعد كل حساب ندم دروس تم تحضيرها على عجل.. عدد كبير من الكراسات التى تُعاد إلى أصحابها متأخرةً على الرغم من تصميمى...

[٧] المدرس الخاص بنا.. المكان مغلق من تعبنا العنيف حيثما نأخذ معيار تنازلنا. سجن متسخ. ندور

فيه دائرياً.. عادةً.. ونحن مهمومون بالبحث عن الجناة أكثر من همنا بالعثور على حلول.

- ٢٠ -

نعم.. نُصغى إلى طنين تجمُّعنا التربوىّ النَّشِط.. حالما تخمد همَّتنا.. يصل بنا شغفنا إلى البحث عن المُذنبين أولاً. تبدو التربية الوطنية منتظمة فى أماكن أخرى من أجل أن يستطيع كل منا أن يشير إلى ما يخصه منها بكل سهولة:

- لم تعلّمهم الحَضَانَةُ إذاً أن يمكثوا؟

يسأل مدرس المدارس الابتدائية أمام أطفال صغار مضطربين ككُرات البليار.

- ماذا صنعوا فى الصف الأول؟

يتضجر مدرس المدرسة الإعدادية وهو يقابل تلاميذ الصف السادس الذين يعتبرهم أُمّيّين.

- أيستطيع شخص ما أن يقول لى ما الذى تعلّموه حتى وصلوا إلى الصف الثالث؟

يتعجب مدرس المدرسة الثانوية أمام ميْل تلاميذه فى الصف الثانى للكلام دونما مفردات.

- إنهم حقاً يجيئون من المدرسة الثانوية؟

يتساءل برفيسور الكلية وهو يدقق فى حزمة من كراساته الأولى.

ـ بيِّنوا لى ما الذى نفعله فى الجامعة؟

يُرْعد صاحب المعمل الصناعى فى مواجهة فتيانه المُرْهَقين.

. تُكوِّن الجامعة ما يتمناه نظامكم تماماً.. يجيب المنتسب الحديث غير الغبىّ جداً: عبيد أميّون وعملاء أعمياء!.

المدارس الكبرى تُعلِّم مراقبى عُمَّالكم. معذرةً (موظفيكم الإداريين)..ومساهموكم يجعلون اللوح الخشبىّ يدور مع أرباح الأسهم.

ـ تخلىّ العائلة عن دورها.. تأسف وزارة التربية الوطنية.

ـ لم تعد المَدْرسة كما كانت.. تتأسف العائلة.إلامَ تنضم القضايا الداخلية فى كل مؤسسة تحفظ ماء وجهها نزاع القدماء الأزلىّ والمحدثين.. على سبيل المثال:

. خزىٌ لـ (مربّين البُلداء)!. يصيح نُقَّاد الغوغائية (الجمهوريون)(*).

ـ فليسقط الجمهوريون النخبويّون! .

يهاجم بشدة المُربّون باسم الثورة الديمقراطية.

ـ النقابات تعضُّ الآلة! يَدَّعى موظفو الوزارة.

ـ نظل ساهرين! ترد النقابات.

ـ نسبة مئوية مشابهة من الأميين فى الصف السادس.. لم يكن يحدث هذا فى زمنى.. يأسف الحرس القديم.

(*) نسبةً إلى الحزب الجمهورى فى أمريكا واوروبا. (المترجم).

ـ لم تكن المدرسة الثانوية فى زمننا تتلقى إلا بعض النصائح من الهيئات الإدارية ذات السروال القصير.. يتهكم المهرج.. كان هذا هو الزمن الجميل.. أليس كذلك؟

ـ كل البورتريهات هى لأمكِ.. أيها الصبىّ؟

ينفجر الأب الغاضب مُهدِّداً.

ـ لو كنتَ أقل قسوة فى تعامُلكَ معه.. ما كان ليكون هناك لتردّ الأم المُستاءة.

ـ كيف أعمل فى مناخ عائلىّ كهذا المناخ؟

ينوح المُراهِق المُحبَط فى أُذنىّ المدرس المتسامح. حتى التلميذ الكسول.هو بنفسه.. الذى بعد لجوئه إلى القسوة المنهجية كى يُرسل مُدرّسه يُعالَج فى المستشفى من انهيار عصبى طويل.. هو أول من يُبيّن لكم بلطف:

ـ سيدى أونتل كان ينقصه التأثير. وإن لم يكن كل هذا يكفى.. فلدينا دائماً الحِيلة لنشير إلى مَن منا يرتدى قبعة قصورنا المعرفى:

ـ لم أتمكن من شىء. أنا هكذا.كان يكتب إلى أمه التلميذ الكسول الذى كنته وهو يسأل ما إذا كنا نَفيْنا المستر هيد الذى لم يمنع چيكل من أن يكون دكتوراً جيداً إلى أبعد مكان فى قارة إفريقيا فلنصنع شيئاً رائعاً منعشاً. المُدرّسة شابة.. مستقيمة.. ليست مثقفة.. ولا هى مسحوقة بثِقَل القضاء والقَدَر.. حاضرة هى تماماً.. وفصلها ملىء بكل التلاميذ..

آبـاء.. زمـلاء.. وأربـاب عـمـل فـرنـسـا ونـافـار.. إلى من يتلاقون ـ أضفنا عدة مقاعد ـ الوزراء العشرة الأوائل للتربية الوطنية.

ـ حقًا. لم نتمكن من شيء؟

تسأل المُدرّسة الشابة والفصل لا يجيب.

ـ جيد ما سمعته منذ قليل؟

(لم نتمكن من شيء؟)

صمت.

حينئذٍ.. تمد المُدرّسة الشابة قطعة طباشير للوزير الأخير وهو لا يزال في منصبه وتطلب:

ـ اكتب لنا هذا على السبورة: لم نتمكن من شيء.

ـ أنا لستُ من قال هذا. يعترض الوزير. بل هم موظفو الوزارة!.

إنه أول شيء يعلنونه لكل قادم جديد: (مهما يكن من أمر.. يا سيدي الوزير.. لم نتمكن من شيء!) لكني.. مع كل الإصلاحات التي اقترحتها لم أستطع أن أرتاب من قول شيء مماثل!.

ليس هذا ـ بعد كل حساب ـ خطئي لو أن عدداً من الأثقال يمنع نبوغي المُصلِح من التعبير عن أفكاره!

ـ قليلون من قالوا هذا.. تجيب الشابة المدرسة المبتسمة.. اكتب لنا هذا على السبورة:

لم نتمكن من شيء/ On n’y peut rien

On y peut rien.

ـ أضف n ص أمـام .. y هـذا الـ n ص يُعـتـبـر مُشكلة وليس إلا قليلاً!

On n y peut rien

ممتاز ماذا يكون هذا الـ [y] فى نظرك؟

ـ لا أعرف.

ـ إذًا.. يا أصدقائى الجيدين.. يجب تحديداً أن نجـد مـا يـريـد أن يقـوله هـذا الـ ..[y] وإلا.. نـكون جميعاً سيئين.

٤

أنتَ تفعَلُها عَمْدًا

لمْ أفعلْها عَمْدًا

ـ ١ ـ

فيركور.. الصيف الماضى. نحتسى جرعةً من خمر.. V (١) وأنا.. على رصيف لا باكسول.. ونشاهد فى استرخاء قطيع ماشية جوزيت لدى عودته من الحقول. V الذى أصبح مثلى فى سن التقاعد يسألنى عما أكتب فى هذه اللحظة.أخبره به.

ـ آه! التلميذ السيئ! وعلى ذلك أعرف عنه شعاعاً..لأنى لم أكن سهماً فى المَدرسة..إنه أنا من يقوله لك.

ذات زمان.

ـ تَرَكْتُه بمجرد أن استطعتُ.. فى أماكن أخرى. أوه.. هناك!.

تتبع جوزيت الأبقار وهى فوق دراجتها(٢). تتحصن باثنتين يرتديان حذاءين أبيضين.

ـ كنتُ غبياً.. يواصل V.. لكن ماذا تريد.. فى هذا العمر لا نسمع سوى دَمِنا.

(١) أحد أصدقاء المؤلف لكنه لم يُصرّح باسمه.(المترجم).

(٢) المعنى القاموسى لهذه الكلمة هو الأرجوحة.لكنها هنا تستخدم كاسم علم لأحد الأماكن.(المترجم).

ذات زمان.

- لأن هذه لها فائدتها..إنها المَدرسة! لو كنتُ بقيتُ فيها.. بدلاً من أن أُبَقر بطنى من أجل أن أربح ثلاثة فلْسات (*).. لكنتُ اليوم رئيس عمل.. كنتُ أقود أشخاصاً متعدّدى الجنسيات!.

مساء الخير يا چوزيت!.

- ...

- أود أن أقول.. كنتُ سأقودهم إلى شفا الكارثة.

وحين أرسلهم إلى القاع سأرحل بصحبة شيك ضخم وتهنئات الرئيس مَرَّ القطيع.

- بدلاً من هذا...

يفكر. V يبدو مُبْتلاً بالسيرة الذاتية.. لكنه أقلع عنها:

- أخيرًا. لم أفعلها عمدًا...

يتوقف برهةً على هذه البيِّنة.

- دون مزاح. كانوا يعتقدون أننى فعلتها عمداً..لكن كلا!.

كنتُ كَجِرْوٍ صغير.. كنتُ سأركض وراء خَطْمى.

(*) الفلس: هو جزء من عشرين جزء من الفرنك العملة الفرنسية قبل استخدام العملة الأوروبية الموحدة /اليورو-(المترجم).

- ٢ -

الحقيقة أن أحد الاتهامات الأكثر تكرارًا، والتى تُلقيها الأسرة والمُدرسون على التلميذ الكسول هو(أنت تفعلها عمدًا!) التى لا مفر منها. إما اتهام مباشر (لا تحْكِ حكاية..أنت فعلتها عمدًا!)..إما سُخْط متتابع بتوضيحات شتى (لكن.. هذا ليس ممكناً.. أنت تفعلها عمدًا!).. وإما معلومة مرصودة لثالث.. أن المُشتبه فيه سيحوز مفاجأة.. فلنقل.. ونحن نُصغى إلى باب والديه (أقول لك إن هذا الصبىّ يفعلها عمداً!).

كم مرة سمعته بنفسى.. وفيما بعد تلفظت به.. هذا الاتهام.. إصبع ممتد نحو التلميذ أو نحو ابنتى أنا حين كانت تتعلم كيف تقرأ.. لو أنها تلعثمتْ قليلاً. إلى اليوم الذى فيه فكرتُ فيما كنتُ أقوله هناك.

أنت تفعلها عمدًا.

فى كل حالات المجاز. نَجْمُ الجملة هو الظرف (/ عمدًا) expres. هو فى مملكة النحو شريك بشكل مباشر للضمير(tu /أنت).أنت عمدًا! أما الفعل

(faire /يفعل) فهو فعل ثانوىّ والضمير الشخصى [le] (*) لا لون له كلية.

المهم.. ما يرنُّ فى أذن المتَّهَم. إنها حقيقةُ هذه الـ (أنت عمداً).. التى تجعله يفكر فى سبَّابة ممدودة.

أنت المذنب..

المذنب الوحيد..

والمذنب عن قصد. مع هذا!.

هكذا تكون الرسالة.

الـ (تفعلها عمدًا) التى يقولها البالغون تهبط أثناء (لم أفعلها عمداً) التى يقولها الأطفال، والتى تُشى بغباء موظَّف ذات مرة.

معروضةٌ بحِدَّة لكن دونما توهمات كبرى.. تقود تلقائيا (لم أفعلها عمداً) تقريباً إلى إحدى الإجابات التالية:

ـ آمل تمامًا!.

ـ سعيداً أيضًا!.

ـ كان يخفق أكثر من هذا!.

هذا الحوار المعكوس ليس مؤرَّخاً بيوم أمس. وكل بالغى العالم يجدون جوابهم الروحانىّ على أية حال للمرة الأولى فى (لم أفعلها عمدًا). يفقد الظرف (exprès /عمدًا) قليلاً من قدرته.. فيما لا يكتسب الفعل (faire/يفعل) منها شيئاً. بل يمكث نوعاً من

(*) هنا يحل محل مفعول مباشر مفرد مذكر وتنوب عنه الهاء فى تفعلها (المترجم).

الأفعال المساعدة.. (*)والضمير [le] يعد دائماً سهلاً. ما يبحث المذنب ليجعله يرنُّ فى آذاننا. هنا.. هو الضمير(je/ أنا) المشارك لـ (pas/لا) فى النفى. على (أنت عمداً) الخاصة بالبالغ تجيب الـ (أنا لا) الخاصة بالطفل.

ليس ثمة فعل. ولا ضمير مفعول. ليس ثمة سوى أنا. فى هذا المكان. هذا الـ (je /أنا). متأسفةً على هذه الـ (pas/لا).. مَن يقول ماذا. فى هذا الشأن.. أنا لا أملك نفسى.

- لكن طبعاً سوى لو.. كنت فعلتها عمداً!.

- لا.. لم أفعلها عمداً!.

- أنت عمداً!.

- أنا لا!.

حوار الطُرْشان.. حاجة لانتعال حذاء فى لمسة.. لتأخير النهاية. نفترق دون حلٍّ ودون توهمات.. بعضنا مقتنع بألا يكون مُطيعاً.. وبعضنا الآخر مقتنع بألا يفهم.

هنا يستطيع النحو أن يبدو مفيدًا أيضًا.

لو كنا نرضى - على سبيل المثال - بالاهتمام بهذه الكلمة المهجورة والتى لا تُرى فى ميدان الجدال. هذا الـ [le] الذى جذب سراً كل خيوط حوارنا. هيا.. ثمة تدريب نحوى صغير على الطريقة القديمة.. تحديداً لنرى كيف كنتُ أفعله مع (مُهيّأتى).

(*) الأفعال المساعدة فى اللغة الفرنسية تساعد فى تكوين الأزمنة ولا يكون لها معنى فى هذه الحالة.(المترجم).

ـ من يستطيع أن يقول لى ماذا يكون هذا الـ
فى [le]

(tu le fais exprès)

ـ أنا..أنا! إنها أداة يا سيدى!.

ـ أداة؟ لماذا أداة؟

ـ لأن le..la ..les يا سيدى! إنها أداة تعريف
حتى! بنبرة الانتصار. أرينا للمدرس أننا كنا نعرف
شيئاً ما.

Un..une..des.. أدوات النكرة. و ..le..la..les
أدوات المعرفة. هى ذى.. المسألة تلتوى.

ـ آه.. حسناً! أداة تعريف؟ وأين أيها العفريت
يوجد الاسم الذى تُعرِّفه هذه الأداة؟

ـ ...

نبحث.

ليس ثمة اسم.

حيرة.

ليست أداة.

ماذا يكون هذا الـ [le] ـ ...

ـ ...

ـ إنه ضمير يا سيدى؟

ـ أحسنت.أى نوع من الضمائر؟

ـ ضمير شخصى!.

ـ لكن أيضاً؟

ضمير مفعول.

ـ حسنًا. جيد جدًا. هو ذاك. الآن نترك الفصل ونعود إلينا نحن.. فلنحلّل ضمير المفعول هذا فيما بين البالغين.

باحتراس. إنها كلمات خطِرة.. ضمائر المفعول.. سمات ضد شخصية تُدفن تحت المعنى الواضح والتى تقفز فى الوجوه لو أننا لم ننتزعها هذا الـ [le] على سبيل المثال.. كم مرة تساءلنا. ناطقين الاتهام (أنت تفعلها عمداً).. ما الذى يعبر عنه ضمير المفعول بالنظر إلى ذلك؟ تَعمَّدَ عمَلَ ماذا؟الغباء الأخير..[le] فى الأهمية؟

لا.. النبرة التى ألقينا بها هذا الاتهام (لأنه توجد نبرة أيضاً) تجعلنا نسمع بوضوح أن المذنب يفعلها عمداً دائماً.. أنه فى كل مرة يفعلها عمداً.. أن هذا الغباء الأخير هو تأكيد لتصلب الرأى هذا حينئذٍ.. تعمَّدَ عمل ماذا؟

ألا تُطيعنى؟

ألا تعمل؟

ألا تفكر؟

ألا تفهم؟

ألا تحاول الفهم حتى؟

أن تعارضنى؟

أن تسخطنى؟

أن تغيظ مُدرسيك؟

أن تُحْزِن والديك؟

أن تخضع لأردأ ضعف فيك؟

أن تدمّر مستقبلك وأنت تُفسد حاضرك؟

أن تسخر من الناس؟

هو ذاك.. ما هو؟..أتسخر من الناس؟ أتُثيرنا؟

كل هذا.. نعم..لو نريد.. فلنقبل.

حينئذٍ يُوجَّه سؤال الظرف. لمَ عمداً؟ فى أى ختام؟

لأى سبب يفعل هذا؟ عليه أن يتتبع جيداأهدفاً بحيث يفعله عمداً. عمداً من أجل ماذا؟

ليتمتع باللحظة؟ يتمتع باللحظة بكل بساطة؟لكن اللحظة التالية والتى لا مفر منها.. تلك التى يقضيها برفقتى.. هى أسوأ ربع ساعة.. بما أننى أوبّخه لربما يريد أن يعيش بسلام فى حالة الكسل.. غير مكترث بالتوبيخات؟نوع من المُتّعية(*)؟ كلا.. هو يعرف جيداً أن سعادة عدم فعل شىء تشترى نظرات الازدراء..أو التوبيخات القاطعة..التى تُحْدث تقززه من نفسه. إذاً؟ لماذا يفعلها عمداً مع ذلك؟ كى يجذب احترام التلاميذ الكسالى الآخرين؟

لأنه ثابر.. أيكون هذا غدراً من وجهة نظرهم؟

إنه يلعب عن قَصْدٍ السيئين ضد الجيدين.. الشباب ضد المُسنين؟ إنها طريقته هو للاندماج فى المجتمع؟

(*) مذهب يقول بأن اللذة والسعادة هى الخير الأوحد او الرئيس فى الحياة.(المترجم).

إنْ نريد. على أى حال.. هى الأطروحة المفضلة للحداثة: قَبَليّة عدم الكفاءة.. فرار كل التلاميذ السيئين فى مستنقع فسيح حيث يتجمهر الأوباش. أطروحة لديها خزانة بها هذا التفسير الذى يستريح على حقيقة اجتماعية مؤكدة.. الظاهرة موجودة.. دون أدنى شك. لكن الأطروحة تُجْلى الشخص.. دائماً منفرد.. من الصبى الذى.. ظاهرة الجماعات أم لا.. يلتقى وحيداً فى لحظة أو فى أخرى.. وحيداً فى مواجهة إخفاقاته.. وحيداً فى مواجهة مستقبله.. وحيداً.. فى المساء.. فى مواجهة نفسه.. قبل أن يذهب لفراشه. فلنتأمله إذًا. نشاهده وحيداً. من يستطيع أن يراهن بسنتيم(*) على شعوره بالرفاهية؟ من يستطيع أن يَشكً فيه بصدد يفعلها عمداً؟

أنت تفعلها عمدًا...

ثمة افتراض:

أيستطيع بالرغم من كل قاعدة نحوية أن يشير الضمير(le) أيضاً إلى شىء ظاهرىّ فى الجملة؟

نحن أنفسنا على سبيل المثال... تَقَهْقر صورتنا فى أعيننا نحن. صورتنا.. التى إلى حد ما تحتاج هى أيضاً.. إلى مرآتها الجيدة. ضمير (le) الذى يتهم الآخر. هنا الفاعل السيىء. بإرساله لى صورةَ بالغ عاجز وقَلِق. ضحية عدم قبول الدعوى المُبْهَم.

(*) جزء من مائة من الفرنك الفرنسى سابقاً.(المترجم).

الله يعلم رغم ذلك أنهم أسوياء.. الأخلاق التى أريد أن أرسّخها فى ذهن هذا الطفل! ويُقر شرعاً بالمعرفة التى أوزعها على هذا التلميذ!.

على عزلة الطفل ترد عزلتى الخاصة بى كبالغ.

أنت تفعلها عمداً.

وحين يَعْنى فصلاً كاملاً.. حين يروح نحو ثلاثين تلميذاً فى فعلها عمداً.. يجرب المدرس الذى أكونه شعوراً جلياً لأن يصبح مادةً للسَحْل الثقافى. ولو أن هذا الـ (le) أحزن جيلاً كاملاً - (كان هذا غريبًا عن زمنى!) - .. لو أن أجيالاً متعاقبة فعلتها عمدًا.. حينئذٍ نعيش كوكلاء أخيرين لنوع على وَشَك الانقراض.. الباقون من العصر السابق حيث مرحلة الشباب (نحن أنفسنا.. فى ذاك الزمن) كانت متسامحة معنا.

ونحن نشعر جيداً بمفردنا فى حياة كهولتنا.. أننا دائماً ثاقبو الفكر طبعاً.. يقظون وكيف!.

أكفاء إلى أى مدى! فيما بيننا إجمالاً.. كأننا كنا شباباً.. نحن بعض الشهداء على العصور المتحضرة.. نحن الذين نواصل التفكير بدقة.. مستبعدون مما أصبح.. على الرغم منا.. من الواقع.

مُستبعَدون...

لأن شعور الاستبعاد لا يُحزن فقط السكان المُبْعدين بعد ذلك من الدائرة المُحيطة.. إنه يهددنا نحن أيضاً.. أكثرية السلطة منذ أن كففنا عن فهم

جزء صغير مما يحيط بنا.. منذ رائحة الاستهجان أنْتَنَتْ هواء زمننا.

يا له من اضطراب نجرّبه إذًا!.

وكأنه يدفعنا إلى أن نشير إلى المذنبين.

ـ أنت تفعلها عمدًا!.

ضمير صغير جدًا جدًا من أجل العزلة إلى حد ما!.

ـ ٣ ـ

جملة اعتراضية بصدد شعور الاتهام هذا الخاص بالأكثرية القَلِقة. حين كنتُ مراهقاً.. كنا على أي حال اثنين لنفعلها عمداً. بابلو بيكاسو(*) وأنا. النابغة والتلميذ الكسول. لم يكن التلميذ الكسول يفعل شيئاً وكان النابغة يفعل أيّ شيء..لكن عمداً.. كلا الاثنين. كانت هذه هي النقطة الوحيدة التي نشترك فيها معاً. غالباً..حول موائد يوم الأحد.. كان البالغون يَذمّون بيكاسو: بَشِع!.

رسَّامٌ للمتحذلقين!.

الـ (أيّ شيء) المُشَيَّد في فن عظيم...

رغم هذا العصيان كان بيكاسو يتدفق كطحلب: رسماً.. تصويرًا.. نقشًا.. خزفًا.. نحتًا.. ديكورًا مسرحياً.. وحتى أدبًا.. لقد أتقن كل هذا.

ـ كان يبدو أنه يعمل بأقصى سرعة!.

(*) بيكاسو «بابلو بيكاسو» (١٨٨١ ـ ١٩٧٣م) رسام إسباني، من أشهر رسامي العالم استلهم فكرة التكعيبية من دراسة سيزان إلى جانب الفن البدائي والنحت الإفريقي، ثم أرسى أعمدة المدرسة التكعيبية مع نظيره جورج بروك ومن أشهر أعماله لوحة «الجرينكا» و «مأساة كوريا».

إحدى هذه الطحالب الولودة جاءت من محيط ضخم جداً لتلوث خلجان الفن الهادئ.

ـ إنه سَبٌ لذكائى! لن أقبل أبداً أن يسخر أحد منى.

إلى درجة أننى ذات يوم أحد قمتُ بدور المدافع عن بيكاسو وأنا أسأل السيدة التى أتت لتكرر هذا الاتهام لمرات لا تُحصى: ماذا كانت تعتقد بإنصاف فى ذلك الصباح لو أن الفنان أفاق على فكرة عمل شئ دون إتقان وصنع لوحة صغيرة بقصد أن يسخر وحده من السيدة جينيڤيَف بليجرو. الحقيقة أن هؤلاء الناس المقْدامون كانوا يبدأون فى تكبد إحساس الاتهام.. كانوا يدخلون فى عزلة. لقد منحوا الرسام مهارة انطواء فظيعة. كان المشعوذ يُجسّد له بمفرده عالماً جديداً.. مُهدداً إياه فى اليوم التالى.. حيث كانت عشيرة بيكاسو يُحولّون كل البليجرويين(*) إلى شخص واحد.. بل وأيضا ساذج.

ـ وبعدُ..ليس أنا! أنا..لن يُسيطر علىّ!.

كانت جينيڤيَف بليجرو تجهل أن المعدة.. كانت هى.. التى راحت تهضم بابلو بيكاسو كالباقين.. ببطء طبعاً.. بل بلا رحمة..إلى الحد الذى كان أحفادها يركبون بعد أربعين عاماً إحدى السيارات العائلية المصممة بشكل قبيح للغاية.. هى فتيل عملاق يمنحه أحفاد بليجرو الجُدد اسمَ الفنان. والذى كان يقدم لهم ذات يوم أحد جميل حَكَّة ثقافية.. على أبواب متاحف بيكاسو.

(*) إشارة إلى كل من يَمُتُّ للسيدة جينيڤيَف بليجروبصلة قرابة.(المترجم).

-٤-

نوايا الأكثرية ممن بأيديهم مقاليد الأمور شرسة...آه!.

مؤيدو قانون.. ومهما كان: قانون ثقافى.. قانون عائلى.. قانون مُنْشأة.. قانون سياسى.. قانون دينى.. قانون قَبيلة.. نادٍ.جماعة.. حىّ.. قانون الصحة.. قانون العضلات أو قانون المخ.

كأنَّهم ينكمشون ما إن يَشُمُّوا ما لا يُدْرِك.. حُراس القانون.. كأنهم يعيشون فى مقاومة آنذاك.. ثمة من يُعاهدهم بمفردهم فى مواجهة دسيسةٍ عامة!.

هذا الخوف من كونهم مُهدّدين بما يخرج من حوض الجلود.

آه.. شراسة القوىّ حين يُمثِّل بالضحايا!.

الثرىُّ حين يُعَسْكِر الفقر أمام بابه!.

الزوجين المختومين أمام طلاق العائلة الصادم!.

الجذورِ حين تشم التشتت!.

المؤمن ضارباً الكافر!.

حامل الشهادة مُحترمًا الغبىّ الذى يتعذر سبْر أغواره!.

المتكبر الأبله بكونه مولوداً فى مكان ما!.

وهذا يُساوى بالنسبة إلى زعيم الضاحية الصغيراتهام العدو على رصيف المواجهة.. كأنهم يصبحون خطرين.. أولئك الذين فهموا القوانين.. حتى الأطفال لابد وأن يرتابوا منهم.

- ٥ -

لم أُقَدِّره بشكلٍ أفضل أبداً إلا ذات صباح من صباحات العُزْلة.. لم أقدر الخوف الشرير لمن يشعر أنه مُقْصًى.. وهو يواجه الذين يكونونه حقًا. في ذاك الصباح.. لم أستيقظ.مينفى مكان ما في الجنوب ـ الغربى. تزور تلاميذ مدرسة ثانوية فنية في منطقة تولوز. كاتبة مَدْعُوَّة. هذا الصباح.. إذًا.. ليس ثمة استيقاظ عاشق تحت رعاية الكافيين. علىَّ أنْ أباشر في التوّ كتابى.. لكن.. إطلاقاً.. أبقى في سريرى.. أنظر في الفراغ.. مثلما كنتُ قديماً أمام الواجب الذى لم أؤدّه (لا تُزْعجوا الصغير..إنه يعمل). أخيراً.. أُشْعل المذياع. موجتى المفضلة. إنه يوم وساعة واحد من برامجى المفضلة. مرةً أسبوعياً.. تتقابل عقولٌ مُكَلَّفة رسمياً تتحدث اليوم بنبرةٍ نادرة جداً عن أناس لا يملكون شيئاً ليبيعوه. في البرنامج نتبادل بتمهل بعض الأفكار في معرض دراسات كتبناها منذ قليل.. إحالات ذكية إلى ما قرأناه. بالضبط.. ما أنا بحاجة إليه في صباح التكاسل هذا.. سأفكر من أجلى. لا نقل لأحد.. سأستهلك الفكر بتوان بقدر ما أستمع إلى أول مسلسل قادم. لذيذ. يسيل لُعابى على

موسيقى المُقدمة.. وأتركنى منذ المقدمة أنزلق داخل حَلَبة العبارات.. أعلو بفتور بواسطة حلزونيات إقامة الحُجة.. وأشعر بأننى على ما يُرام.. فى أرض المعرفة.. مطمئناً بدماثة الأصوات.. بليونة الأسلوب.. بوكيل الكلام.. برصانة النبرة.. بحِدة التحليلات .. بالبيشاميل [1] الذى لا عيب فيه، والذى به يصنع المشرف على البرنامج وثاقاً بين القضايا التى هى فى حالة مواجهة.. يُهدّئ الخصومات الطارئة.. ويُنمّى بوفرة فكرته الخاصة...

دائماً ما كنتُ أحب هذا البرنامج.. هو من بين بقية البرامج.. لما فيه من مميزات لباقته. أقوم فيه بصقل الواقع إلى الحد الذى يُرجعه لى مقروءاً.. إن لم يكن مُطمئِناً. يُتّفق أن المحادثة.. فى ذاك الصباح.. تأخذ فى الدوران حول شباب [الأحياء][2].

فى لحظة مُعطاة.. تتحدث أصواتى الثلاثة عن فيلم. أُصيخ السمع.الفيلم الذى يبدو أنه آذى المشرف على البرنامج. إنه فيلم عن الضاحية. مُطلَقاً.. إنه فيلم عن مسرحية ماريڤو . مطلقاً.. إنه فيلم عن مشروع تربوىّ. أجَلْ.هو كذلك.. إنه فيلم عن تلاميذ المدارس الثانوية فى الضاحية لحظة تمثيلهم مسرحية ماريڤو تحت إشراف مدرس اللغة الفرنسية. يُسمى التَّجَنّب. ليس فيلمًا وثائقيًا. بل فيلمًا دراميًا كالفيلم الوثائقى. لا يقول الحقيقة. إنه يحاول أن يُعطى

(١) صلصة بيضاء، المشهورة. (المترجم).

(٢) الأحياء العسكنية.(المترجم).

التصور الأكثر صدقاً وإمكانيةً منها. أُصغى بانتباه لا سيما وأننى رأيتُ الفيلم الذى نحن بصدده. لم أكن منفعلاً.. رغم ذلك: فيلم عن المَدرسة.. أيضاً.. وعن الذى يحدث فى الضاحية..أكثر من مرة...

رأيته.. بيْد أنى بلا شك مدفوع بفضول وراثىّ. (أرواح الموتى للعم چول: (اذْهبْ لترى التجنب.. يا ابن أخى..لا تُناقش!) وقد أدّى هذا إلى لحظة مُواتية: مدرس يدل تلاميذه على طريق المسرح.. على درب أكثر الرسائل روعةً. يصعد تلاميذ الفصل لعبة الحب والمصادفة لماريڤو. نرى فيها صبياناً خَصّصوا لهذا التمرين الطاقةَ والتركيزَ اللذيْن لا يُنهِكان لا قصص حبهم ولا مشكلاتهم الخاصة بالعائلة أو بالحىّ.. ولا منافساتهم المراهقة.. ولا تجاراتهم الصغيرة.. ولا صعوباتهم اللغوية.. ولا حتى منزلة المسرح المرموقة.. فاعلية (المُهرّج) هذا.

خرجتُ من هذه السينيما فى حالة حماس يصحبنى يقين أجتذبه من معظم انتقالاتى فى مدارس الضاحية الثانوية: العم چول لم يمت!.

اليوم ما زال يوجد أعمام چول وعمّات چولى الذين رغم صعوبة هذه الإنقاذات الخارقة سيبحثون عن الأطفال حيثما يكونون كى يرفعونهم إلى مستواهم هم أنفسهم عبر دروب اللغة الفرنسية الضيقة.. لغة القرن الثامن عشر بناءً على ذلك. إطلاقاً ليس هذا هو إحساس المشرف على برنامجى المفضل. هو ليس

مُطْمئناً أبداً. ليس ثمة أدنى حَمية. خرج من السينما مرعوباً من لغة شبابه ما إن كفوا عن صداقة ماريڤو. يا إلهى.. من هذه اللكنة!من هذا النباح المتواصل! من هذا العنف! من هذا الفقر فى المفردات! من هذه التجشؤات! من هذا الكلام الجنسى البذىء.. من هذى الشتائم!.

آه.. كم عانت اللغة الفرنسية بنفسها طوال هذا الفيلم!.

كأنه يشعر بألم فى لغته الفرنسية! ماذا قلتَ.. مهددة.. لا بل مذمومة! مذمومة بشكل نهائىّ بهذه الضغينة اللغوية! ماذا قد تصبح اللغة الفرنسية؟ ماذا قد تصبح فى مواجهة هؤلاء الفوضويين من التلاميذ الكسالى الذين يصيحون؟

لسوء الحظ لم أُدوِّن هذا النصَّ.. بارعَ الأسلوب.. لكن ثمة شيئًا جوهريًا فيه.. لم يعد رجلاً كان يتحدث عن مراهقيه .. كان هذا هو الخوف داخل الرجل. فى مكان آخر كان يبدو محدثوه مُباغَتين قليلاً. كان المستمع يُخمن بالإيماءات أنصاف الحركات التى كنا نُجرّيها لنطمئنه.. لكن دونما جدوى.. كان الخوف هو الأقوى. لبرهة كان شعر رأسى ينتصب.. وانتهى الأمر بى إلى أن أقول.. وأنا بمفردى فى سريرى الكبير:

أنت مجنون إذ تركتَ زوجتك تذهب إلى هؤلاء المفترسين.. سوف يغضبون لها من أجلك غضباً شديداً!.

بدلاً من شيء ما.. تولدتْ لديّ رغبة فى أن أضم المشرف على البرنامج بين ذراعيّ وأن أطمئنه. هناك.هناك.. اهْدأ .. أنت تعرف الفقير يتحدث بقوة. إنها إحدى مميزاته.. ثابتة تاريخية وجغرافية.. يتحدث بقوة منذ الأزل وفى العالم أجمع.. يتحدث بقوة لاسيما وهو محاط بالفقراء.. الفقير ومَن يتحدثون بقوة هم أيضاً موجودون ليسمعوا.. هل تفهم؟

لدى الفقير حاجز رقيق يشتم كثيراً.. هذا صحيح.. لكن دون أن يفكر فى الأذى.. اطمئن.. كلما يهبط الفقر على الجنوب كلما يشتم الفقير جنسياً.. لا بل دينياً.. لا بل الاثنين معاً.. لكن بشكل طبيعيّ. تقريباً لأنه لم يلتقيك فى طريقه لتجعله يلاحظ أن هذا مؤذٍ. امسك.فقط فى طفولتى.. (عاهرة عذراء!) كان يقولها فقراء قريتى.. لم يتوقفوا عن قول (عاهرة عذراء!)..إنها هى (بورسا مادونا) الفقراء القادمين من الجنوب الإيطالى.. ومع ذلك لم يكونوا يحقدون لا على عاهرة مساء السبت ولا على مريم عذراء يوم الأحد. إنه أسلوب فى الكلام.. حين كانوا يهبون أنفسهم ضربة مطرقة على الأصابع.. هو ذاك كل شيء! ضربة مطرقة على السبابة.. و.. هوب(*) لفظ مغربى مزيج: (عاهرة عذراء!).

هل كنتَ تعلم أن الفقراء يمارسون المغربية المزيج؟ وبعد! إنها نقطة مشتركة فيما بيننا.. لنقل هذا!.

(*) لفظة تستخدم للحض على الإسراع فى عمل ما.(المترجم).

نحن القلم.. هم المطرقة.. لكننا معاً مغربية مزيج!

لستُ متحمساً؟ أنت من يخاف ما دام تدفق صبيرهم(*) لا يكنس كل حجج لغتنا الدقيقة.. كان على هذا أن يطمئنك! آه! أردتُ أن أقول لك كذلك لا تخشَ صبيرهم. فصبير الفقير اليوم هوعاميّة فقير الأمس.. لا أكثر ولا أقل!.

منذ الأزل والفقير يتحدث العاميّة.. هل تعلم لماذا؟

كى يجعل الثرىّ يعتقد أنه يمتلك أشياء يستطيع أن يخبئها!.

ليس لديه شىء يخبئه.. بالتأكيد.. إنه فقر مدقع. فقط.. بعض التجارات هنا وهناك.. بعض الهنات.. لكنه حريص على جعله يعتقد أن ما يخبئه عالم كامل.. عالم نحن مُحَرّمون عليه.. عالم فسيح جداً قد يحتاج إلى لغة للتعبير عنه.

لكن ليس ثمة عالم.. بالتأكيد.. ولا ثمة لغة.. فقط معجم تواطؤ صغير.. على سبيل المثال.. يمكث دافئاً.. ويُقنّع اليأس. ليست هذه لغة.. العامية تحديداً.. هى ألفاظ .. لأن نَحْوَها بالنسبة إلى الفقراء هو نَحْوُنا.. بعد اختصاره بالتأكيد. فاعل.. فعل.. مفعول.. لكن نحونا.. نحوكَ فاطمئن.. نحوكَ الفرنسى لك.. أما نحونا فللجميع.. يحتاج الفقراء إلى نحونا. كى يتفاهمون فيما بينهم. تبقى ألفاظهم..

(*) الصبير: هو لغة مزيج من العربية والفرنسية والإسبانية والإيطالية (المترجم).

بالتأكيد.. لشباب أكثر من نطاق.. ألفاظ تعتبرها من الفقر العظيم (واعتبارها من سموِّكَ.. ليس مُرِيبًا)

لكن اطمئن أيضًا..إنها فقيرة جدًا.. ألفاظ الفقير هذه.

إن أغلبية الكلمات تغضب بسرعة جدًا على يد ريح التاريخ.. أعواد حطب.. أعواد حطب.. لا يكفى تأمّلٌ لكى يُثقّلها.. تقريباً ما من لفظة منها توضع فى القاموس: meuf.. keuf.. teuf (*) على سبيل المثال.. لشباب اليوم هؤلاء.. هذا كل ما وجدته..

بحثتُ باسترخاء.. يجب أن نقول.. لربع ساعة.. لكن لم أجد إلا ..(teuf)..(keuf)..(meuf) فى القاموس.. هذا كل شىء.. أنت ترى شخصاً نكرة.. ثلاثة أسماء شائعة جداً ستختفى ذات يوم قالبة صفحة العصر. القواميس لا تصون سوى قشة الأبدية.

كلمة أخيرة كى تَطمئن تماماً: اذهب إلى مكتب البريد.. افتح باباً.. اركب مترو.. ادخل متحفاً أو مكتب أمن اجتماعى.. وسوف ترى.. سيكونون: الأم..الأب.. الأخ.. الأخت الكبرى لهؤلاء الشباب الذين سيستقبلونك بلغة يُرثى لها جالسة خلف شباك التذاكر. أو افعل مثلى.. اسقط مريضاً.. استيقظ فى المستشفى، وسوف تتعرف على لَكْنَةِ المُمرض الشاب الذى يدفع سريرك فى اتجاه مبنى الجراحة:

(*) كلمات يستخدمها العامة وليس لها معنى فى القاموس. (المترجم).

ـ ليس ثمة هلع. يا أخي.. سيجعلونك تسترد قُواك من جديد!.

- ٦ -

ما يجعل الكيْل يفيض هو أن أحد كل الأسئلة الأولى التى يوجهها التلاميذ إلىّ فى فصول الضاحية حيث يدعونى المدرسون.. سؤال يخص فجاجة لغتى. لماذا يوجد كمٌ من الكلمات الضخمة فى رواياتى؟ (إيه.. أجلْ.. يا صديقى.. مراهقوك المُرْعِبون جداً يُظهرون القلق نفسه الذى لديك: لماذا يوجد كمٌ من العنف اللغوىّ؟)

بالتأكيد.. يوجهون هذا السؤال كى يُجاروا مدرسهم.. قليلاً .. كى يبحثوا عن احتضانى أنا شخصيًا.. أحيانًا.. لكن أيضًا لأن الكلمة أمام أعينهم لا تصبح حقيقة ضخمة إلا حين تكتب. (نهتز) شفاهيًا منها.. (تتقاتى الخصى) على امتداد الاستراحة.. (نسخر من أمك) باسم الأرغن.. لكن نجد كلمة (خصية) أو الأفعال (يهتز).. (يسخر) سواد فوق بياض.. فى كتاب.. حين يكون مكانها الطبيعى على جدران الحمامات.. حينئذ هذا...! فى مكان آخر فى مرحلة التبادل هذه.. وفى أكثر الأحيان.. تتطوع إحدى المحادثات الناطقة باللغة الفرنسية بين التلاميذ

وبينى: بدءًا من عامية رواياتى.. بدءًا من العامية كلغة إحلال وتبديل.. لغة إخفاء .. وعلى أى حال لغة تواطوء.. فى معرض استخدامها.. فى العنف بكل تأكيد.. بل فى الحنان أيضاً (أكثر من الآخرين.. كلمات العامية محسوسة صوتياً.. ليس لديها شبيه كى تمر من السباب إلى المداعبة).. فى معرض أصولها القديمة جداً فى فرنسا التى تعمل منذ عصور على وحدة ألسنية(*).. فى معرض تنوعها: عامية قُطّاع الطرق.. عامية الأحياء السكنية.. عامية المهن.. البيئات.. الطوائف.. فى معرض إدغامها التقدمى بواسطة اللغة السائدة.. عامية الدور الذى يلعبه الأدب من أيام ڤيلون وحتى أيامنا هذه فى هذا الهضم البطىء (من حيث حضور الكلمات الضخمة فى رواياتى)..

و.. استطراداً.. ها نحن نتحدث عن تاريخ الكلمات:

ـ لأن الكلمات لها تاريخ.. لا تسقط من أفواهنا كبيضة الوجود!.

الكلمات تتطور.كائناتها أيضاً غير متوقعة ككائناتنا. بعضها ينتهى بقول عكس ما كانت تقوله فى بدايتها:

على سبيل المثال الصفة (énervé /مقطوع الأعصاب) كانت تشير إلى ضفدع أُنتزعت أعصابه.. حيوان مسكين صغير فى تجربة مُصغرة فى جانب

(*) الألسنية: نسبة إلى اللسانيات، وهو علوم اللغة.(المترجم).

مستنقع صغير. لكن ـ بلا شك ـ ليس مولو. حاضر هنا.. الذى ينشغل جاره فى (énerver/ يثير الأعصاب) والذى يصبح بلا تردد (vénere/يوقّر)!.

بل تتحول الكلمات عن مجراها إلى العامية.. خنوا المسكينة كلمة (vache /بقرة).. وديعة داخل مراعيها.. والتى على مر الزمن أشارت إلى عدد من الناس الذين لم نكن نحبهم:

مومس القرن السابع عشر.. الشرطىّ فى نهاية القرن التاسع عشر.. أو كل أشقياء اليوم الذين يجعلوننا (زرائب بقر)!.

البقرة vache/متواضعة للغاية ولدت ـ ستعرف لماذا ـ (vachement).. (*) لم نعد نستطيع أن نكون أفعل التفضيل. كان هذا أثناء إحدى المحادثات التى يطلبها المدرس من تلاميذه:

ـ هل هناك أحد يستطيع أن يعطينى مثالاً على كلمة (عادية) أصبحت كلمة فى لهجتكم العامية؟

ـ ...

ـ ...

ـ (مُهرّج).. يا سيدتى؟ إنها كلمة مهرج؟

ـ نعم (مهرج) على سبيل المثال.

ـ ...

(مهرج).. سمعتها للمرة الأولى فى بداية التسعينيات.. تلك.. وأنا أدخل فصلى.. ذات صباح إذ

(*) كلمة vachement ظرف معناها كثيراً لكن المقصود هنا أنها ولدت من كلمة بقرة / (vache). (المترجم).

بديكين صغيرين ينتصبان على عاميتهما.. كانا يتهيئان ليتضاربا فى الأعلى.

ـ لقد وصفنى بالمهرج يا سيدى!.

الكلمة الصاعدة من القرن الثالث عشر الإيطالى.. حيث كانت تشير إلى من كانوا يُسلون الملك.. انتجت أمامى فى ذاك الصباح كمرادف لـ (رجل عشبى مسكين). خمسة عشر عامًا جديدة مرت.

اليوم تعنى السباب لتلاميذ ذاك الفصل.. مثلما هى بالنسبة لتلاميذ التجنب وعادة أكثر بالنسبة إلى شباب وسطهم وجيلهم.. كل أولئك الذين لا يقاسمونهم اصطلاحاتهم.. بمعنى آخر الذين كان يسميهم سابقاً شباب أمى العجوز البرجوازيين (إنها كلمة لديها حقيقة روح برجوازية بإفراط...).

(برجوازى). ها هى الكلمة التى رأينا منها كل الألوان!.

من احتقار الأرستقراطى إلى غضب العامل مروراً باندفاع الشباب المتقد.. لعنة السرياليين.. ذم الماركس ـ لينين(*) العام.. وازدراء الفنانين أياً مانت مشاربهم.

كان التاريخ فى ذاك الوقت سيضفرها بالتضمينات المحقّرة التى ما من طفل من الطبقة البرجوازية يتصف علانية بالبرجوازى دون شعور

(*) نسبة إلى أنصار كل من ماركس ولينين.(المترجم).

غامض من الحقد الأونطولوجى. البرجوازى يخشى الفقير.. الفقير يحتقر البرجوازى.

كان أمس قميص ـ أسود(*) مراهقتى يخيف البرجوازى.. ثم جاء زفاقىّ شبابى كى يُقلق البرجوازيين.

اليوم.. هم شباب المدن الصغيرة الذين يخيفون المُهرّج.. رغم ذلك..ليس أكثر من برجوازى الأمس الذى لم تكن لديه فرصة لمقابلة القميص الأسود فى طريقه.. لا يخاطر مهرج اليوم بملاقاة أحد هؤلاء المراهقين المنذورين لآبار السلم السحيقة.

كم من صبىّ من صبيان المدن الصغيرة كان مشرفنا على البرنامج المذعور من مراهقى التجنب على صلة به شخصياً؟

أيستطيع فقط أن يحصيهم على أصابع إحدى يديه؟

لا يهم.. يكفيه أن يستمع إليهم وهم يتحدثون فى فيلم.. أن يستمع إلى ثلاثين ثانية من موسيقاهم فى الراديو.

أن يراهم وهم يحرقون سيارات عند التهاب اجتماعى فى الضاحية من أجل أن يمسك برعب عام.. ويشير إليهم كجيش من التلاميذ الكسالى سينتصر على حضارتنا.

(*) تعبير يُطلق على الحدث الذى يرتدى قميصًا أسود، وينضم إلى أمثاله ليفسدوا فى بيئتهم.(المترجم).

٥

ماجزيميليان
أو
المُذْنبُ المثاليّ

المُدرّسون ..

يأخذون رءوسنا ..

يا سيدي!

حزن مدرسي

- ١ -

بلقيل.. ذات مساء شتوىّ.. يهبط الليل علىّ وأنا عائد إلى منزلى عبر شارع چوليانلاكرو.. الغليون فى فمى.. حقيبة المئونة فى يدى.. أضغاث أحلام.. حين استوقفنى شخص يستند على حائطٍ تاركاً ذراعه تسقط كحاجز موقف سيارات. ضربة خفيفة فى القلب.

ـ أشْعلْ لى سيجارتى!.

هكذا.. دون أن يُراعى الأربعين عامًا التى تفصل بيننا. إنه شخصٌ بالغ يبلغ عمره الثمانية عشر عامًا أو العشرين.. أسود.. قوىّ.. يلعب لعبة الهدوء المُزيف.. واثق من عضلاته ومن رغبته الجيدة:

يطلب النار.. أُعطيها له.. نقطة. هذا كل شىء.

أضع حقيبة مئونتى.. أُخْرجُ قدَّاحتى.. أمدُّ الشعلة نحو سيجارته. يخفض رأسه.. يُقعّر خديه وهو يستنشق.. يُرينى للمرة الأولى الطرف المحمر من أعلى. هنا.. تغيير الهيئة. عيناه تجحظان.. يترك ذراعه تسقط مرة أخرى. ينزع السيجارة من فمه.. يتلعثم:

ـ أوه! معذرةً يا سيدى...

تَردّدَ.

ـ ألستَ...؟ أأنت تكتب...؟ أأنت كاتب. كلا؟

ليتنى أستطيع أن أقول لنفسى برعشة سرور لطيفة: حسناً .. ها هو قارئ.. لكنَّ فِطْرةً عجوز نفثتْ شيئاً آخر داخلى:

امْسكْ.. تلميذ على مُدرّسه للغة الفرنسية أن يجعله يتمحص فى مالوسان (١).. سيطلب فى ثانية منى أن أضربه بيدى.

ـ نعم..أؤلف كتباً.. لماذا؟

ولا مفر من هذا.

ـ لأن مُدرّستنا جعلتنا نقرأ الجنّيّة(٢)..الجنية...

حسناً.. هو يعرف أن هناك كلمة (جنية) فى العنوان.

ـ إنه يتحدث عن بلفيل.. عن سيدات عجائز.. وعن...

ـ الجنية كارابين. نعم.. وماذا بعد؟

هنا يصبح مرة أخرى الطفل الذى يبرم أصابعه فى رأسه قبل أن يُوجه السؤال الفاصل:

ـ لدىّ تفسيرلِنَصٍّ ليُسْترجع. ألا تريد أن تساعدنى قليلاً.. أن تقول لى شيئين.. أو ثلاثة؟

---

(١) اسم كتاب للمؤلف نفسه اسمه كاملاً: سيدى مالوسان. (المترجم).

(٢) اسم كتاب للمؤلف نفسه اسمه كاملاً: الجنية كارابين. (المترجم).

أسترد حقيبة مئونتى.

ـ أرأيتَ كيف طلبتَ النار منى؟

اضطرابٌ.

ـ أأردْتَ أنْ تُخيفنى؟

اعتراضٌ:

ـ كلا يا سيدى. برأس أمى!.

ـ لا تُعرِّض أمك للخطر. أنت أردتَ أن تخيفنى.

(أتجنب أن أوضّح ما قد وصل إليه تقريبًا).

ولستُ أنا أوَّل مَن فعَل به هذا فى هذا اليوم. تحدثتَ مع كم شخص اليوم هكذا؟

ـ ...

ـ فقط أنا.. تعرفتَ علىَّ.. والآن تريد أن أساعدك.

لكنْ حين لا يكون لديكَ واجبٌ لتقوم به عنهم.. ماذا يفعل الناس بذراعك التى تسدُّ الطريق؟

يخافون منك فيما تفرح أنتَ.. أهو ذاك؟

ـ لا يا سيدى.. هيًا...

ـ الاحترام.. أنت تعرف مع ذلك أنها كلمة نتفوه بها مائة مرة فى اليوم الواحد..كلا؟

لقد كدتَ لا تحترمنى وتريد أن أساعدك؟

ـ ...

ـ ما اسمك؟

ـ ماجز يا سيدى.

يُكَمِلُ مُسرعًا:

ـ ماجزيميليان!.

ـ وبعد.. يا ماجزيميليان.. لقد فاتتك فرصة جيدة.

أنا أسكن هناك.. انظر.. تحديداً هناك.. فى شارع لوزاج.. هناك عند النوافذ التى فى الأعلى.لو طلبت منى أن أشعل سيجارتك بأدب.. لكنا هناك الآن.. لكنتُ ساعدتك فى عمل واجبك. لكن الآن.. كلا.. انتهى النقاش.

كلمة أخيرة:

ـ هيا يا سيدى...

ـ المرة القادمة.. يا ماجزيميليان.. حين تتحدث مع الناس باحترام.. لكن ليس فى هذا المساء.. لقد أغضبتنى هذا المساء.

- ٢ -

غـالـبـاً مـا أعـاود الـتـفـكـيـر فى لـقـائى مع ماجزيميليان.

إنها خبرة غريبة بالنسبة له مثلما هى بالنسبة إلىّ.

فى مسافة ثانية ارتعدتُ أمام الزقاقىّ (١).. استعدتُ بليى(٢) أمام التلميذ. كان يستلذ وهو يُذعر المهرج.. بعد ذلك اصفرّ لونه أمام تمثال فيكتور هوجو (شارع لوزاج .. فى بلفيل.. بين الصبيان الذين رأيتهم يكبرون.. كان بعضهم ينادينى مُمازحاً سيد هوجو).

كان لدينا.. ماجزيميليان وأنا.. تصوران أحدنا عن الآخر:

الزقاقى لإخافته.. أم التلميذ لمساعدته..المهرج لإخجاله أم الكاتب ليُتَوسل إليه. لحسن الحظ.. مزجهما وميض قدّاحة معاً. فى ثانية كنا معاً الزقاقى وتلميذ الثانوى.. المهرج والروائى.. الواقع أننا استفدنا

---

(١) يقصد ماجزيميليان والزقاقى هو من تربى فى الأزقة. (المترجم).

(٢) جمع بلية وهى كرات زجاجية صغير جداً يلعب بها الأطفال فى الشوارع. (المترجم).

منها بشكل معقد. لو كنا ظَلَلْنا فى مشهد السيجارة ولم يتعرف ماجزيميليان علىّ.. لكنتُ عدتُ إلى منزلى وأنا فى حالة خزىّ إذ جرّيتُ ذرة خوف أمام سُوقىّ يبتهج أنْ جعل مُهرجاً عجوزاً فى حالةٍ كهذى. كان يستطيع أن يتفاخر بهذا على مقربةٍ من رفاقه .. وكنتُ سأستطيع أن أشفق عليه فى الميكرفون. ليْتَ الحياة تبقى بسيطة. فى مُجملها: زقاقىٌّ الضواحى يُهين المواطن الحكيم. رؤية العالم تناسب الفنتازيين المعاصرين. لحسن الحظ أظهرتْ شُعلة القداحة حقيقةً أكثر تعقيداً: مقابلة المراهق الذى عليه أن يَتَعلَّم الكثير والبالغ الذى عليه أن يُعلِّم الكثير. هذا بين الآخرين: إن تريد أن تصبح إمبراطوراً يا ماجزيميليان.. لن يكون مطلوباً منك أن تلعب لتضع المهرج فى حالة ذعر.. لا تُضفْ جرامًا واحدًا من الحقيقة إلى تمثال التلميذ الكسول المرعب.. سوى الرعاديد المُزيَّفة التى تمسك بالميكرفون وتنخفض بطمأنينة على ظهرك.

ـ ياه...

أُعيد قراءة ما كتبْتُه منذ قليل وأسْمعُ ضحكة داخلية قصيرة.

ـ ياه.. ياه.. ياه...

لا شك.. هذه السخرية هى سخرية التلميذ الكسول الذى كنْتُه.

ـ عبارات رائعة.. قل إذًا! درْس أخلاقى جميل ذاك الذى حصل عليه هناك.. ماجزيميليان!.

وكالعادة ليغرز المسمار.

- نوبة رضا ذاتى خاطفة؟

- ...

- بمعنى آخر..لم تساعد هذا التلميذ...

- ...

- لأنه لم يكن مُهذباً.هو ذاك؟

- ...

- أأنت سعيد من نفسك؟

- ...

ماذا فعلتَ بمبادئك؟ المبادئ السامية الجميلة المعروضة عالياً جداً.

تذكر:

الخوف من القراءة يُعالَج بالقراءة..الخوف من عدم الفهم يُعالج بالانغماس فى النصّ..

هذا نوع من البلاغ الرسمىّ.

أأنت تجلس برج عاجى؟

- ...

- فى الحقيقة.. لقد تغوّطت فى ذاك المساء مع ماجزيميليان!.

حانقاً بإفراط.. أو مذعوراً بإفراط.. لقد وصلك هذا أيضاً وكنتَ خائفاً.. خصوصاً وأنتَ متْعب. تعرف جيداً أنه كان يجب أن تمسك هذا الصبى من ذراعه.. تصطحبه إلى حيث تقيم.. تساعده فى تفسيره للنص

وتتناقش معه إن دعت الضرورة لهذا. وتترك توبيخه. لكن بعد عمل الواجب!.

لَبُّ الطلب.. كان هذا شيئاً مُلحّاً بما أنه كان ثمة طلب!

عُبِّر عنه بشكل سيئ؟موافق!.

مُنْتفِع؟ كل الطلبات مُنتفعة.. أنت تعرف ذلك جيداً!.

هذه هى مِحزقتك (١) لتحويل المنفعة المحسوبة إلى منفعة من أجل النصّ!.

لكن تَرْك ماجزيميليان على ذلك الرصيف ليعود إلى منزله كما فعلتَ فهذا هو ترك الحائط الذى يفصلكما منتصباً.. بل هذا دعم له!.

توجد حكاية للافونتين(٢).. فى هذا الشأن. أتريد أن أُسمّعها لك؟ أنتَ تلعب فيها الدور الأساسى!.

الطّفْلُ والمُعَلّمُ

أنتوى فى هذه الحكاية أنْ أُريكم

التحذيرَ اللا جدوى منه من الغبى الأكيد.

طفل صغير أُهْمل فى الماء..

وهو يلهو على ضفاف السين

---

(١) أداة يستخدمها الفلاح فى عزق الأرض. (المترجم).

(٢) لافونتين: جان دى لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥م) أشهر كاتب قصص خرافية فى تاريخ الأدب الفرنسى والعالمى. أبطال قصصه الخرافية هم الحيوانات والطيور، وقد أثر فى كل الأدباء الذين كتبوا للطفل بعده فى العالم، ويطلق على مجمل أعماله المشهورة عالميًا أساطير لافونتين.

تأذنُ السماء للصفصافِ أنْ يعثر عليه
وينقذه بأغصانه بأمر الله.
كان مشغولاً .. أقول .. بأغصان الصفصاف..
يمرُّ بذاك المكان مُعلِّمٌ..
يُناديه الطفل صارخًا: النجدة.. إنى أهلَك.
استدار المعلم إلى صراخه
وبنبرةٍ وقورةٍ جداً ليستْ فى محلها
ارتأى أن يوبخه:
آه أيها الصبى المشاغب الصغير!
انظر.. يقول.. أين وضع غباءه!
وبعد.. اعتنِ بأمثال النصابين.
ما أتعس الآباء.. ما أضعفه هو!
إذْ دائمًا ما يرعى نذلاً مشابهًا!
ما أشد ما يقاسون لوكم أُرثى لمصيرهم!
بعد قول كل شىء
وضع الطفلَ على حافة السفينة.
هنا ألوم كثيراً من الناس الذين لا أتصورهم.
كلٌّ ثرثارٍ.. كل رقيبٍ.. كل متحذلقٍ..
يمكن له أن يتعرف على الحديث الذى أقوله:
كل واحدٍ من الثلاثةِ بقوةٍ يصنع شعبًا كبيرًا
يبارك الله الرعاعَ منه.
فى كل مشكلة يكتفون بالحلم
بوسائل تدريب لغتهم فقط.

هيّا يا صديقى. حرّرْنى من الخطر
سوف تفعل بعد خطبتكَ المُملّة.

- ٣ -

ماجزيميليان صورة التلميذ الكسول المُعاصر.

الاستماع إلى كلام عن مَدرسة هذه الأيام هو فى الأساس استماع إلى كلام عنه. اثنا عشر مليون وأربعمائة ألف شاب فرنسى يدخلون المَدرسة كل عام.. منهم قرابة مليون مُراهق ينحدرون من الهجرات الوافدة.لنفترض أن مائتىّ ألف يرسبون رسوباً دراسياً يُوجب طردهم من المدرسة. كم من المائتىّ ألف يقع فى العنف الشفاهى أو الجسدى (شتائم للمدرسين.. الذين أصبحتْ حياتهم جحيماً بسببهم.. تهديدات.تصادمات.تخريب أماكن...)؟

الربع؟ خمسون ألف؟ لنفترض. ينتج عن هذا أنه من مجموعة من اثنى عشر مليون وأربعمائة ألف تلميذ.. أربعة من عشرة فى المائة تكفى لتُغذّى صورة ماجزيميليان.. التصور التخيلى المُرعب بالنسبة إلى التلميذ الكسول مُلتهم الحضارة.. الذى يحتكر كل وسائل المعلومات ما إن نتحدث عن المَدرسة.. ويثير كل التخيلات.. بما فيها الأكثر رزانة. هب أننى أخطئ فى حساباتى.. وأننا نحتاج إلى ضرب (الأربعة من عشرة فى المائة) فى اثنين أو فى ثلاثة.. سيمكث

الرقم مُثيرًا للسخرية والخوف المصون ضد الشباب المُخزى تماماً بالنسبة إلى البالغين الذين نكونهم.

مراهق ينحدر من مدينة أو من أى حى يقع فى محيطها .. بلاك.بير.. أو جولوا المنفى.. هاوٍ كبير للطوابع وللتليفونات المحمولة.. إلكترون حُرّ لكن يتنقل داخل مجموعة.مُغطّى الرأس حتى الذقن.هاوٍ للموسيقى المقطّعة على كلمات تدعو للانتقام.. يتحدث بقوة.. معروف بأنه عازف نشيط.. لص افتراضى.. سمسار.. مُشعل حرائق..أو بذرة للتطرف الدينى.. ماجزيميليان هو الصورة المُعاصرة لسكان الضواحى العام الماضى.. وحديثاً مثلما كان البرجوازى يحب معاشرة أوباش شارع دو لاب أو داخل حانات شاطئ مارنْ الريفية المسكونة بالمتشردين.. يحب مُهرج اليوم أن يحاذى ماجزيميليان.. لكن فى صورته فقط.. صورته التى يُطهيها فى كل صلصات السينما.. الأدب..الدعاية الإعلانية.. الأخبار ماجزيميليان فى الوقت نفسه هو صورة من يُشيع الخوف.. من يبيع.. بطل أفلام الأكشن.. ناقل الأختام الأكثر حَمْلاً لو.. مادياً.. (تنظيم المدن.. ثمن العقار.. والبوليس يسهرون فيه).. ماجزيميليان محبوس بأطراف المدن الكبرى.. صورته تُوزع حتى تصل إلى قلب المدينة الأكثر ثراءً.. وهذا مع الخوف الذى يرى المهرج أبناءه يرتدونه مثل ماجزيميليان.. متبنياً صبير ماجزيميليان.. بل طَفْح الهَلَع.. يمنح صورته الدوىّ المُعْرب عن صوت ماجزيميليان!.

من هنا إلى النباح.. إلى موت اللغة الفرنسية وإلى النهاية القادمة للحضارة.. لا توجد سوى خطوة.. تُجْتاز بسرعة.. بالأحرى مع خوف لذيذ فى قرارة النفس. إنه ماجزيميليان الذى نعرفه يُضحى بنفسه.

- ٤ -

حين نشاهده عن قرب يبدو ماجزيميليان ظَهْر ميداليةِ الشبابية. يصبح عصرنا واجباً للشباب: يجب أن تكون شابًا.. تفكر وأنت شاب. تستهلك وأنت شاب.. تشيخ وأنت شاب.. فالموضة شابة.. كرة القدم شابة.. الإذاعات شابة.. التليفزيون ملىء بالشباب.. الإنترنت شاب.. الناس شباب.. أواخر الأطفال الرضع الأحياء عرفوا كيف يظلوا شبابًا .. رجالنا السياسيون.. هم أنفسهم..انتهوا إلى تجديد شبابهم.

يحيا الشباب!.

المجد للشباب!.

يجب أن تكون شاباً!.

على ألا تكون ماجزيميليان.

ـ ٥ ـ

ـ المُدرسون.. يأخذون رءوسنا.. يا سيدى!.

ـ أنت مُخطئ. رأسُكَ أُخذتْ من قبْل ويحاول المدرسون أن يُعيدوها إليك.

جرتْ هذه المحادثة داخل مدرسة ثانوية فنية فى منطقة ليون. كى أصل إلى المؤسسة كان علىّ أن أعْبر أرضاً غير مأهولة لمستودعات من جميع الأصناف حيثما لم أقابل أحداً. عشر دقائق سيْراً على الأقدام بين جدران عالية عمياء.. بين صوامع الحبوب الأسمنتية بأسقفها التى من الفبرسيمان [1].. كانت هذه هى نزهة صباحية ظريفة قدَّمتها الحياة للتلاميذ المقيمين فى أطراف الضواحى.

عمَّا تحدثنا فى ذاك اليوم؟ بالتأكيد عن القراءة.. كذلك عن الكتابة.. عن الطريقة التى تأتى بها الحكايات إلى عقول الروائيين.. عمَّا تريد كلمة[أسلوب] أن تقوله حين لا نصنع منها مُرادفاً لكلمة [مثل].عن مفهوم الشخصية ومفهوم الشخص.ومن ثَمَّ عن البوفارية[2].. عن المُخاطرة

---

(١) مادة مصنوعة من الأسمنت والأميانتْ. (المترجم).

(٢) البوفارية. هى الهروب من الواقع واللفظة مأخوذة عن مدام بوفارى بطلة رواية «مدام بوفارى» للكاتب الفرنسى «جوستاف فلوبير».(المترجم).

ذات يومٍ بالتنازل لوقت طويل عن الرواية التى تنغلق مرة أخرى (أو الفيلم الذى يُشاهد).. عن الواقع وعن الخيال.. عمَّن نجعلهم يمرون من أجل آخرين فى برامج الواقعية التليفزيونية.. عن كل الأشياء التى تفتن التلاميذ حالما يتأملونها من كل جانب بجدية...

وأكثر إجمالاً.. تحدثنا عن علاقتهم بالثقافة. لا حاجة للقول إنهم كانوا يروْن كاتباً للمرة الأولى.. وإنه ما من واحد منهم قد شاهد مسرحية قط.. وإن قليلين جداً كانوا قد ذهبوا إلى ليون. ولأننى سألتهم عن السبب.. لم تكن الإجابة مُتوقَّعة:

- إيه.. لن نذهب إلى هناك لنُعالج من التخثر بكل هؤلاء المهرجين!.

كان العالم مُرتَّبًا فى مُجْمله:كانت المدينة تخشاهم وكانوا يخشون سُلطة المدينة.

ككثيرين من شباب هذا الجيل.. ذكورًا وإناثًا.. كانوا بالنسبة إلى أغلبيتهم كبارًا جدًا عن أن نعتقد أنهم مدفوعين بين جدران المستودعات فى رحلة بحث عن الشمس. كان بعضهم على الموضة.. على موضتهم.. كانوا يعتقدون فى الكونيّة.. لكن على نمط وحيد.. وكان الجميع يُكَرهون هذه اللكْنة المنتشرة بواسطة الراب الذى يُحزن حتى شباب المهرجين أفضل المتصلين بوسط المدن حيث لم يكونوا يجرءون على الاستسلام. جئنا من هناك لنتحدث عن دراساتهم. كان هذا فى طور المحادثة التى شارك فيها الـ ماجزيميليان فى الوظيفة. (أجلْ.. قررتُ أن أمنح

لكل تلاميذ هذا الكتاب الكُسالى.. للتلاميذ الكسالى فى الضاحية أو التلاميذ الكسالى فى الأحياء الراقية.. هذا الاسم التفضيلى الجميل.) (*)

- المدرسون. يأخذون رءوسنا!.

كان هذا عَياناً تلميذَ الفصل الكسول. ربما سيكون بطيئاً فى قول هذا الظَّرْف (عَياناً).. لكن الحقيقة أن التلاميذ الكسالى يُلاحظون بسرعة داخل الفصل. داخل كل الفصول التى دُعيتُ إليها.. مؤسسات فخمة.. مدارس ثانوية فنية أو مدارس إعدادية أياً كانت المدينة..

الـ (ماجزيميليون) يُعْرفون بسهولة حين ننتبه إليهم بانقباض أو حين ننظر إليهم نظرةً مُبالغ فى تسامحها.. يستند مُدرسهم عليهم حين يتكلمون.. بابتسامة متوقعة من زملائهم وبشىء غير محدد يُزاح داخل أصواتهم.. نبرة اعتذار وحِدّة مُترددة بعض الشىء. وحين يصمتون - غالباً ما يصمت ماجزيميليان.. كنتُ أميّزهم من صمتهم الحائر أو العُدْوانى.. المُخْتلف جداً عن الصمت المُصّغى للتلميذ الذى يقوم بعملية تخزين كل ما يَعنُّ له.

يتذبذب التلميذ الكسول دائماً بين اعتذاره عن أن يكون ورغبته فى أن يعيش رغماً عن الجميع.. ليعثر على مكانه.. بل ليَفْرضَهُ.. كان هذا عن طريق العُنْفِ.. الذى كان مُضاداً للانهيار العصبى.

(*) يقصد اسم ماجزيميليان (المترجم).

ـ كيف هذا.. يأخذ المدرسون برءوسكم؟

ـ يأخذون الرأس. هذا هو كل شيء! بمهاراتهم التى لا تصلح لأى شيء!.

ـ على سبيل المثال.. أيَّة مهارة تلك التى لا تصلح لأى شيء؟

ـ الكل.. الذى..! الـ... مواد الدراسية! ليست هى الحياة!.

ـ ما اسمك؟

ـ ماجزيميليان.

ـ وبعد.. أنت مُخطئ.. يا ماجزيميليان.. المدرسون لا يأخذون رأسك.. هم يحاولون أن يعيدوها إليك؛ لأن رأسك.. قد أُخذت من قبل.

ـ هى مأخوذة.. رأسى؟

ـ ماذا ترتدى على قدميك؟

ـ على قدمىّ؟ لدىّ (إنّاتى)(*) يا سيدى! (هنا اسم الماركة.)

ـ ماذا؟

ـ إنّاتى لدىّ إنّاتى!.

ـ هل هذه هى إنّاتكَ؟.

ـ كيف هذا. ما هذه؟ إنها إنّاتى!.

كشيء محسوس.. أريد أن أقول. ما هى كشيء محسوس؟

(*) (إناتى) اسم ماركة الحذاء هو حروف الـ [N] (المترجم).

- إنها إنّاتى!.

و.. كأن المقصود لم يكن إهانة ماجزيميليان.. هذا بالنسبة إلى الآخرين الذين كانوا لدىّ.. مرة بعد ذلك.. وُجّه السؤال:

- ماذا يرتدى ماجزيميليان على قدميه؟

كان هناك تبادل نظرات.. صمت مُحيِّر.. كنا قد جئنا لنقضى وقتاً مناسباً معًا.. تناقشنا.. فكَّرْنا.. مزحنا.. ضحكنا كثيراً.. كانوا يريدون أن يساعدونى.. لكن كان يجب أن نتفق معًا.. ماجزيميليان معه حق:

- إنها إنَّاته يا سيدى.

- موافق.. رأيتها جيداً.. نعم..إنها إنّات .. لكن كشىء محسوس.. ما هى كشىء محسوس؟

صمت.

ثم فتاة.تقول فجأة:

- آه! نعم.. كشىء محسوس! يُسْر(*).. إنه من السِّلال!.

- هو ذاك.. واسم أكثر شيوعاً من (سلال) ليشير إلى هذا النوع من الأشياء المحسوسة.ستمتلكه؟

....أحنية؟

- هو ذاك.. إنها سلال.. حذاء.. نعل.خُفّ... كل ما تريده لكن ليست إنّات! إنّ هو ماركتها والماركة ليست شيئاً محسوسًا!

سؤال مُدَرِّستهم:

(*) نبات يستخرج منه دهن. (المترجم).

ـ الحذاء يصلح للسير.. فلِما تصلح الماركة؟

صاروخ مضىء فى عمق الفصل:

ـ للانفجار يا سيدتى!.

مجون عام.

المُدَرّسة:

يفعلها المُدّعى. نعم.

سؤال جديد من مُدرستهم التى تشير إلى بلوفر ولد آخر.

ـ وأنت يا سمير.. ماذا ترتدى.. هنا؟

الإجابة الفورية نفسها:

. إنه [إلّى] [1] يا سيدتى!.

هنا.. قلّدتُ سَكَرَات الموت الفظيعة.. كأنَّ سمير جاء لِيُسمّمنى وكأننى متُّ مباشرة أمامهم. حين انفجر صوت آخر فى الضحك:

ـ لا..لا.. إنه بلوفر! حسناً يا سيدى.. ظلّ معنا.. إنه بلوفر.. إلّه.. هو بلوفر!.

قيامة:

ـ نعم.. إنه بلوفره.. وحتى لو كان أصل كلمة (بلوفر) إنجليزى فهى أفضل دائماً من كلمة ماركة!.

قد تقول أمى صَدّاريته.. وتقول جدتى زَرده.. كلمة قديمة (زرده)..[2] لكنها دائماً أفضل من الماركة..

---

(١) «إلى» ماركة البلوفر.. المقصود هو حروف الـ[L] . (المترجم).

(٢) صدارى صوف أو قطن. (المترجم).

لأنها هى الماركات يا ماجزيميليان التى تأخذ رأسك.. وليس المُدرسون!.

تأخذ رأسك.. ماركاتك: إنها إنَّاتى.. إنه إلِّى.. إنها تائى..إنه إكْسِى.. إنها واياتى! إنها تأخذ رأسك.. تأخذ نقودك.. تأخذ كلماتك.. وكذلك تأخذ جسدك.. وكَزِىٍّ تصنع منك إعلاناتٍ حية مثل مانيكانات المحلات البلاستيكية!.

هنا.. أحكى لهم:

فى طفولتى كان هناك رجال إعلانات(*).. مازلتُ أتذكر أحدهم وهو يقف على الرصيف المُواجه لمنزلى...

كان رجلاً عجوزاً يَتَحزَّمُ بلافتتيْن كانا يُمجدان الخردل:

ـ الماركات تصنع الشىء نفسه معكم.

ماجزيميليان ليس غبياً جداً:

باستثنائنا..لا تدفع لنا!.

تَدَخَّل فتاة:

ـ ليس هذا صحيحًا.. على أبواب المدارس الثانوية.. فى المدينة يأخذون صبية صغاراً.. يتباهون بالزعامة يهدمونهم مجاناً من أجل أن ينفجرون فى الفصل. الماركة تُمتع أصدقاءهم وهذا يُساوى ما يباع.

ماجزيميليان:

(*) رجال يتنقلون فى الأسواق حاملين إعلانات على صدورهم وعلى ظهورهم.(المترجم).

ـ رائع!.

مُدَرستهم:

ـ أنت ترى؟ أنا أرى أنها باهظة التكلفة.. ماركاتكم.. لكنها تساوى أقل منهم كثيراً.

ثم يَعْقب ذلك نقاش متعمق عن مفاهيم التكلفة والقيمة.. ليست القيمة التجارية.. بل الأخرى.. القيمة المشهورة التى عُرفتْ بفقد المعنى...

وافترقنا على بيان شفاهى: (حَرِّروا الكلمات! حَرِّروا الكلمات!).. حتى كل أشيائهم الأسرية المحسوسة: أحذية.. حقائب ظهر.. أقلام.. بلوفرات.. سُتَر رياضية.. أدوات.. قبعات.. تليفونات.. نظارات.. فقدت ماركاتها لتعثر على اسمها مرة أخرى.

- ٦ -

اليوم التالى لتلك الزيارة.. عُدتُ إلى باريس.. كأننى هبطتُ من هضاب القرن العشرين فى اتجاه مكتبى.. جائتنى فكرة أن أُثمِّن التلاميذ الذين لاقيتهم فى طريقى.. مُستخدماً حساباً منهجياً: ١٠٠ يورو للأحذية .. ١١٠للچينز١٢٠.. للقميص الرياضى٨٠.. لحقيبة الظهر ١٨٠.. للمُسَنَّنة النقالة.. (إلى ٩٠ ديسيبل تدور المُدمِّرة السمعية)٩٠.. يورو للتليفون المحمول المتعدد الأشكال.. دون أن أحكم على ما تحتويه الحقائب.. أجعل لكم ثمناً جيداً.. إلى ٥٠ يورو الكل يصعد على بَكَرات جديدة ملتهبة.. إلى ١٥٠ يورو الزوج. المجموع: ٨٨٠ يورو.. ليكن منها ٥٧٦٤ فرنك للتلميذ.. هذا يعنى ٥٧٦٤٠٠ لفترة طفولتى. راجعتُ فى الأيام التالية فى الذهاب كما فى العودة.. مُقارناً الأسعار المعروضة فى الفتارين التى كانت توجد فى طريقى. كانت كل حساباتى تصل إلى قرابة نصف مليون.كل واحد من هؤلاء الصبية يساوى نصف مليون فرنك من طفولتى!.

إنه تثمين متوسط بواسطة طفل الفصل المتوسط والمخصص من الآباء ذوى الدخول المتوسطة.. فى

باريس اليوم. ثمن تلميذ باريس العائد من جديد.. لنقل.. فى نهاية أجازة عيد الميلاد فى مجتمع ينظر إلى شبابه قبل كل شىء كزبائن.. كسوق تجارى.. كحقل للتصويب. أطفال زبائن.. إذًا.. مع أو بدون وسائل.. مَنْ منهم مِنْ المدن الكبرى كمَن منهم من الضواحى.. منجذبين فى الطموح نفسه إلى الاستهلاك.. إلى المصَّاصة نفسها فى الرغبات .. فقراء وأثرياء.. كبار وصغار.. ذكور وإناث.. بلا نظام فقدوا الوعى على يد الإغراء الوحيد والمُدوِّم: استهلك!.

هذا يعنى أن تُغيِّر المُنتج.. أن تريد جديداً.. أكثر من جديد.. آخر صيحة.. الماركة! وما تعرفه هذه!.

لو أن ماركاتهم كانت ميداليات.. لكان صبية شوارعنا يعزفون كجوقة فى أوبريت. برامج جادة جدًا تُبين لكم طولاً وعرضاً أنها تأخذ من شخصيتكم حتى صباح آخر يوم للعودة إلى المدرسة.. صرحت كاهنة تسويق كبيرة فى الراديو بنبرة واثقة بجدّةٍ مسئولة أن المَدرسة يجب أن تفتح أبوابها للدعاية التى قد تكون نوعاً من الإعلام الذى هو نفسه قوت أوّلِى للتعليم. وهذا ما يجب بيانه.

أصخْتُ السمع ماذا تحكين لنا هناك يا مدام ماركتنج (*).

بصوتك.. صوت جدة حكيم.. رنان جداً؟

(*) Markiting السوق التجارية.

الدعاية فى الحقيبة نفسها كالعلوم.. كالفنون.. كالآداب القديمة!.

أيتها الجدة.. أأنتِ جادة؟

لقد كانت لئيمة.. وبشدة.إنه ما لم نكن نتحدث عنه باسْمهِ.. بل باسم الحياة كما هى!.

فجأة بدت لى الحياة حسبما رأت الجدة ماركتنج: مساحة مهولة للبيع.. دون جدران .. دون حدود.. دون حواجز.. ودون أى هدف آخر سوى الاستهلاك!.

والمَدرسة النموذجية وفْق ما ترى الجدة: منجم من المُستَهْلِكين الأكثر نَهماً دائماً! ومُهمة المعلمين: إعداد التلاميذ لدفع عربتهم الصغيرة فى الممرات دون نهاية لحياة البيع! أن نكف عن الإلقاء بهم بعيداً عن مجتمع الاستهلاك!

كانت الجدة تقلق مِن أنهم يتخرجون (خبراء) المعزل الدراسى!.

وأجهزة الإعلام..لأى غرض كانت تُقلص المعرفة!

أتسمع أيها العم چول؟ الصُّبْية الذين كنتَ تعرفهم بالْمَتَهِ الأسرى.. الذين كنت تنتزعهم من الأدغال الغامضة للتعصب والجهل.. كان هذا بغية احتجازهم فى المنجم الدراسى.. لأقُلْ إذاً!

وأنتِ.عازفة فيولونسيل(*) بلانك ـ مِمنّىّ.. أكنت تعرفين أنك كى تُنبّهى تلاميذك إلى الأدب أكثر

(*) آلة موسيقية تشبه الجيتار.(المترجم).

منه إلى الدعاية لم تكونى سوى حارسة فظة وعمياء للمنجم الدراسى؟

آه! أيها المدرسون.. متى ستستمعون إلى الجدة؟ متى إذاً تتبوءون أماكنكم فى الجمجمة التى لم يكن الكون ليستوعبها لكن ليستهلكها؟

إنها ليستّ أفكار باسكال ولا محاضرات المنهج.. ولا نقد العقل الخالص.. لا سبينوزا ولا سارتر الذى يجب أن يضعها بين يدىّ تلاميذكم.. أوه..أيها الفلاسفة.. إنه الكتالوج الكبير لمن يصبح بصورة أفضل فى الحياة كما تكون! هيا.. أيتها الجدة.. لو تعرفتُ عليكِ مع إخفائك للكلمات.. أنتِ تماماً ذئب الحكايات الشرير!.

متدثرة باستدلالاتك الساحرة نمْتِ وفمكِ مفتوح على انصراف التلاميذ من مدارسهم كى تلتهمى وقتها صِغارَ الطراطير المُسْتهْلِكة.. وعلى رأسهم ماجزيميليان بالتأكيد.. الذى تقل مقاومته عن الآخرين. لذيذة فى القضم .. هذه الرأس المشبعة بالرغبات.. التى سعى المدرسون لانتزاعها منك.. الفقراء..المسلحون قليلاً جداً.. بساعتيْهم لهذا.. أو ثلاث ساعات لذاك.. ضد مدفعيتك الإعلانية الرائعة! فم مفتوح.. أيتها الجدة.. على انصراف تلاميذ المدارس.. وهذا مقبول! منذ منتصف التسعينيات وهذا مقبول تدريجيًا!.

الذين تلتهمينهم اليوم هم أبناء مَنْ كنتِ تلتهمينهم بالأمس!.

أمس.. تلاميذى..اليوم ذرية تلاميذى. عائلات كاملة مشغولة بمزج أكثر رغباتهم صغراً باحتياجات حيوية فى مزيج هضمك المُسْتَنتَج المُرْعِب!.

تخفيضات..الجميع.. كبارٌ وصغارٌ.. فى حالة الطفولة نفسها الراغبة دائماً. أيضاً! أيضاً! صيحة.. من أعماق معدتكِ.. شعب المُسْتَهْلِكين المُسْتَهْلَكين.. أبناء وآباء ممتزجون.. أيضاًأيضاً!.

وبطبيعة الحال ماجزيميليان الذى يصيح بقوة.

ـ ٧ ـ

أحسستُ بغُصَّةٍ وأنا أترك شبابى ساكنى ضاحية ليون. كان هؤلاء الصبْية مهجورين داخل صحراء حضرية. مَدرستهم الثانوية بنفسها كانت مُحتجَبة.. تائهة فى متاهة المستودعات. لم تكن مدينتهم تنتشى كثيراً.. ما من مقهى فى المشهد.. ما من سينما.. لا شىء يجىء.. لا شىء لِتُوَجِّهَ إليه عينيك إن لم يكن سوى دعايات عملاقة تُفخّم أشياءً خارج إدراكها...

كيف يلومهم هذا المظهر الخداع الأبدىّ.. صورة الذات المركبة لمرآة المجموعة الشعبية؟ سهل جداً أن نسخر من حاجتهم لأن يُروا.. هم من يختبؤن فى هذه النقطة من العالم والذين لديهم القليل جداً ليروه! ما هى الأشياء الأخرى التى نقدمها لهم سوى إغراء الوجود بما أنهم صور.. هم من سيرثون البطالة وماذا تمتلك مصادفات التاريخ بالنسبة إلى الأغلبية الممنوعين من الماضى ومن الجغرافيا؟

على أى شىء آخر يستطيعون أن يستريحوا ـ من جهة حيثما نستريح.. حيثما ننسى أنفسنا قليلاً.. حيثما نتشكل من جديد ـ سوى على لعبة المظاهر؟

لأن هذه هى الشخصية حسبما ترى الجدة ماركتنج: كساء شباب المظهر.. إرضاء هذه الرغبة الدائمة فى توليد الضوء. يا الله.. أية مُنافِسة للمدرسين.. بائعة الصور المُعَدَّة سلفاً هذه!

داخل القطار الذى أعادنى من ليون.. قلت لنفسى وأنا عائد إلى منزلى.. ليس منزلى الذى عدت إليه: أعود إلى قلب تاريخى.. سوف أجثم فى وسط جغرافيَّتى. حين أعبر بابى.. أدلف إلى مكان حيثما كنت بنفسى قبل مولدى: أقل شىء.. أصغر كتاب فى مكتبتى.. يشهداننى داخل شخصيتى القديمة.. ليس هذا صعبًا جدًا.. بهذا الثمن.. أن أُفْلت من إغراء الصورة. كل شىء نتحدث عنه فى ذاك المساء. مين وأنا:

ـ لا تبخس هؤلاء الصبْية قيمتهم.. تقول هى.. يجب أن يُثمَّنوا بقدرتهم! ووعيهم.. ذات يوم.. أزمة المراهقة ستمضى. كثيرون يُشفون منها جيداً. واستشهدت بأسماء أصدقائنا الذين شُفيوا منها.

أخص من بينهم (عَلىّ) الذى استطاع أن يُؤّل الأمر بشكل سيئ، والذى يغطس اليوم فى قاع المشكلة كى ينقذ المراهقين المُهدَّدين كثيراً. و.. بما أنهم ضحايا صور.. تحديداً بواسطة لمس صورة قرر علىّ أن ينقذهم من مأزقهم هذا. إنه يُسلّحهم بالكاميرات ويُعلّمهم كيف يُصورون على فيلم سينمائى مراهقتهم كما هى.. بعيداً عن المظاهر.

محادثة مع عليّ (مقتطف)

- إنهم صبْية فى خيبة دراسية.. يُبيّن لى.. الأم تظل وحيدة فى أغلب الأحيان.. يتعرض بعضهم لملاحقات البوليس.. لا يريدون أن يسمعوا كلامًا عن البالغين.. يلتقون داخل فصول بالتناوب.. شيء ما كفصولك التى أُعدَّتْ فى السبعينيات.. أنا أفترض. أنتقى الزعماء.. الرؤساء الصغار ذوو الخمسة عشر عاماً أو الستة عشر عاماً.. أفْصلهم عن المجموعة مؤقتاً.. لأنها المجموعة هى التى تقتلهم.. دائماً.. تعوقهم عن أن يَتشكَّلوا.. أُلصق كاميرا بأيديهم وأعْهدُ إليهم بواحد من رفاقهم لِيُجروا معه مقابلة صحفية.. صبى يختارونه هم بأنفسهم. يُجْرون المقابلة بمفردهم فى ركن ما.. بعيداً عن العيون.. يعودون.. ونرى جميعاً بعدسة مكبرة الفيلم معاً.. مع المجموعة.. هذه المرة. وهذا ما لا يخيب سعيه أبداً: الصبى الذى تُجرى معه المقابلة يمكر عادة أمام الهدف.. والذى يصور الفيلم يدخل فى لعبته يجذبون الأنظار إليهم.. يعيدون إضافة نبرتهم إلى الفيلم.. يدحرجون آليات فى معجم الصف الرابع وهم يصيحون بأعلى صوت ممكن.. كحالتى حين كنت طفلاً.. يصنعون منه خزائن.. كأنهم كانوا يتوجهون إلى المجموعة.. كأن المُشاهد الوحيد الممكن هو المجموعة.. وأثناء العرض يغرق رفاقهم فى الضحك. أعرض الفيلم مرتين.. ثلاث.. أربع مرات. تتسع الضحكات.. تصبح أقل رسوخًا. من يُجْرى المقابلة ومن تُجْرى معه يشعرون أنهما يرتقيان شيئًا

ما عجيبًا.. لن يتوصلا إلى التحقق من هويته فى العرض الخامس أو السادس. يستقر ضيق حقيقى بينهم وبين جمهورهم. فى السابع أو فى الثامن (أطمئنك.. وصل الحال بى إلى عرض الفيلم نفسه تسع مرات!).. يفهمون جميعًا.. دون أن أشرحه لهم.. أن الذى يصعد ثانية على سطح هذا الفيلم هو المظهر الخداع.. السُخرة..الكذب.. مزاحهم العادى..إيماءات المجموعة.. كل حِيَلهم المعتادة.. وأن كل هذا بلا فائدة.. صفر.. ما من حقيقة. حين يصلوا إلى هذه المرحلة من الوعى.. أوقف العروض وأعيدهم مع الكاميرا لإعادة إجراء المقابلة.. دون تفسير إضافى. فى هذه المرة نحصل فضلاً عن ذلك على شىء ما جاد.. له صلة بحياتهم الواقعية: يقدمون أنفسهم.. يذكرون ألقابهم.. أسماءهم.. يتحدثون عن عائلاتهم.. عن موقفهم الدراسى.. ثمة صمت .. يبحثون عن كلماتهم.. نراهم يفكرون.. من يجيب كمن يسأل.. و.. شيئاً فشيئاً.. نرى المراهقة تظهر لدى هؤلاء المراهقين.. يكفون عن كونهم شباباً يَتَسَلُّون بإخافة سواهم.. يصبحون مرة أخرى أولاد وبنات عمرهم.. خمسة عشرعاماً.. ستة عشر عاماً.. مراهقتهم تَعّبر مظهرهم تفرض نفسها.. ملابسهم.. قبعاتهم تصبح أشياء مُكملة مرة أخرى.. تلقائيتهم تنخفض.. فطرياً مَنْ يصنع الفيلم يُضيّق الكادر.. يُقرّب الكاميرا أو يبعدها..إنه وجههم الذى يَعُد الآن.. قد تقول إن مَن يُجرى المقابلة يصغى إلى وجه الآخر.. وعلى هذا

الوجه.. الذى يظهر.. يبدو مجهود الفهم كأنهم كانوا يترءون للمرة الأولى كما هم يكونون: يصنعون المعرفة مع التعقيد.

- ٨ -

من جانبها تحكى مين أنه فى داخل الفصول الصغيرة التى تدخلها.. تلعب لعبة تبهج الأطفال:لعبة القرية. إنها لعبة بسيطة.. ترتكز - فى الثرثرة مع الصغار.. فى اكتشاف أكثر الخطوط ضخامة لطباعهم.. لكفاءاتهم.. لرغباتهم.. أفكار بعضهم وبعضهم الآخر الثابتة - على تحويل الفصل إلى قرية حيث يجد كل واحد منهم مكانه.. متخيلاً ضروريًا بواسطة الآخرين:

بائعة الخبز.. مستخدم البريد.. معلمة الابتدائى.. الميكانيكى ..البَقَّالة.. الدكتور.. الصيدلانية.. المُزارع.. السبَّاك..

المُوسيقىّ.. لكل واحد منهم مكانه.. بما فى ذلك الذين من أجلهم أُخترعتْ حِرفاً مُتخيلة ضرورية كذلك مثل جامعة الأحلام أو رسامة السحاب...

- وماذا تفعلين مِنْ قاطع الطريق؟ الأربعة من عشرة.. قاطع الطريق الصغير.. ماذا تفعلين منه؟

تبتسم:

- الشرطىّ.. بالتأكيد.

- ٩ -

واحسرتاه.. لا نستطيع أن نستبعد حالة قاطع الطريق الحقيقى.. قاطع الطريق القاتل.. حتى عن طريق اللعب.. لن يتحول أبدًا إلى شرطى. نادرًا جدًا لكنه موجود. فى المَدرسة كما فى أماكن أخرى فى خمسة وعشرين عاماً من التعليم.. فى قرابة ألفين وخمسمائة تلميذ.. كان علىّ أن ألتقيه مرة أو مرتين. رأيته أيضاً على كرسى المستقرين.. هذا المراهق بحقده المبكر.. بنظرته المتجمدة .. الذى نقول عنه فى أنفسنا إنه ينتهى الأمر به فى خبر تافه فى جريدة لأنه لن يُوقف أى نزوة.. لن يحتفظ بصدماته.. يرعى اندفاعه.. يهيئ ثأره بحساب.. يحب أن يؤلم.. يُرهب الشهود ويبقى حاجزاً للندم تماماً.. جريمته الموظفة ذات يوم. هذا الولد ذو الثمانية عشر عاماً.. على سبيل المثال.. الذى كسر العمود الفقرى للشاب (ك.) بضربات فأس لسبب وحيد وهو أنه من حى مواجه لحيه.. أو ذاك الآخر.. ذو الخمسة عشر عاماً.. الذى طعن المُدرس الذى يُدرس له اللغة الفرنسية بالخنجر. لكن الكل بمقدار هذه الشابة التى تربَّتْ فى مدارس خاصة.. تلميذة بالنهار.. ومغرية بالليل لذوى الأربعين

عاماً الذين كانت تُسلِّمهم لكومبارسيِّن فى مثل عمرها ومن بيئتها.. لقد كانت تُنكِّل بهم حتى الموت كى تسرقهم. بعد استجوابها سألت رجال البوليس المشدوهين هل تستطيع أن تعود إلى منزلها!.

من كانوا هناك لم يكونوا مراهقين عاديين. ذات يوم.. مُفسَّرةً بواسطة كل العوامل الاجتماعية ـ النفس مادية التى يمكن تصورها تظل الجريمة خبيئة جنسنا. هى ليست مفاجئة كالعنف الجسدى الذى يزداد مع الاحتياج.. الحبس..البطالة..إغراءات مجتمع التشبع.. لكن كولد عمره خمسة عشر عاماً صمم على طعن مدرسه بالخنجر ـ وفعلها ! ـ يظل حدثاً من وجهة نظر علم الأمراض فردياً. عملياً.. بمساعدة عدد كبير من صفحات الجرائد الأولى والتحقيقات التليفزيونية.. رمز مرحلة الشباب المُسلَّم به فى مكان معين (فصل الضاحية).. هو جعلها تُعرف بعش السفاحين والمَدرسة ببؤرة إجرامية. فى مادة القتل.. ليس مفيداً أن نذكر أنه ذات يوم سنكتشف أن الهجوم المسلح.. أن المشاجرات على الطريق العام.. أن جرائم السرقات والثأر بين الجماعات المتناظرة ستمثل نسبة ٨٠٪ من الجرائم الدموية التى تحدث داخل نطاق الوسط العائلى. إنه قبل كل شىء يتقاتل الرجال فى منازلهم .. أسفل أسقفهم.. داخل هيجان سِرىّ لمنزلهم.. فى قاع سِرِّهم الخاص بهم. جَعْل المَدرسة تُعرف بمكان إجرامى هو ـ فى حد ذاته ـ جريمة خرقاء ضد المدرسة.

ـ ١٠ ـ

على ذكر سَمت الزمن.. لم يكن يدخل العنف إلى المَدرسة إلا بالأمس.. عبّر الأبواب الوحيدة للضاحية وعبر الطرق الوحيدة للخيال. لم يكن العنف موجوداً من قبل. إنه عقيدة.. وهذا ما لا يُناقش. يتبقى لى رغم ذلك ذكرى الفقراء الذين يُنكّل بهم ضجيجنا. فى سنوات الستينيّات.. هذا المُدرس الذى تجاوز الحد بإلقائه مكتبه على فصلنا فى الصف الثالث.. على سبيل المثال أو هذا المُشْرف الذى أمسك الأغلال بيديه كى يُوّسعَ تلميذاً ضرباً.. التلميذ الذى أحرجه حد الجنون.. وفى كل بداية عام من أعوام الثمانينيات.. هؤلاء الفتيات العاقلات كثيراً ظاهريًا.. اللاتى أرسلن مُدرسهن ليعالج من النوم (كنت أنا من حل محله)؛ لأنه كان يطمح إلى أن يجعلهن يصادقن أميرة كليف.. التى كانت هؤلاء الآنسات يرينها (مُملّة بإفراط)...

فى سبعينيات القرن التاسع عشر.. هذه المرة.. ألفونس دوديه كان يُبين من قبل ألمه كمعلم معذَّب:

أقمت فى دراسة الوسائل وجدت هناك قرابة خمسين شريراً فاسداً.. كانوا جبليين ممتلئى

الخدود.. أعمارهم من الاثنى عشر عامًا حتى الأربعة عشر عاماً.. أبناء مزارعين حديثى الثراء.. أرسلهم آباؤهم إلى المدرسة كى يصنعوا منهم برجوازيين صغاراً.. بسعر مائة وعشرين فرنك فى التيرم. بدائيون.. سفهاء.. يتحدثون فيما بينهم بلهجة السافانيين(*) الفظة. لم أكن قد استمعت إلى شىء منها.. كانوا جميعاً لديهم هذا القبح الخاص فى الطفولة التى تتناسل.. أياد حمراء ضخمة بها تشققات .. أصوات شباب كديوك أصابها الزكام.. نظرات بلهاء.. وفى الأعلى رائحة المدرسة. فى الحال يبغضوننى.. دون أن يتعرفوا إلىّ. كنت عدواً بالنسبة إليهم.. المعلم. حتى اليوم الذى أجلس فيه على كرسى الأستاذ. كانت هذه هى الحرب بيننا.. حرب أبدية ضروس.. دونما هدنة.

آه! الأطفال قساة القلب.. كأنهم يعذبوننى. كم أود أن أتحدث عنهم لنتسالم. بعيدة جداً هذه الأحزان! وبعد لكلا.. لم أستطع ..عجباً!.

حتى فى الوقت الذى أكتب فيه هذه الأسطر.. أشعر بيدى ترتعش من الحُمَّى ومن التأثر. يبدو لى أننى ما أزال هناك.

(...)

إنه لشىء مرعب جداً أن تعيش محاطًا بالعدوانية.. أن تظل فى حالة خوف سرمدية.. أن تكون على حذر دائماً .. مسلح دائماً.. مرعب جداً أن

(*) نسبة إلى غابات السافانا (المترجم).

تعاقب.. نظلم أحياناً رغماً عنا ـ مرعب جداً أن ترتاب.. أن ترى المكائد فى كل مكان.. الا تأكل وأنت مطمئن.. ألا تنام فى هدوء.. أن تقول لنفسك دائماً حتى فى لحظات الهدنة:

(آه.. يا إلهى.. ماذا سيفعلون بى الآن؟)

هيا.. أنت تُبالغ يا دوديه.. بحيث أننا نقول لكَ عليكَ أنْ تنتظر عصرًا مناسبًا من أجل أن يدخل العنف إلى المَدرسة!.

وليس من خلال غابات السافانا.. يا دوديه.. من خلال الضاحية.. الضاحية الوحيدة!.

- ١١ -

منذ عهد قريب.. كنا نتصور التلميذ الكسول واقفاً على وتد.. قبعة الكسول على رأسه كشىء لولبى. لم تكن هذه الصورة تَسِمُ أى طبقة اجتماعية على وجه الخصوص.. كانت تشير إلى طفل وسط الآخرين.. أُلقى به فى الركن لأنه لم يستذكر الدروس ولم يعمل واجبه.. أو لأنه ضجَّ على السيد دوديه.. المعروف بـ "الشىء الصغير" (*). اليوم وللمرة الأولى فى تاريخنا.. تكون هذه هى طبقة الأطفال والمراهقين الذين يوسمون يومياً وبصورة مطلقة كتلاميذ رمزيين كسالى. لم نعد نُلْقى بهم فى الركن.لم نعد نلصق بهم قبعة الكسول.حتى كلمة (تلميذ كسول) بذاتها باتت مهجورة. تُعرف العنصرية بأنها عمل شائن.. لكننا نُصورهم على فيلم سينمائى دونما توقف.. بل نشير إليهم فى فرنسا بأكملها.. نكتب عن إساءات بعضهم مقالات تصفهم جميعاً بالتلميذ الكسول الذى لن يُشفى أبداً إلى جوار التربية المحلية. لا يَسُرُّنا أن نجعلهم يعانون ممن ينتمى إلى التمييز العنصرىّ الدراسى.. يجب علاوة على ذلك أن نتوجّس خيفةً

(*) اسم رواية لألفونس دوديه.(المترجم).

منهم كما لو كانوا داءً محلياً:هم [كل] شباب [كل] الضواحى. تلاميذ كسالى.. جميعاً.. فى تصور الجمهور.. تلاميذ كسالى وخطيرون: المَدرسة.. هى هُمّ.. بما أننا لا نتحدث إلا عنهم حين نتحدث عن المدرسة.

بما أننا لا نتحدث عن المدرسة إلا من أجل أن نتحدث عنهم.

-١٢-

صحيحٌ أن بعض أعمال العنف المُستخدَمة (تلاميذ مُبتَدين ماليًا.. مُدرسون تمَّ ضربهم.. مَدارس أحرقتْ.. اغتصابات) بلا مِعْيار مُشتَرك مع ضجيج العام الدراسى الماضى.. الذى كان يقتصر على أعمال عنف تقريباً تُراقَب فى نطاق المؤسسات المدرسية المحدد. مهما بلغتْ ندرتهم.. فإن النتاج الرمزى لهذه الإساءات مرعب وتناسلهم الآنىّ تقريباً بواسطة صور التليفزيون.. اللوحة .. هواتف محمولة تُزيد على عشرة أضعاف الخطر الذى يتخلق منهم. زيارة.. منذ زمن.. لَمدرسة ثانوية للتعليم العام والتقنىّ.. فى اتجاه دِينىّ(*). كان علىّ أن أقابل فصولاً عديدة فيها.

ليل الفندق.

سُهاد.

تليفزيون.

تحقيق تليفزيونى.

أرى فيه مجموعة صغيرة من الشباب فى شامب - دى - مارس على هامش مظهر الطلاب.. يهاجمون

(*) اسم مدينة.(المترجم).

ضحايا بالمصادفة. يسقط إحدى الضحايا. إنه ولد من نفس عمر جلاديه. يضربونه.. ينهض.. يلاحقونه. . يسقط مرة أخرى.. يضربونه من جديد. تتناسل المشاهد. دائماً ما يحدث السيناريو نفسه.. يتم اختيار الضحية بالمصادفة.. بتحريض أى عضو أياً كان من المجموعة.. الذى ينسلخ عن رهطه.. ينصبُّ عليها. يركض الرهط خلف من يركض.. كل منهم يندفع إليها بواسطة الآخرين.. الذين يكون هو بنفسه مُحركهم. يركضون بسرعة القذائف. بعد ذلك بفترة سيقول أب عن ابنه فى البرنامج نفسه..إنه تركه ليتدرب. هذا صحيح.. مهما حدث بالمعنى الحركى للعبارة: مُتَدَرِّب مُدَرِّب. أيكون ماجزيميليان (الخاص بى) فى عِداد هذه المجموعات؟

تخطر ببالى فكرة. لكن مجانية العدوان هنا قد تسمح بأن يكون ماجزيميليان من بين الضحايا. ليس الوقت لما يُعرَض.. عنف أعمى.. مباشر.. مبالغ فيه. (يَحْظر رأىٌ البرنامجَ على مَن هم دون الثانية عشر. كان يلزم هذا البرنامج للمرة الأولى أن أقضى ساعة فى الإصغاء التام إليه وأن أتخيل أن عناقيد من الصبْية المفتونين بالمنع لصقوا فى الحال خطمهم فى الشاشة).

يُعَقِّب على هذه المشاهد رجل بوليس وعالم نفس. يتحدث عالم النفس عن إعادة التحقق من أناس دون عمل مغمورين فى صور من العنف.. أما رجل البوليس فيتحدث عن عاقبة الضحايا ومسئولية

الجُناة. كلاهما مُحقّ.. بالتأكيد.. لكنهما يُعطيان انطباع الإقامة المؤقتة فى ميدانىْ رأى متناقضيْن موسوميْن بقميصِ عالم النفس المفتوح ورابطة عنق رجل البوليس المعقودة.

الآن.. نتابع مجموعة من أربعة شباب قُبض عليهم لأنهم قتلوا بارمان(١). قاموا بضربه حتى الموت من أجل أن يلعبوا. كانت فتاة شابة قد صورتْ هذا المشهد عن طريق هاتفها المحمول. هى ذاتها التى أطلقت الكرة فى رأس الضحية كأنه تَعلّقَ بكرة بسيطة. المندوب الذى ألقى القبض عليهم يؤكد أن الضياع الكلىّ للشعور بالواقع هو بالتالى ضياع لكل شعور أخلاقى. هؤلاء الأربعة قضوا الليلة فى اللهو بهذا: ضرب الناس وصناعة فيلم عنهم. نراهم.. بفضل كاميرات المراقبة.. ذاهبين من عنوان إلى آخر.. بخطىً مطمئنة.. مثل رفاق "برتقالة آلية"(٢) الذين يتنزهون. تصوير أعمال العنف هذه باستخدام الهواتف المحمولة هو موضة جديدة.. يوضح المعلق. امرأة شابة.. مُدَرسة.. كانت ضحية لهم. فى فصلها (صور). تظهر.. مُلقاة على الأرض بيد تلميذ.. ضُربتْ وصُوّرتْ. أى إنسان ينقل اليومَ تليفزيونيًا وببساطة هذا النوع من المَشاهد. بل يستطيع أن يضيف عليها موسيقى تصويرية حسْب اختياره. تأويلات متقززة من

(١) النادل الذى يعمل فى حانة أو بار (المترجم).

(٢) اسم رواية وفيلم لكاتب إنجليزى اسمها الأصلى: A clockwork orange.

بعض المراهقين المنشغلين بمشاهدة فيلم المُدَرّسة التى ضُربتْ باستخدام عدسة مُكبرة.

أتنقل بين القنوات بالريموت كونترول.

نسبة غريبة من أفلام العنف على القنوات الأخرى. إنها ليلة وديعة.. ينام المرء فى هدوء.. لكن على مقربة من سريره.. فى صمت مُعتم.. تسهر الصور. نُغْتال من خلالها تحت كل الأشكال.. على كل الإيقاعات.. وبكل النبرات.

البشرية المعاصرة تُخْرج اغتيال البشرية المعاصرة المستمر.

على قناة مستثناة من هذا.. بعيداً عن حضور البشر.. فى ظل وئام الطبيعة الضوئى.. كانت هى الحيوانات التى تفترس بعضها بعضاً. على إيقاع الموسيقى.. هى أيضاً.

أعود إلى القناة التى بدأت بها. الولد الجرىء الذى ترتكز مهارته فى نقل كل مشاهد العنف المُبالغ فيه تليفزيونيًا عبر العالم (إعدامات تعسفية.. انتحارات.. حوادث.. عراقيل.. قنابل.قتلى..إلخ.) يؤيد عمله القذر بالثيمة الكلاسيكية لواجب التحقيق. إنْ لم يفعله سيفعله آخرون.. يؤكد.. هولا يُجسّد العنف.. هو ليس إلا رسوله.

دنىء عادى.. يجعل الآلة تدور.. بطريقة الجدة ماركتنج نفسها.

تَخور قُواى.

ما من وسيلة للعثور على النوم. لقد أُبتليت بدورى باختيارى التشاؤم بنهاية العالم. فقر نظامى من جانب.. ذعر وهمجية مُطْلقة من جانب آخر. إعادة تَحقّق مطلقة فى المعسكرين: أوهام بورصية(*) لدى الأثرياء.. ڤيديو مذبحة لدى المُبعَدين.. العاطل عن العمل يُحوَّل إلى فكرة العاطل عن العمل بواسطة كبار المساهمين.. الضحية فى صورة ضحية بواسطة صغار السوقيّين.

فى كل الحالات.. اختفاء الإنسان بنفسه.. بقضّه وقضيضه. ووسائل الإعلام مُنسّقة هذه الأوبرا المضرجة بالدماء حيث تترك التأويلات مجالاً للاعتقاد ـ بالقوة ـ بأن كل صبْية الضواحى كان بمقدرتهم قَطْع الشوارع ركضاً كى يقتلوا عزلتهم المقبلة فى صورة الجميع. مكان التربية. فى هذا المكان؟ المَدرسة؟مكان الثقافة؟ الكتاب؟ العقل؟ اللغة؟

ما جدوى خضوعى غداً فى مَدرسة ثانوية للتعليم العام والتقنىّ لو أن التلاميذ الذين قابلتهم فيها يُفترض أنهم قضوا الليلة داخل أحشاء هذا التليفزيون؟

نوم.

استيقاظ.

استحمام.

الرأس أسفل الماء البارد.. يا لها من لحظةٍ ما أنْسَبها.

(*) نسبة إلى البورصة. (المترجم).

أيها الرب الطيب.. أية طاقة تلزمنى كى أعود إلى الواقع بعد رؤية هذا!.

عجباً.. للصورة التى أُعطيتها انطلاقاً من بعض هؤلاء البلهاء عن الشباب!.

أرفضها لنستمع جيداً أنا لا أنكر واقعية هذا التحقيق.. ولا أبخس أخطار الانحراف قيمتها. كثيراً جداً ما ترعبنى أشكال العنف الحضرى المعاصرة.. أخشى تقتير الرهط الشديد.. كذلك لا أتجاهل معاناة العيش فى بعض الأحياء المحيطة.. أحس فيها بالخطر الطائفى.. أعرف تماماً بين آخرين صعوبة مولد بنت فى هذه الأحياء.. صعوبة أن تصبح امرأة هناك.. أنا أقيس الأخطار المبالغ فيها حيث ثمة أطفال ينحدرون من جيل أو من جيلين من العاطلين عن العمل.. يُعرّضون هناك.. أية غنيمة ينشئونها من أجل المهربين من كل جنس!.

أعى هذا.. أنا لا أُقلّل من الصعوبات التى تواجه المدرسين الذين يواجههم التلاميذ الأكثر انهداماً جراء هذه الورطة الاجتماعية المرعبة.. لكنى أرفض أن أقارن بصور العنف المُبالغ فيه هذه (كل) المراهقين فى (كل) الأحياء المُعرّضة للتهلكة. وخصوصاً.. خصوصاً.. أمقت خوف الفقير الذى يُؤجِجه هذا النوع من الدعاية فى كل مرحلة انتخابية جديدة!.

عارٌ على كل من يجعلون من الشباب الأكثر هجراً شيئاً فانتازياً للرعب القومى!.

إنهم حثالة مجتمع بلا شرف فَقَدَ حتى الإحساس بالأبوة.

ـ ١٣ ـ

يُتفق أن هذا هو يوم حفلة فى مَدرسة ثانوية للتعليم العام والتقنى .. صباحئذ. حفلة المَدرسة. مَدرسة بأكملها تحولتْ ليومين أو لثلاثة أيام إلى مكان لعرض كل ما أبدعه التلاميذ خارج دائرة دراستهم الرسمية: رسم. موسيقى.. مسرح.. فن عمارة حتى (لقد أنشأوا بأنفسهم منَصَّات العَرْض).. تحت إشراف مديرة وفريق من المدرسين الذين يعرفون كل فتاة وكل فتى باسمه فى القاعة الكبرى .. توجد أوركسترا صغيرة من التلاميذ. يرافقنى الكمان طوال الممرات. ثلاثة أو أربعة فصول تنتظرنى داخل قاعة فسيحة. نلعب لمدة ساعتين لعبة الأسئلة والإجابات الحرة. مرحهم. ضحكاتهم.. رزانتهم العنيفة.. لُقْياتهم(*) .. طاقتهم الحيوية خاصة.. طاقتهم المذهلة تنقذنى من كابوسى التليفزيونىّ.

عودة.

رصيف المحطة.

رسالة عَلىّ فى حقيبتى:

(*) الأشياء النفيسة التى يكتشفها الإنسان. (المترجم).

ـ تحياتي.. أنت! لا تنسَ موعدنا غداً: تلاميذي ينتظرونك. إنهم يعكفون على مَنْتَجِة (*) أفلامهم. لابد من أن ترى هذا. هذا يستهويهم!.

(*) من المونتاج. (المترجم).

٦

مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ أيميه

يجبُ أنْ تكونَ طيِّبًا قليلاً جداً فى هذا العالمِ
حتَّى تَعيشَهُ كما يَنْبغى .

(ماريڤو)

لعبة الحب والمصادفة .

-١-

ما إنْ تَقطع الأمهات القانطات اتصالهن.. أبْدأُ أنا اتصالى كى أسْعى لتحديد أولادهن. أقوم بجولة الزملاء: أصدقاء الزمن الجميل.. اختصاصيون فى حالات القنوط الشهيرة .. وأنا بدورى ألعب دور الأم المحزونة. فى الطرف الآخر من الحَبْل ثمة مَن يتسلى بهذا:

ـ آه! أنت ذاك! عموماً إنه الموسم الذى تتجلى فيه!.

ـ كم تَغيّبَ فى العام.. قلْ؟ سبعة وثلاثون! لقد غاب سبع وثلاثون مرة وتريد أن نأخذه؟ أنت تُسلّمه بالأغلال؟

ديديه.. فيليب.. ستيلا.. فانشون.. بيير.. فرانسواز.. إيزابيل.. علىّ.. كلّ بقدر ما يكون!.

نيكول ش. إليها وحدها.. تفتح مَدرستها الثانوية للجميع ذراعيها المكسورتين لِيَمُرُّوا...

حتى وصلتُ إلى أن أحتج فى منتصف العام.

ـ هيا.. يا فيليب...

مطرود لأى سبب؟ سَدٌّ! فى داخل وخارج المَدرسة؟ حتى مع حراس المركز التجارى الليلين! وهذه

ليست هى المرة الأولى؟ هدية رأس السنة الجميلة.. لتقل إذاً! أرسلّ دائماً.. سأرى ما يمكن أن نفعله. أو ذاك الحوار مع الآنسة ج. مديرة مَدرسة. أجدها مشغولة بمراقبة واجب جهاراً. فصلان يُمتحنان أمام عينيها. صمت تركيز. أقلام تُمضغ.. أو تدور بأقصى سرعة فيما بين السبابة والإبهام (كيف ينجحون فى هذا؟هذا ما لم أتوصل إليه أبداً)..

أوراق مُسوَّدة خضراء بالنسبة للبعض.. وصفراء بالنسبة إلى آخرين.. هدوء الدراسة. ثمة مَن ينوى أن يختلس شيئاً ما. دائماً ما أحببتُ صمت القيلولة وهدوء الدراسة. لقد توصلتُ فى طفولتى للربط بينهما. كان لدىّ ذوق الراحة غير المستحقّة. أعرف كل شىء عن فن التظاهر بالكتابة مُجهزاً نسخة بيضاء. لكن ما أصعب أن تُلعب هذه اللعبة الصغيرة فى ظل رقابة الآنسة ج.

رأتنى وأنا أدخل بطرف عينها. لم تتعثر. هى تعرف أننى لن أزعجها مجاناً وأنه .. لو أننى استندت إلى هذا فلأخبرها بنبأ سار. أسير دونما جلبة نحو مكتبها.. أنحنى على أذنها..أهمس لها بحججى للبيع:

ـ خمسة عشر عامًا وثمانية أشهر.. يعيد سنته الدراسية فى الصف الثالث.. فقَدَ الاعتياد على العمل من عشرات السنين.. طُرد لعِلَلٍ لا تُحصى.. قُبِض عليه الشهر الماضى فى محطة المترو بسبب بيعه للبريتات(*) .

(*) البريت: عبارة عن قلنسوة مُقرَّنة (المترجم).

أم هاربة.. أب غير مسئول.. أتاخذونه؟

ـ ...

الآنسة ج. لا تنظر إلىّ دائماً.. هى تنظر إلى رعيّتها.. تكتفى بإشارة من رأسها تعنى نعم لكن:

ـ مع إمكانية أن تُتمتم دون ضجة بشفتيها.

ـ أى منها؟

ـ ما لا تطلب منى أن أشكرك عليها.

يا آنستى ج. البريطانية جداً.. الرضا الصامت هو أفضل ذكرياتى كمدرس! هذا فى ماريفو!(*) فى ماريفو! أتسمعنى؟ ليس فى أحد كتبك المُتديّنة.. فى ماريفو!.

إذ وجدت الجملة التى لابد أن تخدمك سرّاً كشعار: (يجب أن تكون طيبًا قليلاً جدًا فى هذا العالم حتى تعيشه كما ينبغى.)

إنْ أضِفْ أنك قُدتَ هذا الصبىّ حتى الثانوية العامة.. فسأروى عنه القليل فيما يخص نتائج هذه الطِّيبة.

(*) يقصد فى كتاب ماريفو لعبة الحب والمصادفة.(المترجم).

- ٢ -

يكفى مُدرس - مدرس وحيدا - كى ينقذنا من أنفسنا ويُنْسينا كل الآخرين. إنها.. على أى حال.. الذكرى التى أحتفظ بها عن السيد بَالْ. كان يُدرس لنا مادة الرياضيات فى الصف الأول. من وجهة نظر الحَرَكيَّة هو نقيض لكيتنج.. المدرس الذى لا يمكن أن نصفه بأقل من السينمائىّ: بيضاوىّ.. أقول.. صوت مرتفع.. ولا شىء خاص يستوقف النظر. كان ينتظرنا جالساً فى مكتبه. كان يُحيِّينا بمحبة.. ومن كلماته الأولى كنا ندخل فى الرياضيات. مما كانت تُجهّز هذه الساعة التى كانت تحتجزنا إلى حد ما؟

جوهريًا من المادة التى كان يُعلمها لنا السيد بَالْ والتى كان يبدو مُقيماً فيها.. ما كان يفعله بغرابة هو كائن حىّ.

هادىء وطيب. طيبة غريبة.. وُلدتْ من المعرفة نفسها.. رغبة طبيعية ليقتسم معنا (المادة) التى كانت تخلب عقله والتى لم يكن يتصور أننا ننفر منها.. أو أنها فقط غريبة. كان بَالْ معجوناً بمادته وبتلاميذه. كان لديه شىء من انفراج الأسارير بالمَهد الرياضىّ.. براءة مرعبة. فكرة أن يستطيع أن يُحْدث ضجيجًا لم

تكن تمسّه أبداً.. والرغبة فى أن نسخر منه لم تخطر ببالنا أبداً.. درجة أن سعادته بالتدريس كانت مُقنعة. ومع ذلك.. لم نكن نحن مستمعين وُدَعَاءَ . كلنا تقريباً خرجنا من صندوق قمامة چيبوتى.. ونادراً ما نمتلك الجاذبية. لدىّ بعض الذكريات عن الحواجز الليلية.. فى المدينة.. وعن الانتقامات الباطنية التى لم تكن تقتضى أى داع للشفقة. لكن.. منذ أن كنا نجتاز باب السيد بَالْ كنا كأننا تَطهّرْنا بتغطيسنا فى الرياضيات و.. الساعة الماضية.كان كل واحد منا يُعيد عمل سطح رياضى [1].

يوم أن نلتقى.. وحين كان من هم أكثرنا غباءً يتباهون بأصفارهم المُنقَّطة[2].. كان يَردُّ بابتسامة أنه لا يعتقد فى المجموعات الخاوية. علامَ.. وَجَّه بعض الأسئلة البسيطة بشدة واعتبر إجاباتنا البسيطة كتِبْرٍ نفيس جداً.. وهذا ما كان يُسلينا كثيرًا.

ثم.. كان ينقش العدد ١٢ على السبورة سائلاً إيانا ما الذى كتبه هناك. كان أكثرنا يقظة يحاولون الخروج:

ـ أصابع اليد الاثنا عشر!.

ـ الاثنا عشر تنبيه رسمىّ!.

لكن البراءة.. فى ابتسامته.. كانت تشجع حقيقةً:

ـ إنها أقل درجة ستحصلون عليها فى البكالوريا.

---

(١) نسبة إلى مادة الرياضيات ووردت فى الأصل الفرنسى هكذا: mathematikos. وهى ليست فرنسية. (المترجم).

(٢) الصفر المُنقَّط هو الذى يرسب الحاصل عليه فى الامتحان. (المترجم).

أضاف:

ـ لو كففتم عن أن تخافوا.

وأيضاً:

ـ من جهة أخرى.. لن أعود إليها مرة أخرى. إنها ليست البكالوريا التى سننشغل بها هنا.. إنها الرياضيات. فى الحقيقة.. لم يعد يحدثنا ولو لمرة واحدة عن البكالوريا.

أمٌّ تلو أمٍّ.. انْشغلَ هذا العام بجعلنا نصعد مرة أخرى من هاوية جهلنا..لاهين بجعله يمر من بئر العلوم نفسه.. دائماً ما كان مندهشاً بشدة مما كنا نعرفه رغم كل شىء.

ـ أتعتقدون أنكم لا تعرفون أى شىء.. إذاً أنتم مخطئون.. مخطئون.. أنتم تعرفون عنها الكثير!.

انظر.. يا بناكشيونى.. أكنتَ تعرف أنك تعرف هذا؟

بطبيعة الحال.. هذه التَسْآلية[١] لا تكفى لتجعل منا عباقرة فى الرياضيات.. ولأن بئرنا كانت عميقة جداً.. فقد قادنا السيد بَالْ مرة أخرى جميعاً إلى مستوى مثابة البئر[٢]: المتوسطة فى البكالوريا.

ودون أدنى إشارة.. أبداً.. إلى مستقبلنا المشئوم الذى وِفقاً لعدد من المدرسين الآخرين ومنذ زمن طويل جداً.. كنا ننتظره.

---

(١) هى استخراج الحق من النفس عن طريق توجيه الأسئلة فى منهج سقراط. (المترجم).

(٢) حجر منقور مثبت حول فوهة البئر. (المترجم).

- ٣ -

هل كان هو نفسه عالمَ رياضيات كبيراً؟

و.. العام التالى الآنسة جى مؤرخة عملاقة؟

و.. طوال فصلى الدراسى الثانى.. السيد س. الفيلسوف منقطع النظير؟ أقدّره.. لكنى والحق يُقال أتجاهله.. أُدرك وحسب أن هؤلاء الثلاثة كانوا مسكونين بشغف مادتهم السارى. مسلحين بهذا الشغف جاءوا يبحثون عنى فى قاع إحباطى ولم يرخوا لقدمىَّ الهادئتين بصلابة فى درسهم العنانَ سوى لمرة واحدة.. درسهم الذى تناوب فى كونه مدخلاً لحياتى. لم يكن اهتمامهم بى أكثر من الآخرين.. كلا.. لقد كانوا ينظرون إلى تلاميذهم الجيدين وتلاميذهم الكسالى بالتساوى. كانوا يعرفون كيف يُنعشون لدى تلاميذهم فى الصف الثانى الرغبة فى الفهم. كانوا يرافقون مجهوداتنا خطوة بخطوة.. كانوا يبتهجون بتقدّمنا.. لم يكونوا ليعيل صبرهم من توانينا.. لم يعتبروا إخفاقاتنا أبداً كإهانة شخصية وكانوا يلتزمون معنا بضرورة قاسية لا سيما وأنها كانت مُشيدة على الجودة.. مثابرة وسخاء عملهم الخاص بهم. بالنسبة إلى الباقين ..لا نستطيع أن

نتخيل مدرسين أكثر اختلافاً.. السيد بَالْ.. هادئ جداً ومبتسم كثيراً.. بوذا [1] رياضىّ .. الآنسة چى على العكس جذع الريح (ترونـد ليـر[2] كما يقولون فى قريتى).. إعصار كان يقتلعنا من غطاء كَسَلِنا كى نتدرب معها فى حصة التاريخ الصاخبة.. حين كان السيد س. الفيلسوف الشكَّاك والمُقرَّن (أنف مقرنة.. قبعة مقرنة.. بطن مقرن).. الثابت وثاقب الفكر.. يتركنى مساءً أجىء مدندناً بالأسئلة التى كنت أحترق للإجابة عليها. كنتُ أعيد إليه المقالات الغزيرة التى كان يصفها بالتامة.. مشيراً من هناك أن رفاهيته كمُصحِّح كانت ترتضى واجبات أكثر إيجازًا. بعد إعْمال الفكر.. لم يكن لدى هؤلاء المدرسين الثلاثة قاسم مشترك سوى: لم يكونوا ليفلتونا أبداً.لم ينخدعوا باعترافاتنا..اعترافات الغباء. (كم مقال جعلتنى الآنسة چى أعيدها بسبب عدم انضباط خطى؟

كم درس إضافىّ أعطاه لى السيد بَالْ؛ لأنه كان يجدنى فى هيئة الغائب فى الرواق أو شارد الذهن فى قاعة المراقبة؟ [3] "لو أننا درسنا رياضيات لمدة ربع ساعة قصير.. يا بناكشيونى.. ما دمنا فيها؟ هيا.. إنه ربع ساعة قصير وجيد... ب).

---

(١) بوذا لقبٌ يطلقه البوذيون على الحكيم الذى توصل إلى حالة الفناء المطلق. (المترجم).

(٢) الجملة الأصلية التى تعنى جذع ريح هى(tronc de lair) وتنطق فى قرية المؤلف هكذا: (tronde lèr) (المترجم).

(٣) قاعة يُراقب فيها التلاميذ الذين لا يتلقون دروسهم لسبب ما. (المترجم).

صورة الإشارة التى تنقذ من الغرق .. قبضة اليد التى تسحب إلى أعلى رغم إيماءاتكم الانتحارية.. هذه الصورة الفظة لحياة يد مُمْسكة بصلابة بياقة جاكت هى الأولى التى تخطر ببالى حين أفكر فيهم. فى حضورهم ـ فى مادتهم ـ كنت أتفتح على نفسى: جزء منى عَالِمُ رياضيات .. إن جاز لى أن أقول هذا.. جزء منى مؤرخ.. جزء منى فيلسوف.. جزئى الذى فى مسافة ساعة كان يُنسينى القليل .. يُلصقنى بين قوسين .. يتملص من جزئى الذى إلى أن قابلت هؤلاء المعلمين كان يمنعنى أن أشعر حقيقةً هناك بنفسى.

ثمة شىء آخر.. كان يبدو لى أنهم كان لديهم أسلوب. كانوا فنانين فى توصيل مادتهم. كانت دروسهم أفعال اتصال.. أكيد.. بل عِلْم سُيطر عليه فى ذاك الوقت الذى كان يمر من أجل الإبداع الذاتى تقريباً. كانت رفاهيتهم تجعل من كل ساعة حدثًا نستطيع أن نتذكر جزءاً منه إلى حد ما. لنعتقد أن الآنسة چى كانت تُجدد التاريخ.. أن السيد بَالْ كان يُعيد اكتشاف الرياضيات.. أن سقراط يتكلم عن طريق فم السيد س.ا.

كانوا يعطوننا دروساً جديرة بالذكر مثل النظرية.. معاهدة السلام أو الفكرة الجوهرية التى كانوا ينشئونها منها.. فى ذاك اليوم.. الموضوع وهم يعلموننا كانوا يبتكرون الحدث. تأثيرهم علينا كان يتوقف هناك على أى حال.. تأثيرهم يتصاهر خارج المادة التى كانوا يجسدونها.. لم يكونوا يبحثون عن

إثارة شعورنا. لم يكونوا من أولئك المدرسين الذين يفتخرون بهيمنتهم على مجموعة من مراهقين يشتاقون إلى صورة الأبوة. أكانوا يشعرون فقط أنهم معلمون مُنقِذون؟

أما من جهتنا.. فقد كنا تلاميذهم. تلاميذ الرياضيات.. التاريخ.. الفلسفة.. ولم نكن إلا هذا. بالطبع.. كنا نجتذب منهم أنفة متحذلقة بعض الشيء.. كأعضاء في نادٍ محكم الغلق.. لكنهم كانوا أوائل المُبَاغَتين حين علموا بعد ذلك بخمسة وأربعين عاماً أن واحداً من تلاميذهم أصبح بفضلهم مُدرساً.. ربما يخدع التلاميذ إلى الحد الذى ينصب لهم تمثالاً!

بالقدر نفسه. مثل عازف فيولونسيل بلان. مِسنّى.. ذات يوم.. وهم عائدون إلى منازلهم.. خارجين من تصحيح كراساتنا أو من تحضير دروسهم لا يفكرون فينا إلا نادرًا. كان لديهم بالتأكيد مراكز أخرى لمصلحتهم.. فضول مفتوح.. كان يجب أن يُغذى قوّتهم.. الذى كان يفسر بين الآخرين.. كثافة حضورهم فى الفصل. (آنسة جى بخاصة كانت تبدو لى أنها تمتلك شهية التهام العالم ومكتباته).

لم تكن ذى فقط هى معرفتهم التى كان هؤلاء المدرسون يقتسمونها معنا.. كانت هذه هى الرغبة نفسها فى المعرفة!.

وهذا هو ذوق توصيلها الذى كانوا يوصلونه إلىّ بضرية.. كنا نذهب إلى دروسهم والجوع يعض بطوننا. لن أقول إننا كنا نشعر أنهم يحبوننا لكننا كنا مُعتبرين منهم بالتأكيد (مُحْتَرَمِين.. قد يقولها شباب هذه

الأيام). الاعتبار الذى كان يتجلى حتى فى تصحيح كراساتنا .. حيث كانت تعليقاتهم لا تتوجه إلا إلى كل واحد منا بوجه خاص نموذج هذا النوع هو تصويبات السيد بو مُدرس التاريخ فى إيبوكانى. كان يُلْزِمُنا بترك الصفحة الأخيرة من مقالاتنا عذراء كى يتمكن من الكتابة عليها باستخدام الآلة الكاتبة ـ باللون الأحمر.. على فاصل وحيد بين سطرين ـ التصويبَ التفصيلى لكل واجب!.

هؤلاء المدرسون.. الذين قابلتهم خلال سنوات دراستى الأخيرة.. جعلونى أتغير كثيراً عن كل الذين كانوا يُقَلِّصون تلاميذهم إلى كتلة مشتركة وبلا كثافة.. (هذا الفصل).. الذى لم يكونوا يتحدثون عنه إلا باستخدام أفعل تفضيل النقص. كنا دائماً فى عيون هؤلاء أسوأ تلاميذ صف رابع.. ثالث.. ثانٍ.. أول أو صف مهنتهم النهائى.. لم يكن لديهم أبداً فصل أقل... جداً.

كنا نقول إنهم يخاطبون مُستمِعِين فى تناقص من سنة إلى سنة جديرين بأن يعلموهم. كانوا يشكونهم إلى الإدارة.. إلى مجلس الفصول.. إلى مجلس الآباء. كانت شكاواهم توقظ فينا شراسةً خاصة.. شىء ما كالحَنَق الشديد الذى يرتديه الغارق ليسحب أثناء غرقه قائداً نذلاً ترك المركب ترتفع على خازوق على صخرة قرب الشاطئ.(*) (نعم.. إنها صورة فى

(*) هنا يستخدم المؤلف كلمة: récif التى تعنى الصخرة، وهى مأخوذة عن الكلمة العربية : رصيف.(المترجم).

النهاية.. لنقلْ إنهم كانوا خاصةً مذنبينا المثاليين كما كنا نحن كذلك بالنسبة إليهم.. كان انخفاضهم النمطى يطعم فينا أذىً من الرفاهية.)

كان أكثرهم إرعاباً السيد بلامار (بلامار اسم مستعار) جلادى الحزين وأنا فى عامى التاسع.. والذى كان يجعلها تمطر فوق رأسى درجات سيئة ومازالت إلى اليوم.

ثابتاً فى ذيل هيئة إدارية.. بلغ الأمر بى أن أعتبره تذكرة انتظارى كحُكم قضائى من بلامار: (رقم ١٧٥.. بناكشيونى.. دائماً ما يكون بعيداً عن التهانى!).

أو مدرس العلوم الطبيعية هذا.. فى السنة النهائية.. الذى طُردتُ من المدرسة الثانوية بسببه. متذمراً من أن المتوسط العام لـ (هذا الفصل) لم يتجاوز ٣,٥ / ٢٠ .. اقترف هو نفسه تغابينا سائلاً عن السبب. جبهة متعالية.. ذقن ممدود.. ملتقى شفتين نازل: حينئذ هل فى مقدور شخص ما أن يشرح هذا... الإقدام؟

رَفعْتُ بأدب جم سبابتى واقترحت تفسيرين ممكنين: أو فصلنا الذى كان يتكون من مسخ إحصائى (٣٢ تلميذاً لا يستطيعون أن يتجاوزوا المتوسط ٣,٥ فى العلوم الطبيعية).

أو هذه النتيجة التى تتضور جوعًا التى كانت تُقرُّ جودة التعليم المجانى.

سعيد منى.. أفترض.

وقبيح على الباب.

ـ بُطوليّ لكن دون جدوى.. جعلني ألاحظ رفيقاً:

أتعرف الفرق بين مدرس وأداة؟ المدرس السيئ غير قابل للإصلاح أو الترميم.

تغير لونه وقتها.

هيجان أبي بكل تأكيد.

ذكريات قذرة.. سنوات الغلّ المألوف هذه!.

- ٤ -

بدلاً من أن أجمع وأنشر لآلئ التلاميذ الكسالى.. الذين كانوا يُبهجون عددًا من قاعات المدرسين. علىّ أن أكتب أنطولوچيا[١] عن المعلمين الجيدين. لن يفتقر الأدب إلى هذه الشهادات:

ڤولتير يُثنى على يسوعيّى تورنمين وبوريه..

رامبو يُخضع قصائده للمدرس إيزمبار..

كامى يكتب رسائل بنوية [٢] إلى السيد چيرمين.. مدربه العسكرى المحبوب..

چوليان جريه يُرجع ذكراه العطوفة إلى الصورة العليا الملونة للسيد ليزيليه.. مدرسه لمادة التاريخ..

سيمون ويل تغنى مديحها لمعلمها ألين..الذى لن ينساه أبداً چول لانيو الذى جعله يتفتح على الفلسفة..

ج. ب. بونتالى يحتفى بسارتر الذى كان (يختلف) عن كل المدرسين الآخرين إلى درجة عالية...

لو.. فضلاً عن المعلمين ذائعى الصيت.. كانت هذه الأنطولوچيا تقدم بورتريهاً للمدرس الذى لا

(١) الأنطولوجيا: هى المختارات أو المقتنيات.(المترجم).

(٢) نسبة إلى الابن. (المترجم).

يُنسى الذى قابلناه جميعاً على الأقل لمرة وحيدة تقريباً فى فترة دراستنا.. ربما كنا اجتذبنا منه بصيص ضوء عن المميزات الضرورية لممارسة هذه المهنة الغريبة.

ـ ٥ ـ

على مدى تَذكّرى.. حين يُوهن عزم المدرسين الشبان على يد تلاميذ فصل.. يَشْكون من أنهم غير مُهيّئين لهذا. الـ [هذا] الخاص بأيامنا هذه.. واقعىّ تماماً.. يُعيد تغطية مجالات متنوعة مثلها مثل تربية الأطفال السيئة بواسطة الأسرة خائرة القُوى.. الأضرار الثقافية وثيقة الصلة بالبطالة والطرد.. فقْد القيم الوطنية التى تنجم عن العنف فى بعض المؤسسات.. التباينات الألسنية.. العودة إلى الدين.. بل أيضاً التليفزيون.. الألعاب الإلكترونية.. باختصار.. كل ما يُغذّى ـ كَثر أو قلَّ ـ المجتمع التشخيصى الذى تقدمه لنا كل صباح نشرات الأخبار الأولى. مِنْ (نحن لسنا مهيئين لهذا) إلى (نحن لسنا هناك لـ) لا توجد سوى خطوة يمكن أن نوضحها هكذا: (نحن ـ المدرسين ـ لسنا هناك لنذيب داخل المدرسة مشكلات المجتمع التى تضع حجاباً على توصيل العلم.. ليست هذه هى مهنتنا. ليتهم يُلحقون بنا عدداً كافيًا من المشرفين.. من المُربين.. من المساعدين الاجتماعيين.. من علماء النفس.. باختصار. عدداً من الاختصاصيين فى كل المجالات وسنستطيع أن نُدرّس بجدية المواد

الدراسية التى قضينا سنوات عديدة فى دراستها.)
مطالبات لم نعد نستطيع أن نُبررها والتى يقاومها الوزراء المتعاقبون تذرعاً بحدود الميزانية. ها نحن ندخل مرحلة جديدة من تهيئة المعلمين، والتى ستتمحور أكثر فأكثر حول مهارة الاتصال التامة مع التلاميذ. هذا العون لا غنى عنه.. لكن لو أن المدرسين الشبان فى انتظارهم لمحاضرة معيارية تسمح لهم بإذابة كل المشكلات التى يواجهونها داخل فصل.. سيذهبون فى اتجاه خيبات جديدة.. فسيصمدون فى الـ (هذا) الذى لم يتهيأوا له بالاختصار.. أخشى أنَّ (هذا) لن يُترك أبداً ليُحاصر تماماً.. أن (هذا) لن يكون من طبيعة أخرى سوى مجموع العناصر التى تُكوّنه موضوعيًا.

ـ٦ـ

الفكرة التى نستطيع أن نُدرّسها دونما صعوبة تتعلق بتصور التلميذ الروحىّ. يجب أن يصور لنا العقل التربوىّ التلميذ الكسول كالتلميذ الأكثر طبيعيّةً الذى قد يكون: الذى يؤيد ـ بلا تحفظ ـ وظيفة المدرس بما أننا لدينا كل شىء لنعلمه له. لنبدأ بالاحتياج نفسه إلى للتعلم !.

والحالة هذه.. هو ليس شيئاً منه. منذ ليلة الفترات الدراسية والتلميذ الذى يُعتبر طبيعيًا هو التلميذ الذى يواجه أقل صدود فى التعليم.. الذى لا يشك فى علمنا ولا يضع جدارتنا تحت التجربة.. تلميذ يكتسب تقدماً.. موهوب بمَلَكَةِ الفهم الحاضرة.. الذى كان يوفر لنا البحث عن طرق الوصول إلى قوة فهمه.. تلميذ مسكون ـ بشكل طبيعى ـ بالاحتياج إلى التعلم الذى قد يكف عن كونه صبياً مشاغباً أو مراهقاً لديه مشكلات أثناء وقت درسنا.. تلميذ مقتنع منذ المهد أنه يجب أن يُخمد شهواته ومشاعره بتدريب عقله إن لم يُردّ أن يعيش فى أدغال النشّالين.. تلميذ مطمئن من أن الحياة الفكرية /العقلية هى منبع السعادات الذى نستطيع أن

نُشكّله إلى ما لا نهاية.. نُصَفّيه إلى أقصى حد.. حين يكون معظم سعاداتنا الأخرى وقفاً على رتابة التكرار أو إضعاف الجسد.. باختصار تلميذ يفهم أن العلم هو الحل الوحيد :حل للعبودية حيثما يُبقينا الجهل والمواساة الفريدة لعزلتنا الأنطولوچية.

إنها صورة التلميذ المثاليّ التى تظهر فى الأثير حين أسمع جملة: (أدين بكل شىء لمَدرسة الجمهورية!) تُنطق.. أنا لا أتهم اعتراف من ينطقها بالجميل. (كان أبى عاملاً وأنا أدين بكل شىء لمدرسة الجمهورية!) أنا لا أنتقص كذلك من مزايا المدرسة وجدارتها. (أنا ابن مهاجر وافد وأدين بكل شىء لمدرسة الجمهورية!).

لكن.. هذا أقوى منى بكثير.. ما إن أسمع هذا الإفصاح العلنى للاعتراف بالجميل.. أرى فيلماً يتجلى للعَيَان ـ فيلم طويل ـ على شرف المَدرسة بالطبع.. بل على شرف هذا الطفل خاصة الذى كان يفهم منذ ساعته الأولى فى الحضانة.. والذى كانت مَدرسة الجمهورية مهيأة لتَكْفُلَ له مستقبله لو أنه كان التلميذ الذى تنتظره منه.. والخزى لِمَن لا يُلبّون هذا الانتظار!

آنئذ.. صوت صغير يروح يُعلّق على الفيلم داخل رأسى:

ـ هذا صحيح. يا صَبِيّى.. أنت مدين بالكثير لمدرسة الجمهورية.. بل بكثرة.. لكن ليس بكل شىء.. ليس بكل شىء.. أنت مخطئ بخصوص هذه النقطة. أنت تنسى تقلبات المصادفة. ربما كنتَ طفلاً فاقت

موهبتك المتوسط ـ على سبيل المثال ـ أو كنتَ شابًا وافداً رُبّى على يدىْ أبويْن ودوديْن متطوعيْن وثاقبى الفكر. كأبوىْ صديقتى كاإينا (١).. اللذيْن كانا يريدان ألا يُعامل أى رجل ذات يوم بناتهما الثلاث المستقلات والحاصلات على شهادات مثلما كما كان التعامل مع نساء جيلهم ستستطيع على العكس أن تكون مثل (ببيرى)(٢) القديم.. نِتاج مأساة عائلية.. أن تعثر على نجاتك الفريدة فى دراساتك. تغوص فيها بعمق كى تنسى.. وقت الفصل.. ما تخبئه لك العودة إلى المنزل. أو كذلك كنتَ مثل مين.. طفلاً حبيس قفصه. قفص من أصابه الربو والذى يتعطش لتعَلُّم كل شىء فى الحال كى يخرج من فراش المريض: (تعلَّمْ لتتنفس.. قالت لى.. كمن يفتح نوافذ.. تعلم لئلا تختنق.. تعلَّمْ.. اقْرأ.. اُكْتبْ.. تَنفّسْ.. افتح الكثير من النوافذ دائماً.. الهواء.. الهواء.. أُقْسم لك.. العمل الدراسى كان هو طريقتى الوحيدة لأحلّق خارج رَبْوِى(٣).. وكنتُ أهزأ جيداً من صفة المدرسين.. أخرج من سريرى .. أذهب إلى المدرسة.. أعُدّ.. اضرب عدداً فى عدد.. أقْسِم.. أتعلم قاعدة النسبة.. أسْرُد قواعد مِندلْ .. أنا فى علم فى كل الأيام تقريباً.. إلا إذا كنتُ ممهوراً بتضخم شخصية چيروم المهزارة: (منذ أن تعلمتُ كيف أقرأ وأعد عرفت أن العالم كان لى أنا!.

(١) Cahina.

(٢) هنا ينسب الشخص الذي يُدعى بيير إلى نفسه.(المترجم).

(٣) يقصد داء الربو. (المترجم).

فى سن العاشرة كنت أقضى عطلاتى الأسبوعية فى فندق ـ مطعم جدتى وبحجة أن أقدم يد العون فى الردهة كنتُ أكسر الأقدام للزبائن موجهاً إليهم كل أنواع الأسئلة العويصة: فى أى عمر مات لويس الرابع عشر؟ إلى أى نعت وَصْفى تنتمى ...؟ ١٢٣ مضروبة فى ٧٢ ؟ الإجابة التى كنتُ أفضلها كانت: لا أعرف عنه شيئاً لكنك سوف تخبرنا عنه. كان غريباً أن أعرف عنه فى عمر العشر سنين أكثر من الصيدلى أو كاهن ركن! كانوا يُربِّتون على خدى مع رغبةٍ فى انتزاع رأسى منى.. كان هذا ما يُسلينى بجنون).

تلاميذ ممتازون. كاإينا. مين. بيير.. چيروم وأنتَ.. وصديقتى فرانسواز التى تعلمتْ كل شىء وهى تلعب.. منذ نعومة أظافرها دون أدنى كبْح ـ آه! ملَكتها المذهلة فى اللهو بجدية! ـ حتى اجتياز شهادة الأستاذية عبر الرسائل الكلاسيكية كأن المقصود اللعب بآلاف اليوروهات(*).

أبناء أو بنات مهاجرين وافدين.. عُمال.. موظفين.. فنيين.. معلمى ابتدائى.. أو كبار البرجوازيين.. بعضهم مختلف كثيراً عن بعضهم الآخر.. هؤلاء الأصدقاء.. لكنهم جميعاً تلاميذ ممتازون. كان هذا هو الحد الأدنى الذى وسَمتكم به مدرسة الجمهورية.. هم وأنت!.

والذى ساعدتْك به لتصبح ما تكونه الآن!

لم يعد ينقصها إلا أن تُخطئك!.

(*) جمع يورو .. العملة الأوروبية الموحدة. (المترجم).

أنت ترى أنها لم تترك منه شيئاً كافياً على حافة الطريق .. مدرسة الجمهورية؟

مُبجّلاً المدرسة للغاية.. إنه أنت مَن تُطّريه سِرًا.. وتستقر أكثر أو أقل بوعى داخل التلميذ المثالى. أثناء هذا.. تُموّه ثوابت (*) لا تُحصى تجعلنا إلى حد ما غير متساوين فى تَمَلّك العلم: حالات.. حاشية.. علوم الأمراض.. مزاج.. آه للغز المزاج!.

(أنا مدين بكل شىء لمدرسة الجمهورية!).

أكان هذا ما تريد أن تجعله يجتاز كفاءاتك من أجل عدد من الفضائل؟ (البعض والبعض الآخر لم يكن متعارضاً فى مواطن أخرى...).

قَلِّصْ نجاحك إلى مسألة مشيئة.. عناد.. تضحية.. أهذا ما تريد؟

صحيح أنك كنتَ تلميذًا مجتهدًا ودءوبًا وأن الجدارة تعود إليك منه.. لكن أيضاً لأنك تمتعتَ مبكرًا جداً باستعدادك للفهم.. جريتَ منذ مقابلاتك الأولى فى العمل الدراسى بهجة الفهم العارمة.. وأن المجهود الذى كنتَ تبذله كان يحمل فى طياته الوعد بهذه البهجة!.

فى الوقت الذى كنتُ أجلس على طاولتى المفروشة باعتقاد بلاهتى الراسخ.. كنتَ تستقر أنت على طاولتك التى ترتج من نفاد الصبر.. نفاد صبر الانتقال إلى شىء آخر أيضاً.. لأن مسألة الرياضيات

(*) الثابتة: هى كمية محددة تتوقف عليها دالة من المتغيرات المستقلة. (المترجم).

هذه التى كنتُ أنام عليها كنتَ أنت تتجزها فى لحظة. واجباتنا.. التى كانت مِقْفز[1] عقلك.. كانت هى الرمال المتحركة التى يغوص فيها عقلى. كانت تَدَعُكَ طليقاً كالهواء.. مع رضا الواجب المكتمل.. وأنا بليد الجهل.. أُمَكْيِج موجةً مشوَّشة فى نسخة قطعية بمساعدة عدد وافر من عمليات السَّحْب التى تجذب بعناية والتى لم تكن تخدع أحداً. فى الوصول. كنتَ أنت المجتهد وأنا كنتُ الكسول. إذاً كان هذا هو الكسل؟ هذا هو الغوص فى الرمل بذاته؟ والاجتهاد ماذا كان إذًا؟

كيف كان يتعاطونه من كانوا يعملون جيداً؟

من أين كانوا يغترفون هذه الطاقة؟

كان هذا هو لغز طفولتى. المجهود.. حيثما كنتُ أتلاشى.. كان بالنسبة إليك منذ بداية اللعبة دليل انشراح كنا نجهل أنت وأنا أنه (يجب أن تنجح كى تفهم).. طبقاً لكلمة بياچيه الواضحة للغاية.. وأننا كنا أنت مِثْلى.. المثَل الحى الواضح لهذه المُسلَّمة[2] . هذا الشغف بالفهم.. أنتَ حافظت عليه بتصميم طوال حياتك.. لقد أحسنتَ صُنعاً وبقسوة. إنه لا يزال يلمع اليوم فى عينيك!.

مَن كان يلومك عليه كان سيكون حسودًا أبله... لكن أرجوك كُف عن أن تجعل كفاءاتك تنتقل إلى فضائل.. فهذا يخلط الأوراق.. يُعقِّد المسألة المعقدة

---

(١) لوح مائل مرن يقفز منه الغاطس.(المترجم).

(٢) الحقيقة غير القابلة للجدل أو النقاش.(المترجم).

سلفاً بشدة من التعليم (إنه عيب الخُلُق المنتشر بما فيه الكفاية). أتعرف من كنتَ فى الحقيقة؟

كنتَ تلميذًا / قطعة حلوى.

على هذا النحو.. بعد أن أصبحتُ مدرساً كنتُ أطلق (فى سرّى) على تلاميذى الممتازين.. اللآلىء نادرة الوجود.. حين كنتُ أجد أحدهم فى فصلى. أحببتهم كثيراً.. تلاميذى قطع الحلوى!.

كانوا يُريحوننى عن الآخرين. كانوا يُنعشوننى. مَنْ يفهمْ أسرع.. يُجِبْ بدقة.. وغالباً فى فكاهة.. هذه العين التى تتوقد.. هذه الفطنة فى يُسْر التى هى النعمة السامية للذكاء.

الصغيرة نوآمى(*).. على سبيل المثال (عفواً.. نوآمى الكبيرة. هى الآن فى الصف الأول!).. التى كان يشكرها مدرسها.. مدرس اللغة الفرنسية.. فى العام الماضى.. على شهادتها الدراسية: (شكرًا) بكل بساطة. كان مدرسها محروماً من التقديرات التقريظية: نوآمى ب. اللغة الفرنسية ١٩/٢٠.. شكرًا. للإنصاف: مدرسة الجمهورية مَدينة بالكثير لنوآمى. مثلما هى مدينة لابن عمى الشاب بيير الذى أخبرنا أنه حصل على درجة جيد جداً فى البكالوريا قبيل أن يعود ليجابه من فوق مركب شراعى المحيطَ خاصة وهو سريع الغضب فى الأيام الأولى من شهر يوليه : (أحاسيس أكثر قوة قليلاً من الامتحانات...).

(*) Noémie

يُلوّح لنا بضحكته الجميلة.

نعم.. دائماً ما أحببتُ التلاميذ الجيدين. كنتُ أشفق عليهم.. أيضاً.لأنهم كانت لديهم آلامهم الخاصة: أبداً لا يُخيبون أمل انتظار البالغين.. ينزعجون من ألا يكونوا سوى فى المرتبة الثانية حين يحتكر قمىء أونتل المرتبة الأولى.. يخمنون حدود المدرس فى تَملُّك دروسه.. وبناءً عليه.. يسأمون فى الفصل قليلاً.. يعانون من تهكم أو غيرة عديمى الكفاءة .. يكونون مُتَّهَمين بالتحالف مع السُّلطة.. وإلى هذا تنضم مثلما هى بالنسبة إلى الآخرين عقبات النمو المألوفة.

بورتريه لتلميذ قطعة حلوى: فيليب.. فى الصف السادس.. فى السبعينيات.. نحيف جداً فيليبى.. عمره أحد عشر عامًا.. ذو أذنيْن عموديين.. وُهب خاصية هائلة تتعلق بعمره تجعله يُزأزئ (١) كنحلة.

سألته إن كان قارن جيداً بين مفهوم اللغة العادية هذا وبين مفهوم اللغة المجازية التى كنا نتحدث بها عن الأرق.

- لغة عادية ولغة مجازية؟ تماماً يا سيدى.أنا مكتظ بالأمثلة التى أعرضها عليك(٢)!.

- أرجوك يا فيليب.كلنا آذان صاغية.

- حسناً هو ذاك.مساء أمس كان ثمة مدعوون فى منزلنا. قدمتنى أمى لهم بلغة مجازية. قالت: (إنه

(١) زأزأ: أى نطق حرف الجيم زاياً. (المترجم).

(٢) فى هذا الحوار نطق فيليب كل حروف الجيم زاياً. (المترجم).

فيليب.. صغيرى الأخير).. أنا الأخير.. هذا صحيح آنيًا على أى حال.. لكن ليس صغيراً على الإطلاق.. بالأحرى كبير بالنسبة إلى عمرى!.

(لديه شهية عصفور).. هذه حماقة.. العصافير تأكل وزنها مرة فى اليوم.. وأنا على ما يبدو لا آكل شيئاً تقريباً. وقالت أيضاً إننى دائماً على القمر.. فى حين أننى كنتُ هناك.. على المنضدة.. معهم.. كان الجميع يستطيعون أن يشهدوا بذلك!.

وبالنسبة إلىّ لا تحدثنى إلا بلغة عادية:

(اخرس.. جفف فمك.. لا تضع مرفقيْكَ على المنضدة.. قل مساء الخير.. واذهب لتنام...)

جذب فيليب من هذا خلاصة أن اللغة المجازية كانت هى لغة معلمات المنزل وأن اللغة العادية هى لغة أمهات العائلة.

- وبعض المدرسين يا سيدى.. وضّحَ. مدرسون مع تلاميذهم!.

لا أعرف ماذا أصبح فيليب المزأزئ.. نموذج مثالى للتلميذ قطعة الحلوى. إلام ينقل حياته؟ أأصبح مدرساً؟ كم أحب أن يكون كذلك.أو.. الأفضل..أن يكون قد كُلِّف فى نورمال سوب أو فى IUFM بتدريب المدرسين على حقيقة التلاميذ كما هم فعلاً. لكن ربما يكون فقد مَلَكاته التربوية. ربما تخيلناه أكثر ابتكاراً ليقوم بمهنة التدريس.. ربما يكون قد نام.ربما يكون قد توارى.

- ٧ -

إذًا.. التلميذ كما كانه. هو تماماً هناك.

(انتبه.. نبَّهنى أصدقائى حين شرعتُ فى تأليف هذا الكتاب.. التلاميذ تغيروا كثيراً جداً منذ طفولتك.. بل منذ عشرات السنين التى توقفتَ فيها عن التدريس!.

لم يعودوا على الإطلاق هم التلاميذ أنفسهم.. أنت تعرف!)

نعم ولا. إنهم أطفال ومراهقون لهم عمرى نفسه فى نهاية الخمسينيات.. هى ذى على أى حال نقطة العرفان بالجميل. يستيقظون دائماً مبكراً جداً.. مواعيدهم وحقائبهم ثقيلة جداً ومدرسوهم.. جيدون وسيئون يبقون أطعمة لذيذة على قائمة محادثاتهم.. ثلاث نقط مشتركة أخرى. آه! اختلاف: هم أكثر كثيراً مما كانوا عليه فى طفولتى.. حين كانت الدراسة تتوقف كثيراً بشهادة الاسم نفسه. هم من كل الألوان.. على أى حال فى حَيِّى.. حيثما يعيش المهاجرون الوافدون الذين بنوا باريس المعاصرة. العدد واللون يصنعان بعض الاختلافات البارزة.. هذا صحيح.. لكن

من يتلاشون بمجرد أن نترك العشرين دائرة [١].. خاصة اختلافات اللون كثيرون فى تناقص.. تلاميذ اللون .. هابطين من هضابنا فى اتجاه وسط باريس. تقريباً ما من أحد فى المدارس الثانوية التى تلتصق بالبانتيون[٢] . عدد قليل من التلاميذ المُبعَدين.. فى أواسط مُدننا ـ تقديم الرحمة فلنقل ـ وها نحن نعود إلى المدرسة البيضاء فى الستينيات. لا.. الاختلاف الجوهرى بين تلاميذ اليوم وتلاميذ الأمس مذهل: لا يرتدون بلوفرات أخْوتهم الكبار القديمة هو ذا الاختلاف الحقيقى!.

كانت أمى تَزْرد بلوفراً لأخى برنار الذى.. بعد أن كبر.. أعطانيه الشىء نفسه بالنسبة إلىّ دوميه وچان - لويس.. أجدادنا (صدريات) أمنا الصوف كانت تُكوّن مفاجأة عيد الميلاد الذى لا مفر منه. لم تكن توجد ماركة. ولا بدچاً مكتوباً عليه بلوفر أمى.. على الرغم من أن أغلب أطفال جيلى كانوا يرتدون بلوفرات ماركة بلوفر أمى[٣].

اليوم.. لا.. إنها الجدة ماركتتج التى تكسو الكبار والصغار. إنها هى التى تكسو.. تُغذّى.. تسقى.. تُلبس الأحذية.. تُصفّف الشَّعر.. تزود المرء بكل شىء.. هى من تُدرّع تلميذ الإلكترونيات.. ساعة بتروس.. دراجة.. سكوتر.. موتوسيكل.. دراجة أطفال.. إنها

(١) يقصد عدداً من المناطق فى المدينة. (المترجم).

(٢) البانتيون هو مجمع الأرباب عند القدماء (المترجم).

(٣) يقصد البلوفرات التى تصنعها الأمهات فى المنازل بيديها. (المترجم).

هى من تُلهيه.. تُشكّله.. تَجثم فوقه.. وتضعه تحت إصفاق موسيقىّ (١) مستمر وتنثره مأكولاً فى أركان الكون الأربعة.. إنها هى التى تُنيِّمه. هى التى توقظه.. وحين يجلس فى الفصل هى التى تهتز فى قاع جيبه لكى تطمئنه:

أنا هنا..لا تخف.. أنا هنا.. فى هاتفك..أنت لست رهينة المَنْبذ(٢) الدراسىّ!.

(١) الإصفاق: هو نقل سائل من إناء إلى آخر. (المترجم).

(٢) المنبذ: هو مكان يقيم فيه أقلية منبوذة. (المترجم).

-٨-

طفل مات.. فى السبعينيات. لنسميه الطفل ول.على اسم چول فيرى.. وزير المعارف العامة (١) بين عامى ١٨٧٨ و١٨٨٣. نقول كأن الطفل چول كان خالداً وكان يوجد منذ الأزل..لكنه كان جنيناً منذ أقل من قرن.. أتحقق بانشداه أنه كان يعيش ملياً لكن أقل من أمى العجوز. تخيله روسو قرابة عام ١٧٦٠ فى صورة عَسِب(٢) عقلى يُدعى إيميل.. ثم جاء به إلى العالم فيما بعد بقرن ڤيكتور هوجو الذى تعهد بواجب انتزاع الأطفال من العمل حيث كان يُكبلهم العالم الصناعى الناشئ: (حق الطفل أن يكون إنساناً.. كتب هوجو فى أشياء منظورة..(٣) ما يصنع الإنسان هو الضوء.. ما يصنع الضوء هو التعليم المجانى.. إذاً حق الطفل هو التعليم المجانى.. الإلزامى).

فى نهاية أعوام ١٨٧٠ أجلستْ الدولة الطفل على مقاعد المدرسة العَلمانية.. المجانية .. الإلزامية من أجل أن تُشبع احتياجاته الجوهرية:

(١) المعارف العامة هي التعليم الرسمي الآن. (المترجم).

(٢) نبات تتجلى فيه جميع الصفات النموذجية. (المترجم).

(٣) أحد كتب هوجو المعروفة. (المترجم).

يقرأ.. يكتب.. يَعُدُّ.. يُفكّر.. ينشأ داخل مُواطن يشعر بشخصيته الفردية والقومية. كان لدى الطفل چول قبعتان:

كان تلميذاً داخل الفصل.. وابناً داخل عائلته. كانت العائلة تتكفل بتربيته والمدرسة بتعليمه. كان هذان العالَمان عملياً مُحكَما السدّ وكان عالم الطفل چول كذلك:كان يشاهد دون أدنى توثيق تبرعمات المراهقة المرعبة.. كان يتوه وهو يخمن مواصفات الجنس الآخر.. كان يبتكر كثيراً وكان يُصلح باستخدام وسائل الشاطئ. أما من جهة ألعابه فمعظمها كان يقوم على مهارته الوحيدة فى تَخيّلها . ما عدا الظروف الاستثنائية.. لم يكن الطفل چول يشارك فى انشغالات البالغين العاطفية.. الاقتصادية.. أو المهنية. لم يكن خادم المجتمع ولا هو موضع ثقة العائلة.. ولا مُخاطِب مدرسيه. بطبيعة الحال.. ككل العوالم.. هذا المجتمع المحصور جداً لم يكن بسيطاً إلا فى مظهره.. كان الإحساس يُصفَّى فيه بواسطة عدد من الفجوات لكى يضفى عليه تعقيده الإنسانى. يبقى أن حقوق الطفل چول تقتصر على حقوق التعليم.. وواجباته فى أن يكون ابنًا جيداً.. تلميذاً جيداً.. وإذا لزم الأمر ميتًا جيدًا. من جيش من ستة ملايين طفل چول يُقتل ١٣٥٠٠٠٠ بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ ومعظم الآخرين لم يعودوا منه سالمين.

عاش الطفل حول مائة عام ١٨٧٥ ـ ١٩٧٥ إجمالاً مُنتزَعاً من المجتمع الصناعى أثناء الربع الأخير من القرن التاسع عشر. واهبًا مائة عام فيما بعد للمجتمع التجارى الذى جعل منه طفلاً زبوناً.

ـ ٩ ـ

ثمة مائة نوع من الأطفال على كوكبنا..اليوم:

الطفل الزبون لدينا.. الطفل المُنتِج تحت سماوات أخرى.. فى أماكن أخرى الطفل الجندى.. الطفل البغىّ.. وعلى لافتات المترو المقوسة.. الطفل المحتضر الذى تُحْنى فى أوقات معلومة صورته على تقززنا نظرة الجوع والهجران.

إنهم أطفال.. الخمسة كلهم.

آليّون(*).. الخمسة كلهم.

(*) نسبة إلى الآلة.(المترجم).

-١٠-

من بين الأطفال الزبائن ثمة من يتصرفون بإمكانات آبائهم وثمة من لا يتصرفون بها.. من يشترون ومن يتدبرون أمورهم. فى كلتا الحالتين نادراً ما تكون النقود نتاج عمل شخصى.. الشاب المشترى يصل إلى الامتلاك دونما سجل حسابى. صدقتَ.. الطفل الزبون: الطفل الذى.. على عدد من ملاعب الاستهلاك المُطابقة لملاعب أبويه أو مدرسيه (كساء.. غذاء.. تهاتف.. موسيقى.. إلكترونيات.. تنقّل.. أوقات فراغ...) يصل بيُسّر إلى الامتلاك الخاص. وبهذا يلعب الدور الاقتصادى نفسه الذى يلعبه البالغون الذين تقع على عاتقهم نفقات تربيته وتعليمه. إنه يُنشئ مثلهم جزءًا ضخمًا من السوق. إنه يتداول مثلهم الشعارات (الحقيقة أن هذه الشعارات ليست شعاراته ولا تدخل فى الحساب).

رغباته كرغبات أبويه يجب أن تُطلب بإلحاح وتُجدّد دوماً كى تُواصل الآلة دورانها. من وجهة النظر هذه.. هو شخصية مهمة:زبون بنصيب كامل كالكبار.

مُستهلِك تلقائى.

منذ رغباته الأولى وهو طفل.

الرضا الذى يقيس الحب الذى نوصله إليه محسوب منها.

البالغون ولو أنهم يدافعون عنه لا يستطيعون فعل شىء حِيال هذه الرغبات.. هكذا يسير المجتمع التاجر: يحب طفله:(هذا الطفل.. مرغوب فيه لدينا جداً درجة أن مولده يحفر داخل أبويه دَيْن الحب بلا قاع).. إنه حب رغباته التى تفصح عن نفسها بسرعة كاحتياجات حيوية: احتياج الحب أو رغبة الأشياء.. الشىء كأنه نفسه.. بما أن شواهد هذا الحب تمر بشراء هذه الأشياء.

رغبة الطفل...

خذ.. ها هو اختلاف آخر بين طفل اليوم وبين الطفل الذى كُنْتَه:

هل كنتُ طفلاً مرغوباً فىّ؟

محبوب نعم.. على طريقة عصرى البعيد.. لكن مرغوب فيه؟

أى رأس صنعتها أمى العجوز.. التى احتفلنا بعامها الأول بعد المائة (الحاصل أننى أكتب هذا الكتاب على الهوينى).

لو أنى كنتُ سألتها دون إلحاح:

ـ بالمناسبة.يا أمى الصغيرة..أكنتِ ترغبين فىّ؟

ـ ...؟

ـ نعم..أنتِ استمعتِ جيداً إلى ما قلتُ:

بصراحة.. هل كنتُ الطفلَ الذى تريدينه أنت ويريده أبى .. تريدانه أنتما ـ الاثنين ـ ؟

أرى عينها تحط علىّ. أصغى إلى الصمت الطويل الذى كان و. سؤال مقابل سؤال:

ـ قل لى.. هل تتخلص جيداً من مأزق.. أنت .. فى هذه الحياة؟

لو أنى كنتُ حفرتُ أكثر قليلاً.. لكنتُ حصلت وقت اللزوم على عدة توضيحات وقائعية (١).

ـ وقتها كانت الحرب.. كان أبوك فى إجازة.. ثم نقلنا إلى كازابلاناكا.. إخوتك وأنا. كى ينزل مع الجيش السابع الأمريكى فى بروفانس. لقد وُلِدتَ فى كازابلاناكا.. أنتَ.

أو أيضاً.. فى أم الجنوب الطيبة:

ـ كنتُ أخاف أن تولد بنتاً.. أنا دائماً ما أُفضّل الأولاد. لكن أن أعرف ما إذا كنتُ مرغوباً فىّ.. لا. كان هناك نعت لِنَصِفَ به هذه الأسئلة فى ذلك العصر وفى عائلتى: كانت شاذة. حسناً.. لنعدْ مرة أخرى إلى الطفل الزبون ولنضع الأشياء فى نصابها: وأنا أصفه لا أبحث عن تقديمه كشخص سيباريسى(٢) حقير وأحمق.. ولا أوصى كذلك بالعودة إلى بلوفر أمى.. إلى المقاعد الصفيح.. إلى الأحذية المُرتَّقة..إلى الصمت العائلىّ.. إلى منهج أوجينوو(٣) إلى كل ما

(١) التوضيح الوقائعى: هو الذى يكتفى بسرد الأحداث. (المترجم).

(٢) السيباريسى: هو المترف أو المنغمس فى الملذات على غرار سكان المدينة الإغريقية القديمة سيبارس التى اشتهرت بالثراء والترف. (المترجم).

(٣) أحد المناهج التى كانت تُدرَّس فى فرنسا قديماً.(المترجم).

يجعل شباب اليوم يتخيلون شبابنا كفيلم بالأبيض والأسود. كلا.. أنا أتساءل وحسب أى نوع من التلاميذ الكسالى كنته أنا. لو أن المصادفة جعلتنى أُولد فلنقل منذ خمسة عشر عامًا. على الأرجح عند ذاك: كنتُ سأكون تلميذًا كسولاً مستهلِكًا. إن لم يكن ثمة نضج عقلىّ/فكرىّ مبكر.. كنتُ سأرتد إلى الإدراك التجارى الذى يضفى على رغبات المراهقين شرعية رغبات الآباء نفسها. كنتُ سأصنع منها مسألة مبدأ. أنا أسمع من هذا المكان: أنتم تملكون أجهزة حاسوبكم.. ولى الحق فى حاسوبى تمامًا!.

خاصة إن كنتم لا تريدون أن ألمس حاسويكم!

وكنتُ سأتنازل عنه. بواسطة الحب-حب ضال؟

ما أسهل الكلام. كل عصر يفرض لغته على الحب العائلى. وعصرنا يأمر بلغة الأشياء. لا تنسوا تشخيص الجدة ماركتنج: (شخصيته فى خطر).

كعدد كثير من الأطفال أو من المراهقين الذين أسمعهم قليلاً فى كل مكان.-كنتُ سأعرف كيف أقنع أمى بأن انقيادى لمجموعة.. وبالتالى اتزانى الشخصى كان سيتوقف على المثيل أو على شراء كهذا:

ـ أمى.-حتماً تلزمنى [إنّاتى/ NNN] الأخيرة!.

أكانت أمى تريد أن تجعلنى منبوذاً؟

ألم تكن تكتفى بنتائجى الدراسية التافهة؟

أكان علينا أن نبالغ فى هذا؟

ـ أمى.. أُقْسم لك.. سيكون لدىّ مظهر غُرَيِّر..(*) وإلا!.

(تصحيح: اغريْرب كلمة قديمة نوعاً ما.)

سيكون لدىّ مظهر قصعة.. وهذا ما لا يُحَدث شيئاً!.

(فى زمنه كان ميشيل أوديار يتحدث عن كهف أو عن مزلاج. (أمى..إن لم تدفعى لى ستأخذنى هذه الأحذية إلى الكهف!)

وأمى العطوفة كانت ستتنازل.

فقط.. منذ خمسة عشر عامًا أكنتُ سأكون المولود الأخير لأربعة إخوة؟

أكنتُ سأكون مرغوباً فىّ؟

أكنتُ سأُمنح تأشيرة الخروج؟

سؤال ميزانية.. كبقية الأسئلة.

(*) حيوان من الفصيلة السرعوية ورتبة اللواحم. (المترجم).

ـ ١١ ـ

أحد عناصر الـ [هذا] (*) الذى لمّ يتهيّأ له مُدرسُ هذه الأيام الشابُ هو اللقاء وجّهاً لوجه مع فصلٍ من الأطفال الزبائن. بالطبع المدرس بنفسه هو أحد هذه العناصر وأطفاله هو همّ بأنفسهم أحدها.. لكنه فى هذا الفصل هو المدرس. وبما أنه المدرس فلا يشعر بواجب الحب المحتوم الذى يُثير قلب الأب لديه. التلميذ ليس طفلاً مرغوباً فيه حتى لَيُضطر لإذابة امتنان أعضاء الجسد التعليمى. نحن هنا فى المدرسة الابتدائية.. الإعدادية.. الثانوية .. ولسْنا فى المنزل.. لسنا فى قاعة عرض تاجرة: نحن لا نستجيب إلى رغبات ظاهريةٍ بواسطة عدد من الهدايا.. نحن نُشْبع احتياجات جوهريةٍ من خلال عدة التزامات. احتياجات التّعلّم بالأحرىً الصعبة على الإرضاء والتى لابد أولاً مِن تنشيطها!.

هذا النزاع بين الرغبات والاحتياجات هو مهمة شاقة بالنسبة إلى المدرس!.

وبالنسبة إلى الشاب الزبون مهمة بصرية مؤلمة أن يهتم باحتياجاته فى ضرر رغباته: يُخلى الرأس كى

(*) يمكن العودة إلى الباب الخامس من هذا الفصل. (المترجم).

يُكوِّن العقل.. يُقْطع كى يرتبط بالعلم.. يُقايض كُليَّةَ شلل الآلات بعمومية العلوم.. ينسى الأشياء التافهة البراقة كى يُقارن بين أوهام خفية. وعليه أن يُسددها.. هذه العلوم الدراسية حين لا يُرَّهنه إشباع الرغبات لأى شىء! لأنه.. تناقضاً مع التعليم المجانى المتوارَث من چول فيرى.. تظل اليوم مدرسة الجمهورية المكان الأخير للمجتمع التاجر حيث يجب على الطفل الزبون ألا يدّخر شيئاً من جهده.. أن يرضخ لـ أعْطِ تُعْطَ : العلم مقابل العمل.. المعرفة مقابل المجهود.. الدخول فى العمومية (*) مقابل التدريب المنعزل لرد الفعل.. وعْد غامض بالمستقبل مقابل حضور دراسى تام.. هو ذا ما تتطلبه منه المدرسة.

لو أن التلميذ الجيد.مُعضَّد بكفاءته يحسب حساب كل شىء. يَشفى غُلّته من هذا الموقف.لماذا يوافق عليه التلميذ الكسول؟ لماذا يتخلى عن وضع نضجه التجارى لوضع التلميذ المطيع..الذى يعتبره طفوليّاً؟

لماذا يدفع للمدرسة فى مجتمع تُقدم فيه بدائل المعرفة من الصباح إلى المساء مجاناً فى صورة أحاسيس ومقايضة؟

ألا يشعر كل تلميذ كسول كالذى كنته فى الفصل أنه سيد الكون حين يكون، وهو محتجز فى حجرته جالساً أمام منضدة حاسوبه؟ ألا يُجرب وهو على

(*) العمومية : هى منهب يتعلق بكل ما هو كلى أو عمومى. (المترجم).

الشَّات حتى مطلع الصباح إحساسَ التواصل مع الأرض بأكملها؟

ألا تسمح له لوحة مفاتيحه بالدخول إلى كل المعارف التى تتطلَّبها رغباته؟

ألا تُقدِّم له معاركه ضد الجيوش المُفترَضة حياة نابضة؟

لماذا يُقايض هذا الوضع المركزى بمقعد فى الفصل؟

لماذا يُعانى من الأحكام الرفضية للبالغين المَحْنيِّين على شهادته الفصلية[1] فى حين أنه وهو حبيس حجرته ومنفصل عن أقاربه وعن المدرسة يسود؟

ما من شك لو أن التلميذ الكسول الذى كنته كان قد وُلِد منذ خمسة عشر عاماً ولو أن أمه كانت قد تنازلتْ عن أقل رغباتها لقام هو بنهْب الخزينة العائلية. لكنْ ليهبها لنفسه هذه المرة!.

لكان قدّم لنفسه تملّصاً طبيعياً آخر صيحة.

لتُرك لتمتصه شاشتُه.. لتحول فيها إلى أشعة كى يتزلّج على حيّز وقتى[2] بلا ضغط وبلا نهاية.. بلا موعد وبلا أُفق.. لكان سيثرثر إلى الأبد وبلا حديث مع الآخرين.

كان يعشقه.. إنه العصرَ الذى.. وإن لم يكفل أى مستقبل لتلاميذه السيئين .. فهو سخىٌ فى الآلات التى تسمح له بإلغاء الحاضر!.

---

(١) يحصل عليها التلميذ كل ثلاثة شهور ويقصد بها شهادة التيرم الدراسى.(المترجم).

(٢) حيز بأربعة أبعاد حسب النظرية النسبية. (المترجم).

لكان فريسةً نموذجيةً للمجتمع الذى يفلح فى
هذا الإقدام:
يصنع شباباً بُدناء(*) مُجرِّدًا إياهم من الواقع.

(*) جمع بدين، وهو السمين. (المترجم).

ـ ١٢ ـ

ـ أنا.. شابٌ بدين مُتجرد من الواقع؟

(أوه! يا إلهى الطيب.. هو ذا أيضاً...)

ـ مَن الذى يسمح لكَ أن تتحدث نيابةً عنى؟

عجباً.. لماذا أتذكره.هذا التلميذ الكسول الذى كُنْتُهُ.. هذه الذكرى غير القابلة للإصلاح عنى؟

ها أنا أصل أخيراً إلى صفحاتى الأخيرة.. لقد تركنى وشأنى منذ أن تحدثت مع ماجزيميليان.. فإذا بى أستدعيه فى هذه الذكرى!.

ـ أجبْنى لما الذى أذِن لك أن تعتقد أننى لو ولدتُ منذ خمسة عشر عاماً كنتُ سأكون التلميذ الكسول المستهلِك بإفراطٍ الذى تتحدث عنه؟

ما من شكٍ.. إنه هو.. دائماً يُطالب بتفسيرات بدلاً من أن يتزود بنتائج. حسناً.. هيا:

ـ ومنذ متى أحتاج إلى إذْنك كى أكتب أياً ما كان هذا؟!

ـ منذ أن تتكلم بسرعة عن التلاميذ الكسالى!.

فى مادة الكسل.. أنا الخبير.. فى رأيى!.

أأكون خبيراً فيما أعانى منه؟

الابد للمرضى لا محالة من تبديل أطبائهم وللتلاميذ السيئين من أن يَحلُّوا مَحلَّ مُدرسيهم؟

غير مُجِّدٍ الدفع به إلى هذا المضمار.. فقد يكون قادراً على جعلى أُسَوِّد عدداً من الصفحات. لننته منه بأقصى سرعة:

- فلنقَبلْ.أى نوع من التلاميذ الكسالى تكونه اليوم. فيما ترى؟

- لو كان هذا موجوداً.. اليوم سأتخلص منه جيداً!.

ألا يوجد فى الحياة سوى المَدرسة .. أتتصورا.

منذ البداية وأنت تجعلنا نسأم من المدرسة. لكن ثمة حلول أخرى!.

لديك عدد كبير من الأصدقاء الذين نجحوا خارج نطاق المدرسة.

يجب أن تقولها أيضاً.. خارج نطاق هذا!

انظر إلى برتران.. روبير.. مِيكْ.. وفرانسواز: فروا مبكراً جداً من المدرسة وشُفيوا منها كما ينبغى. لقد صنعوا لأنفسهم حياة جميلة..لا؟

حينئذ.. لمَ لستُ أنا؟ أنا.. قد أكون اليوم بطلاً إلكترونياً.. هيا لنتعرفْ!.

- ...

- لا؟ هذا سيُخيِّب لك هذه الإمكانية.. أنت الذى لستَ أهلاً للتدرب على أقل جهاز كمبيوترا.

أنتَ تريدنى تلميذاً كسولاً.. قطعاً وثاقب صناديق!.

أهذا لاحتياجات البرهنة؟

حسناً.. قبلتُ.. لو ولدتُ منذ خمسة عشر عاماً لكنتُ تلميذاً كسولاً.. أسوأ من فى فصلك.. وأنتَ كنتَ تدفقتَ: (لمْ يدربنى أحد على هذا.. لم يدربنى أحد على هذا).

وهذا سيرضيك هكذا؟

ـ ...

ـ مهما يكن الأمر إن كنتُ كنته أم لا فليس هذا هو السؤال.

ـ ما السؤال؟

الطبيعة الحقيقية لـ (هذا) التى يُصرح المدرسون الشباب أنهم لم يتدربوا لها.. هو ذا السؤال الوحيد.. أنت بنفسك الذى طرحته.

ـ إجابة؟

ـ عجوز العالم: لم يُحضِّر المدرسون للتصادم بين العلم وبين الجهل.. هذا هو كل شىء!.

ـ ستحكى لى الكثير عن هذا.

ـ بالتمام. حكايات فقدان مَعْلَمِ الطريق.. العنف.. الاستهلاك .. كل هذا الكلام الخلاب..إنه تفسير اليوم.. أما غداً فسيكون شىء آخر.

من ناحية أخرى.. قلتها بنفسك: الطبيعة الحقيقية لـ (هذا) لا تُصغَّر بالنسبة إلى إجمالى العناصر التى تُكوِّنها موضوعياً.

ـ ما لا يكشف لنا ما تكونه بالفعل.

لقد قلتها لك منذ قليل: صدمة العلم ضد الجهل! كم هى عنيفة!.

هى ذى الطبيعة الحقيقية لـ (هذا). أنت تسمعنى. نعم؟

ـ أسمعك.. أسمعك.

أسمعه فإذا به يقتحم درسًا عظيمًا.. صاعدًا على منصة.. لم أعد أتأكد منه.. من حيث يخرج مرة أخرى.. لو أفهمه جيداً.. أن الطبيعة الحقيقية لـ (هذا) قد تكمن فى النزاع الأبدى بين العلم كما هو يُتصور وبين الجهل كما هو يُعاش: عجز المدرسين المطلق عن فهم حالة الجهل حيث يطهون على نار هادئة تلاميذهم الكسالى.. بما أنهم كانوا هم أنفسهم تلاميذ جيدين.. على الأقل فى المادة التى يُدرِّسونها!.

عقبة المدرسين الكئود تمكث فى عجزهم عن أن يتصوروا أنفسهم لا يعرفون ما يعرفون. أياً كانت الصعوبات التى يُبتلون بها فى امتلاكها.. حين تكون معارفهم مكتسَبة تصبح متعايشة معهم.. يلمحونها من الآن فصاعداً كبديهيات (بل إنها بديهيات.. فلنرَ!).. ولا يستطيعون أن يتخيلوا غرابتهم المطلقة بالنسبة للذين.. فى هذا المجال المحدد.. يعيشون فى حالة من الجهل.

ـ أنت.. على سبيل المثال.. الذى قضى عاماً فى تَعلُّم حرف الـ [a] أتستطيع اليوم أن تتخيل نفسك لا تعرف كيف تقرأ وكيف تكتب؟ كلا!.

أكثر من مدرس رياضيات لا يستطيع أن يتخيل نفسه يجهل أن ٢+٢=٤!.

وبعد.. كان هناك وقت لم تكن تعرف تقرأ فيه! كنتُ تتخبط فى الحروف الأبجدية. أأستطيع الآن أن أُذكِّرك بوقت ليس بعيداً جداً .. يوم إن كانت أَلِيس ابنتك. هى اليوم تقرأ أكثر منك. تُكرِّس سوء نية لقراءة النصوص الأولى التى كانت المدرسة تضعها أمام عينيها وهى طفلة؟

أحمق! أب غير مؤهل!.

أنسيتَ أن هذه الصعوبة هى ذاتها صعوبتك أنت!.

وأنك كنتَ للغاية أكثر بطئاً من ابنتك فى هذا المجال!.

لكن هو ذا.. أصبح بالغاً وعارفاً. كان سيدى يبدو نافد الصبر بصحبة صَبيَّةٍ تتدرب!.

علمك كمدرس وقلقك كأب جعلاك ببساطة تفقد الإحساس بالجهل!.

أستمع إليه..أستمع إليه. معروفاً بسرعة مشابهة.. أعرف أنه ما من شىء كان يستطيع أن يستوقفه. أنتم جميعاً أنفسكم.. أيها المدرسون!.

ما ينقصكم.. دروس الجهل!.

نجعلكم تجتازون كل أنواع الامتحانات والمسابقات على المعارف المكتسبة.. حين يجب أن تكون ميزتكم الأولى هى كفاءة فَهْمِ حالة مَن يجهل ما تعرفون!.

أحلم بتجربة كابيه..أو بتجربة أخرى حيث نطلب من المُرشح للامتحان أن يتذكر رسوبًا دراسيًا ـ سقوط

مُباغت فى الرياضيات على سبيل المثال فى الصف الثالث أو الثانى ـ وأن يسعى لفهم ما حدث له فى ذاك العام!.

ـ قد يتَّهم مدرسَ وقتئذ.

ـ غير كاف! يعود الخطأ لمدرس.. أعرف.. لقد اعتدت على ذلك.

لا بد من أن نطالب المُرشح للامتحان أن يُنقِّب فى مناطق أكثر عمقاً.. أن يبحث حقيقة عن سبب سقوطه فى ذاك العام. أن يبحث داخله.حوله.. فى رأسه.. فى قلبه.فى جسده.. فى جهازه العصبى.. فى هرموناته.. أن يبحث فى كل مكان. وأن يتذكر كذلك كيف تخلص من ذاك الرسوب!.

الوسائل التى استخدمها! الحيل الشهيرة!

أين كانت تختبئ.. حيِله؟

وماذا كانت تُشبه؟

سأذهب إلى أبعد من هذا.. يجب أن نسأل المدرسين المتدربين عن الأسباب التى من أجلها كرَّسوا أنفسهم لمادة بدلاً من أخرى. لماذا يُدرِّسون اللغة الإنجليزية وليس الرياضيات أو التاريخ؟ بالإيثار؟ وبعد.. أن يحفروا فى اتجاه المواد التى كانوا لا يفضلونها!.

أن يتذكروا ضعفهم فى الفيزياء.. عدم كفاءتهم فى الفلسفة.. أعذارهم الوفيرة فى الألعاب البدنية!.

باختصار.. يجب على من يريدون أن يُدرِّسوا أن تكون لديهم رؤية واضحة للفترة التى قضوها بأنفسهم

فى الدراسة. أن يشعروا قليلاً بحالة الجهل إن كانوا يريدون أن يكون لديهم بصيص فرصة ليخلصونا منها!.

ـ إنْ أفهم جيداً.. فستقترح تجنيد المدرسين لدى التلاميذ السيئين بدلاً من التلاميذ الجيدين؟

ـ لمَ لا؟ لو أنهم تخلصوا من حالة الجهل وتذكروا التلميذ الذى كانوه يوماً ما.. لمَ لا؟

على أى حال.. أنت مدين لى كثيراً!.

ـ ...

ـ كلا؟

ـ ...

ـ كلا؟ أنا .. أنا أرى تعليمياً أنك مدين لى للغاية. كان يجب أن تكون تلميذاً كسولاً سابقاً كى تصبح مدرساً.. كلا؟

كُنْ أميناً لو أنك كنت متفوقاً فى الفصل.. لفعلتَ شيئاً آخر. فى الحقيقة.. أنتَ عدت إلى صندوق قمامة چيبوتى .. مُتنكِّراً فى صورة مدرس.. كى تنقذ تلاميذ كسالى آخرين! وبفضلى أنا وصلت إلى هذا! لأنك كنتَ تعرفَ ماكنتُ أشعر به. كان هذا من معرفة (هذا) أيضاً .ألا تفكر؟

(ماذا لو يتخيل أنى سأجعله سعيدًا...)

ـ أنا أعتقد خاصةً أنك ستحطمها لنا بواجبك.. واجب تَفَهّم شخصية الآخرين.. وأنه أزعج أكثر من مدرس! لو أنك أمسكتَ بزمام الأمور نهائياً لكنتَ أنقذت نفسك بنفسك!.

هنـاك.. ينغرز فى حَنَق أسود. أولاً لأنه لم يفهم كلمة (empathé)(*) بعد ذلك لأنها شُرحت ذات مرة وفهمها جيداً. ليس تَفَهُّم شخصية الآخرين! إننا نسخر من كلمتكم: تفهم شخصية الآخرين! إنها تتدفق أمامنا.. كلمة: تَفَهُّم شخصية الآخرين!.

لا أحد يطلب منكم أن تمسكوا بنا..إننا نطلب منكم أن تنقذوا الصِّبْية الذين ليس لديهم الوسائل التى تطلبونها منهم... أتستطيع أن تفهم هذا؟

نطلب منكم أن تضيفوا إلى كل علومكم حَدْس الجهل.. أن تذهبوا إلى اصطياد التلميذ الكسول فهى ذى مهمتكم!.

التلميذ السيئ سيمسك بزمام الأمور حين تعلمونه كيف يمسك بزمامها!.

هذا هو كل ما نطلبه منكم!.

ـ مَنْ (هذا)..نحن؟

ـ أنا!.

ـ آه.. أنت.. وماذا تقول عنها.. أنت.. الاختصاصى .. عن حالة الجهل هذه؟

ـ أقول عنها إنها ليست الثقب الأسود الكبير الذى تتخيلونه. بل العكس. سوق تُباع فيه الأشياء القديمة حيث تجد كل شىء أياً ما كان ما عدا رغبة تَعلّم ما دَرَّسَه لك المدرسون. التلميذ السيئ لا يعيش كجاهل أبداً. أنا لم أرنى جاهلاً.. أنا.. رأيتنى أحمق.. وهذا مختلف جداً!.

(*) تعنى القدرة الفطرية على تفهم شخصية الآخرين. (المترجم).

يعيش التلميذ الكسول كغير مؤهل.. أو كضعيف الإدراك.. أو كمتمرد..أو حينئذ يسخر منه.. إنه يعيش كعارف لعدد من الأشياء الأخرى. بسرعة جداً.. يريد الكثير من معرفتكم. يصنع منها حزنه. حزن مؤلم أحياناً.. لكن كيف يقول؟

التحدث عن هذا الألم يشغله أكثر من الرغبة فى الشفاء منه. وهذا صعب على الفهم.. لكن هو ذاك!.

جهله.. يأخذه لطبيعته العميقة. هو ليس تلميذ رياضيات.. هو غير كفء للرياضيات.. هكذا هو. ولو لحقت به بعض التعديلات.. فسيتفوق فى ميادين أخرى. ثاقب صناديق.. كما فى حالتى. أشوه الوجوه قليلاً. وحين يقبض عليه من قِبَل البوليس.. يسأله المساعد الاجتماعى لماذا لم يجتهد فى المدرسة.. أتعرف بما أجاب؟

ـ الشىء نفسه كالمدرس.. بالضبط: الـ (هذا)!.

المَدرسة ليست من أجلى.. أنا لستُ مُهيأً لـ (هذا).. هذا ما يجيب به. وهو أيضاً.. دون أن يعرف.. يتحدث عن التصادم المرعب بين الجهل والعلم. إنه (هذا) نفسه.. (هذا) المدرسين. يعتبر المدرسون أنفسهم أنهم لم يُحضّروا أنفسهم لأن يلتقوا داخل فصولهم بالتلاميذ الذين يعتبرون أنفسهم ليسوا مهيئين ليكونوا داخلها.

من الناحيتين.. هو (هذا) نفسه!.

ـ وكيف نُداوى (هذا) لو كان ثمة تحذير من تفهم شخصية الآخرين؟

هناك.. يتردد كثيراً.

عليّ أن أُلحّ:

ـ هيا.. أنت مَن يعرف كل شيء دون أن يتعلم شيئاً.. طريقة التدريس دون التحضير لـ (هذا)؟ هل ثمة طريقة؟

ـ ليست هذه ما تنقص.. طرق التدريس.. إنه لا يوجد حتى سوى (هذا).. طرق تدريس!.

أنتم تقضون وقتكم في الاعتصام داخل طرق التدريس.. في حين أنكم في قرارة أنفسكم تعرفون جيداً جداً أن الطريقة لا تكفي.

ينقصها شيء ما.

ـ ماذا ينقصها؟

ـ لا أستطيع أن أقولها.

ـ لماذا؟

ـ لأنها كلمة قبيحة.

ـ أقبح من (تَفَهّم شخصية الآخرين)؟

ـ بلا تشبيه. كلمة لن تستطيع أن تنطقها مطلقاً داخل مدرسة.. مدرسة ثانوية.. كُليّة.. أو كل ما يشبهها.

ـ أقابلةٌ لأن تُعرف؟

ـ لا..حقيقةً لا أستطيع...

ـ هيا.هيا!.

ـ لا أستطيع أن أتفوه بها! لو أنك تُخرج هذه

الكلمة من فمك متحدثًا عن التعليم.. فسوف تُلقى بنفسك للعِقاب.

ـ ...

ـ ...

ـ ...

ـ الحب.

ـ ١٣ ـ

هذا صحيح.. شىء معيب عندنا أن نتحدث عن الحب تعليمياً. فلنحاول.. لنرى.

كذلك التحدث عن حبٍّ داخل منزل مشنوق.

من الأفضل أنْ نلجأ إلى المَجَاز كى نَصِفَ نمط الحب الذى أحيا الآنسة ج. .. نيكول هـ. .. المدرسين الذين أتحدث عنهم طوال هذه الصفحات.. معظم الذين يدعوننى إلى فصولهم وكل من لا يملّون.. الذين لا أعرفهم. مجاز.. إذًا.

مجاز ذو أجنحة.. بالنظر إلى ذلك.

ڤيركور.. ذات يوم فضلاً عن ذلك.

ذات صباح من شهر سبتمبر الماضى. كل أيام شهر سبتمبر الأولى. متأخراً نمْتُ على صفحة ـ أياً كانت ـ من هذا الكتاب. أستيقظ مسرعاً لأواصل. أتهيأ للقفز من السرير لكن ضجةُ نافذةً استوقفتنى. صياح بلا انقطاع حول المنزل. زقزقة لا تحصى وفى الوقت نفسه حادة وفى التوِّ رقيقة. آه! نعم.. رحيل طيور السنونو!.

كل عام فى التاريخ نفسه تقريباً تتواعد على الأسلاك الكهربائية. حقول الطريق وجانباها مغطاة

بتقسيمات كما فى صورة بثلاثة فلسات. تتهيأ للهجرة.•
إنها ضجة التلاقى. الطيور التى تُحوِّم فى السماء تطلب إذناً بالاصطفاف من التى حطت قبلاً على سِلْكِها.. جميعها يرتعش من تمنى الأفق. أسرعوا.. نحن ذاهبون إليه! نَصِل! نَصِل! هذا يطير بأقصى سرعة. هذا يجىء من الشمال.. فى أفواج.. الرأس متجه ناحية الجنوب. والحالة هذه..إنه بدقة اتجاه حجرتنا: الشمال.. الجنوبى. كُوَّةٌ فى الشمال.. نافذة مزدوجة فى الجنوب. وكل عام تتكرر الدراما نفسها: منخدعاً بشفافية هذه النوافذ المتراصة يحطم عدد كبير من طيور السنونو رأسه فى زجاج الكوة. ليست هناك كتابة فى هذا الصباح.. إذًا. افتح الكوة الشمالية والنافذة المزدوجة الجنوبية.. أغطس فى سريرى مرة أخرى.. وها نحن مشغولون صباحاً بمشاهدة أسراب طيور السنونو وهى تعبر مسكننا.. يخفت صوتها فجأة.. خائفة ربما من هذين الممرين اللذين تستعرضهما.

فقط.. فى جانب النافذة المزدوجة وفى جانبها الآخر.. فتحتان دقيقتان رأسيتان تظلان مغلقتيْن. فسيحٌ هو الفضاء فيما بين هاتين الفتحتين.. اللتين تسمحان لكل عصافير السماء بالمرور. ومع ذلك..لا مفر من هذا أبدًا.. لابد وأن يشترى ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الحمقى الفتحات!.

إنه حجمنا.. حجم التلاميذ الكسالى. المنحرفون عنا. ليسوا فى الصف. لا يتبعون الطريق اليمين..

يلهون كما الأطفال فى الهامش. النتيجة: فتحة. بُوكْ! متعبة فوق السجادة. آنذاك.. ينهض أحدنا.. يأخذ طائر السنونو الصريع فى باطن يده - إنه لا يزن شيئاً.. عظامه فى مهب الريح - .. ينتظر أحدنا ريثما يُفيق.. ويطلقه ليلحق برفاقه. الطائر الذى بُعث من جديد يُحلِّق.. يترنّح قليلاً.. يطير متعرجًا فى الفضاء الذى عاد إليه مرة أخرى.. ثم يغرز مستقيمًا فى اتجاه الجنوب وفى مستقبله يتوارى. هو ذا.. مجازى يُساوى ما يساويه لكن هذا لما يشبه الحب فى تعليمنا. حين يُقدِّر تلاميذنا كعصافير طائشة. هذا ما لأجله انشغلت الآنسة ج. أو نيكول هـ. بكينونتهما: الخروج من السُّبات الدراسى بموكب من طيور السنونو المحطمة.لا تفلح دائماً تفشل أحياناً فى رسم الطريق.. بعضها لا يستيقظ.. يظل فوق السجادة أو يحطم عنقه فى زجاج النافذة التالى.. والذين يظلون فى ضميرنا كثقوبٍ ندامةٍ حيث ترقد طيور السنونو الموتى فى قاع حديقتنا.. لكننا نحاول دائمًا.. كنا سنحاول. إنهم تلاميذ(نا).أسئلة المشاركة الوجدانية أو التعارض الغريزى بالنسبة إلى البعض وللبعض الآخر منهم (أسئلة واقعية أكثر من اللازم.. رغم ذلك!) لا تدخل فى الحساب. ماهر جدًا من يستطيع أن يتحدث عن منزلة إحساسنا بالنسبة إليهم. ليس هذا هو الحب المقصود.

طائر سنونو صريع هو طائر سنونو فى انتظار البعث مرة أخرى.

نُقْطةٌ أخيرةٌ.

شكر

يذهب شكرى كما فى أكثر الأحيان إلى:

ج.ب. بونتال.چان ـ فيليب بوستل.. چاك بياناك.. چان چيران.. چان ـ مارى لاكلافتين.. هوج لكليرك..

إلى بيير چيستاد..إلى فيليب بن لاسان أيضاً..

إلى چان ـ لوك چيانيتو..

إلى ڤيرونيك ريشارد..

إلى كريستين و فرانسوا مورل..

إلى شارلوت وڤتسان سشنيجانس..

إلى چان ـ ميشيل ماريو..

باختصار..

إلى كل الذين تَحَمَّلوننا.. تلميذى الكسول وأنا.. وأنا أكتب هذه الصفحات.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «ماري نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسي «بيير بيجي».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصري «خيري شلبي» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصري «محمد عفيفي مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا في حياتي».. للكاتب المصري «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصري «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفو.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو» رواية (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «اسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريچيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيللا».. قصص.. جائزة بيريباروبيا.

٣٢– مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «انجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة ثرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل فى الآداب.

٧٤ ـ كلٌ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيفين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

حزن مدرسي

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ـ غدًا.. فالتر، كاباخر.. جائزة چورج بوشنر ٢٠٠٩.

٢ ـ ملك كهل.. تيرنومو مونيمبو.. جائزة رينودو ٢٠٠٨.

٢ ـ الكلمة المكسورة.. آدم فولدز.. جائزة كوستا٢٠٠٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

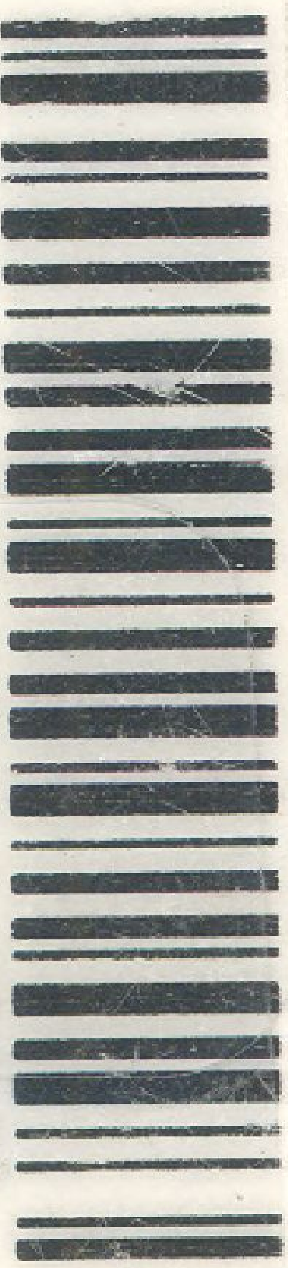
تتماس هذه الرواية مع السيرة الذاتية للكاتب فى سنواته المبكرة وحزنه طوال فتره المدرسة، فـ"دانيل بناك" كان هو ذلك التلميذ البليد الكسول الفاشل، وهو هنا يفتح جرحه هذا حتى منتهاه ليطلّ على جميع الأطراف المشاركة فيه مثل المدرسين والعملية التعليمية برمتها وعلى الأطراف المتألمة من هذا الفشل مثل أسرته وعلى وجه الخصوص أمه.

وعلى الرغم من سخريته اللاذعة أحياناً من نفسه إلى حدّ وصفه لغبائه بأنه كان صحراء شاسعة تمتدّ من تعلّم أحد حروف الهجاء إلى الحرف الذى يليه، فإن "دانيل" يقدم رواية آسرة وشديدة العبقرية والعمق والبساطة فى الوقت ذاته، وتكاد تكون كتاباً تربوياً للمدرسين والتلاميذ على حدّ السواء إذا أُتيحت لهم فرصة قراءته!! وهذه إحدى وصايا المؤلف حيث يكرر طوال صفحات الرواية.. إن الخوف من القراءة يعالج بالمزيد من القراءة والخوف من النحو يعالج بالنحو والخوف من عدم فهم النص يعالج بالانغماس فى النص.

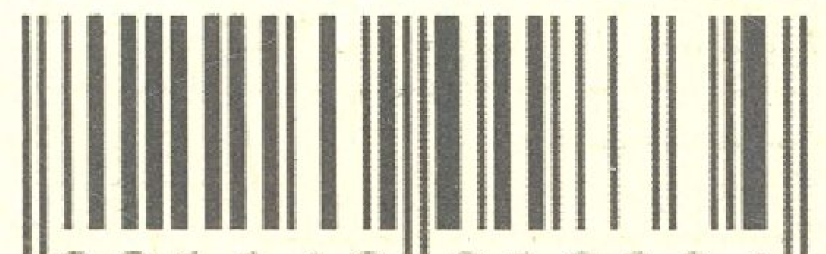
المدهش أن "دانيل بناك" هذا التلميذ الذى كان بليداً هو نفسه الذى عمل بعد ذلك مدرساً ربما لكى يهتم بالتلاميذ الكسالى، ثم صار هذا المؤلف الشهير الذى نعرفه، وربما ليس من قبيل المصادفة تماماً أن يكون المبدع عاطف محمد عبد المجيد، الذى يقدم لنا هذا الحزن المدرسى باللغة العربية هو يعمل الآن مدرساً للغة الفرنسية إحدى مدارسنا التى نطمح أن يزول حزنها المدرسى.

الروائى: الكاتب الفرنسى دانيل بناك
الجائزة: جائزة رينودو عام ٢٠٠٧.





ISBN# 9789774216515



١٥ جنيهات

الهيئة المصرية العامة للكتاب